إلهام منصُور

هِبَى
في رحلَةِ
الجَسَد

سيرة ثانية

-توطئة-

تبدأ الحكاية أحياناً من كلمة؛ شعاع نور يغزو فضاء الزمن الراحل فنرى؛ ويخرج الماضي من ضبابه ليصبح قولا يروى.

* * *

كانا جالسين في بيته، عادا إلى الصالون بعد أن مارسا الحب بزخم كل السنين الماضية.

صامتين كانا، حين امسكت يده وقالت:"نعتقد اننا نعرف، ودائماً نتعلم".

-كنت سأقول الشيء نفسه، ثم فضلت السكوت، واذ بك تقولينه انت.

-يعني ؟ أوضح.

-شعرت أنه ما زال فيك نواح عذراء... وأكمل حين ابتسمت:

ليس في البدن طبعاً.

نظرت إليه وقالت: "ما زلت أمارس الحب معك بدون هوامات. Sans fantasmes

شد على يدها، داعب فخذها وأفهمها، بدون أن ينطق، أنه هو أيضاً. فتابعت:

-حين تعود هواماتي، فهذا يعني أنك انتهيت.

لم يجب، مد يده إلى المكتبة وراء المقعد وسحب كتاباً وأخذ يقرأ لها مقاطع في الحب. كان كتاب "طوق الحمامة" لابن حزم الاندلسي.

* * *

-إذا الغينا العبث من الحياة فماذا يبقى؟

...-

-يبقى لحظة تتلاقى العيون، ويرتد النظر على نفسه، فيغيب العالم.

-...

-حين فتحت عيني ونحن نمارس الحب وجدت نفسي في عينيه تماماً كما كان هو داخل جفوني. شعرت لحظتها أن ممارسة الحب هي غير ممارسة الجنس، وإن كانا في الواقع الملموس لا يختلفان.

* * *

أتت إليه بعد سهرة طويلة حتى الفجر. فتح الباب وبدون أن يتكلما، دخلا غرفة النوم وبدأ يعريها، لم تمانع...

بعدها قالت له : "انها المرة الأولى في حياتي التي أمارس فيها الحب مع آخر. كنت دائماً مع ذاتي في هذه الحالة".

قبلها، وانبعث الشعاع الذي حول الماضي إلى قول يروى.

بقبلة فقط، أجابها، منذ سنين، حين سألته هل ما زال يحبها. لم تفهمه يومها.

أتت إليه لتنتهي من جسدها ودوامته:

-نرحل غداً ونتزوج زواجاً مدنياً ونعود لنضع الجميع أمام الأمر الواقع.

كانت على خلاف مع صديقها ومع جسدها، وقررت أن تتخلص من هذه المسرحية وتبدأ حياتها الحقيقية. كانت تعلم أن صديقها لن يتركها، وأنه سوف يثابر على ملاحقتها والالحاح عليها بأن تمهله، وبأنه لا يستطيع العيش بدونها. وكانت تعلم أيضاً أنها ستضعف أمام نظراته ولمساته التي كانت تحولها إلى جسد عطش بداخلها من جديد في الدوامة.

-لماذا العجلة، وجرح المشاعر، أجابها، فلنأخذ وقتنا ونتحرر ممن يحيط بنا، ثم نلتقي كما نريد.

كان يومها على علاقة بصبية وقد وعدها بالزواج. وافقت هبى على اقتراحه وتفهمت وضعه، فلطالما تفهم وضعها سابقاً. ولكنهما لم يلتقيا. تزوج هو وبقيت هبى تدور على ذاتها وتكابر.

لم تنتج حرب لبنان، في دور انها العبثي، سوى الدمار والموت!

* * *

-لماذا الصدفة تتحقق، والضرورة تبقى حلماً؟

-...

-لأن تحققها يسقطها في اليومي-ويقتلها التكرار!

قرأت نصاً "لنيتشه" يقول فيه : "أنا لستُ حزيناً لأنك تكذب الآن، ولكني حزين لأنني لم أعد أصدقك".

فكيف تتصور أن تستمر علاقة أحد طرفيها يعشق نيتشه؟

ومع ذلك دامت هذه العلاقة دوام النزف في لبنان. كانت بدأت بعد "السبت الاسود" بقليل.

-1-

حدث ذلك بعد مرور خمسة عشر عاماً على لقائنا الاول.

انصرف الاصدقاء بعد سهرة طويلة. أصبحت وحدي تلك الليلة في البيت. كان جسدي متيقظاً من الاسراف في شرب القهوة والتدخين. استلقيت على فراشي أنتظر طلوع الفجر كي أرحل عن بيروت وحرها. كان الطقس صيفاً.

لماذا ذهبت، ليتها بقيت معي. لماذا هو وليس أنا؟ ما الذي يجمعها به؟ ... ولكن لماذا يعاودني هذا الحنين اليها؟ ماذا أسمع؟ هل يطرق الباب؟ من تراه يزورني في مثل هذا الوقت؟

فتحت الباب. وهبى ! استوعبت دهشتي: "أدخلي".

لم تقل شيئاً، دخلت، أقفلت الباب، وبصمت دنوت منها، وضعت يدي على كتفيها، ثم مسدت على وجهها وشعرها ولست ادري كيف ومتى تعانقنا، ثم أبعدتها عني قليلاً، وأخذت أعريها ببطء كبير. كانت تنظر إلي وتراقب حركاتي من دون أن تنطق بكلمة. كنت، أنا أيضاً صامتاً، اكتشفت جسدها بمتعة النظر واللمس إلى أن تحولت أمامي إلى حواء قبل الخطيئة. امحى الوجود من حولي وتحول الكون تفاحة شهية تغري التهامها. وتجددت بيننا أسطورة التوراة.

لو كان آدم، في ذلك الزمان، في مثل حالتي الآن لما وجد مفهوم الخطيئة، ولما احتجنا إلى مسيح لخلاصنا!

-هبى من أين لك هذه النضارة بعد تلك السهرة الطويلة؟ الآن فهمت كل تمنعك السابق!

ابتسمت وقالت:

-إنها المرة الاولى التي أمارس فيها الحب بمعناه الصحيح. كنت، حتى الآن، لا أمارس إلا الجنس. كنت دائماً أغيّب الشريك لأضاجع هواماتي. أما الآن فشعرت كأنني بلا تاريخ وبلا ذاكرة، وكأنني في بداية الكون.

ضحكتُ لهذا التلاقي الفكري الصامت بيننا، وقبلتها بحنان كبير قبل أن تتركني وتنصرف.

-2-

عدت إلى بيتي وغرقت في نومٍ عميقٍ. وحين استيقظت وجدتُ نفسي أردد : "توكا! لم أرها منذ خمسة عشر عاماً، فما الذي أتى بها إلى حلم؟"

جهزت القهوة وجلست على شرفة منزلي، أفكر، واعية بما رأيته وأنا في حالة اللاوعي، لأفك رموز الحلم بحسب نظريات فرويد وغيره من علماء النفس.

كنت أخرج من نفق طويل، وحين وصلت إلى نهايته فاجأني نور قوي، فأغمضت عيني ثم فتحتهما ببطء كي تألفا الضوء بهدوء، ورأيت فضاء واسعاً وكأنه بلا آفاق، ثم تشكل هذا الفضاء فجأة وظهرت فيه امرأة بثياب تشبه "الساري" الذي ترتديه نساء الشرق الاقصى. كانت المرأة تبتسم وتتقدم نحوي بهدوء، فما كان مني إلا أن تسمّرت مكاني، ولكنها تابعت سيرها، وحين اقتربت بشكل مكنني من قراءة وجهها صرخت: "توكا! كيف أتيت؟" فضمتني إليها وتعانقنا وسألتني :"وأنت كيف عدت؟" نظرت إلى الوراء، وإذا بنفق طويل، طويل ومظلم وفي فوهته الثانية أشكال آدمية تتراقص وكأنها دمى متحركة.

ماذا يقول علم النفس؟ سأختار منه ما يناسبني لأقول: حين يعبر اللاوعي عن قرار واع فهذا يعني سلامة الشخصية وتماسكها. الم يقل فرويد ان أفضل من فك رموز الحلم هو صاحب الحلم نفسه؟

* * *

تساءلنا لماذا الصدفة تتحقق والضرورة تبقى حلما. فكيف تحققت الصدفة؟

حين عصفت الحرب بلبنان، كان "ذكي"، أخي الاكبر يسكن منطقة خطرة أمنياً، فقرر الانتقال إلى قلب العاصمة وتم اختياره لشقة في بناية يسكن إحدى شققها الأخرى "هاني" وعائلته. الامر كان عفوياً بشكل مطلق وتافهاً بحد ذاته، ولم يكتسب معناه إلا بتسلسل أحداث منها الاستثنائي ومنها العادي جداً. نبدأ بالعادي.

تركنا القرية واستقرينا في المدينة. حدث ذلك حين كنت في الثالثة من عمري. سكنا المدينة التي كان أبي قد تعلم في إحدى مدارسها الثانوية قبل انتقاله الى بيروت، وحصوله على شهادة الطب في الكلية اليسوعية.

وفي بداية الحرب كانت عائلة "بيت الحكيم"، كما يسمينا الناس هناك، ما زالت تسكن المدينة إياها. ولكن العائلة في تلك المرحلة لم تعد موجودة بكامل اعضائها في ذلك البيت: الابن الاكبر، ذكي، كان قد تزوج وسكن العاصمة. الابن الثاني، فاضل،كان يسكن العاصمة أيضاً. هند، البنت الثانية، كانت أيضاً قد تزوجت، ولكنها سكنت المدينة عينها التي يسكنها أهلها. الابن الاصغر، يوسف،

كان يشارف على الانتهاء من دراسة الطب في العاصمة، ولكنه كان مازال مقيماً مع الاهل. أما أنا فكنت قد تزوجت وطلقت، وفي تلك المرحلة كنت مقيمة في بيت أهلي.

هنا ينتهي العادي ليبدأ الاستثنائي. وللاستثناء شرح طويل.

في منتصف ليلة من بداية شهر نيسان سنة 1976، كنا نائمين في ذلك البيت. أنا ووالدي ووالدتي وأخي يوسف، حين رن جرس الهاتف. استيقظ والدي، وكان الهاتف بالقرب من سريره، أخذ السماعة:

-ألو من؟

ثم صمت لبضع ثوان، بعدها هب من سريره وايقظنا قائلا:

-هيا بنا فلنترك البيت!

-ما القصة؟ سألت والدتي؟

-أخي، شفيق، هو الذي كلمني الآن: يبدو أن أحداً، لم يعرفه، اتصل به وقال له إن شيئاً ما سيحدث في بيتنا، وعلينا أن نترك حالاً.

تداولنا الأمر قليلاً، وكان الخوف مسيطراً على أفكارنا لأن موقفنا السياسي هو ضد موقف المحيط المقيميه فيه، ثم إن ذكي، كان مشاركاً فعالاً في "الحركة الوطنية" التي، في حينها كانت مع الحزب المسيطر عندنا على طرفي نقيض. لم يخطر ببالنا إلا عملية تفجير للبيت أو عملية خطف أحدنا للابتزاز أو ...

ولكن يوسف حسم أمره بسرعة وتوجه بسيارته إلى بيت عمه ليختبئ. كان خوفه شديداً، ولم يكن قد نسي بعد كيف نجا من القتل يوم "السبت الاسود"، حين كان الذبح على الهوية. وهنا لا بد من فتح مزدوجين.

(غادر يومها يوسف بيت أهله وتوجه إلى دار التوليد الفرنسية، حيث كان عليه أن يداوم. دار التوليد تلك تقع على "خط الشام" أي على الخط الذي يفصل

بين المسيحيين والمسلمين. قبل وصوله عرج على مستشفى "اوتيل ديو" حيث شرب القهوة مع صديق له هناك، اسمه حسن، كان ينتمي إلى إحدى الطوائف الاسلامية، ثم انتقل إلى مكان عمله. بعد وقت قصير انتشر خبر مقتل حسن على يد الميليشيات المسيحية. بعدها بقليل طوق فريق مسلم دار التوليد للأخذ بالثأر. ارتعد العاملون هناك وصعدوا إلى الطوابق العليا للاختباء. في تلك اللحظة اتصل والدي، صدفة، بدار التوليد ليطمئن على ابنه، فردت عليه ممرضة واخبرته بما يحدث. فأقفل السماعة واتصل بابنه ذكي لكي يسرع وينقذ أخاه.

أما يوسف فما كان يعلم بما يتم من اتصالات في الخارج. في هذا الوقت كان المسلحون يحاولون كسر الباب الحديدي لاقتحام المبنى، وما ان نجحوا بفتح الباب حتى وصلت ملالة، نزل منها عنصران من الأمن الداخلي، وتوجها إلى حيث يختبئ العاملون في دار التوليد،بعد أن تكلما مع المسلحين الذين توقفوا عن متابعة علمهم. دخلا الطابق الاعلى من المبنى وسأل أحدهما: " من هو الدكتور يوسف؟ حينها أدرك يوسف أنه العنصر المسيحي الوحيد بين رفاقه، فارتجفت ركبتاه خوفاً وربط هذا السؤال عنه بمقتل صديقه المسلم صبيحة ذلك اليوم، وتردد في الاجابة لحظة، كما تمنع الجميع عن الاشارة اليه.

استدرك الدركيان الموقف وقال أحدهما: "اطمئنوا، إننا هنا لإنقاذكم، وطلب منا أن نسلم الدكتور يوسف الى... وذكر اسم احد زعماء الحرب في تلك المرحلة- لكن يوسف الذي لم يكن يعرف من هو هذا الزعيم، ظل خائفاً ولم يتلفظ بكلمة واحدة. لاحظ طبيب آخر، مسلم، ارتباك يوسف فقال له: "لا تخف، سأذهب معك". فتشجع يوسف واعترف بأنه هو من يسأل الدركي عنه، وذهب مع صديقه الى حيث سلمهما الدركيان إلى الزعيم. وهكذا سلم يوسف، بدوره، إلى أخيه ذكي)

كل من نجا من حرب لبنان له قصة مماثلة.

إذا لم يكن الناجي قد نسي اللحظات، التي لم يفرق فيها بين الموت والحياة إلا لدقائق أو حتى لثوان. ولذلك حسم أمره بسرعة وغادر البيت.

أما نحن فقررنا، وبسرعة ايضاً اللجوء إلى بيت هند. تركنا كل شيء في مكانه وذهبنا.

في بيت هند اتصل والدي ببعض معارفه من زعماء الحزب المسيطر هناك، واخبرهم بالامر، فنفي الجميع أن يكونوا على علم بما جرى. ثم اتصل بذكي وروى له ما حدث معنا.

في صبيحة اليوم التالي توجه والدي إلى بيت اخيه، وقررت أنا الذهاب مع والدتي إلى البيت لتفقد ما حصل. قررت ذلك لأن المرأة، في تلك الاحداث، لم تكن عرضة للقتل ولا حتى للخطف من قبل الميليشيات. وحين وصلنا، توجهنا الى باب المدخل فوجدناه مغلقاً. لكن ما أن حاولت ادخال المفتاح في القفل حتى فتح الباب، كان مخلوعاً ومغلقاً كأنه لم يفتح. حينها لم نجسر على الدخول. فتراجعنا وتوجهنا إلى حيث يوسف ووالدي.

في بيت العم، كان رهط من الاقارب قد تجمع، وأخبرتهم بما حدث معنا، انبرى أحد الشبان وكان له بعض الاتصالات بالحزب المحلي، وقال: "سأذهب أنا الى البيت لاقف على حقيقة الامر". فتشجعنا وذهبنا معه. دفعنا الباب ودخلنا، لم يكن أحد في الداخل. أما حالة البيت فكانت يرثى لها، وكأنه أخضع لعملية تفتيش دقيقة، حتى أن صور العائلة والصور التذكارية كانت قد فتشت وبعثرت على الارض.

لم نعثر على احد، فتداولنا بالامر قليلاً وتم الاتفاق أن يتولى الشباب المتحمس، مع رفاق له، حراستنا، حتى تتضح القصة.

أمضينا تلك الليلة في البيت. تجمع عدد من الشبان المسلحين وجلسوا في الصالون المطل على الطريق العام وقاموا بالحراسة. لم يحدث شيء تلك الليلة ولا بعدها.

"كانت عملية خطف!" هذا ما روى في حينه، من دون أن نتأكد من صحة هذه الرواية. ومع الوقت نسيت هذه الحادثة ولم يقف أحد على حقيقة الامر. "فالطابور الخامس" كان المتهم الوحيد في كل واقعة من احداث لبنان.

يبدو أن الامر سوى في حينه-لا نعلم كيف- إذ اصتل ذكي بوالدي، وطلب منه أن نذهب إلى بيروت، وهكذا كان: ففي اليوم الثالث بعد الحادثة تهيأنا لمغادرة منزلنا، فتركت سيارتي أمام البيت وركبت مع والدتي وأخي يوسف سيارة أبي،

وتوجهنا نحو "الاشرفية" حيث كان ينتظرنا رجل طلب منه تأمين مرورنا ما بين البيروتين.

* * *

في بيت ذكي كانت عبارة "الحمدللة على السلامة" هي العبارة التي سمعتها من كل شخص دخل علينا. وكذلك قال هاني حين أتى ومعه ولدان، هما صبيان جميلان، عمرهما ما بين الثماني والعشر سنوات، وقد رحبت زوجة أخي بهم كما ينبغي. وبعد قليل توجه الرجل الى الولدين قائلاً: عودا الى البيت، أنا سألحق بكما، لن أطيل المكوث".

جلس والدي برفقة الضيف في الصالون، يتحدثان بالسياسة وشؤون البلد. ذكي كان خارج البيت. ذهبت أنا إلى المطبخ لتحضير القهوة، وحين دخلت عليهما، كانا يلعبان النرد. توقف الرجل عن اللعب ونظر إلي وكأنه يتساءل من أكون.

-إنها ابنتي هبى. قال والدي.

-تشرفنا، أجاب الرجل وهو ينظر إلى وجهي بإلحاح. أنا هاني جار السيد ذكي، واسكن الطابق الثالث.

هززت برأسي من دون أن أتكلم وجلست بالقرب منهما وهما يتابعان تسليتهما. ولكن هاني لم يعد مأخوذاً باللعب، كان يرمي "الزهر" وهو ينظر إلي ويتفحصني.

-هل نسميك الآنسة هبى أم السيدة هبى؟ سأل.

-أفضل "السيدة هبى". قلتها وصمت.

فاستعجل والدي وأوضح : "كانت متزوجة".

-يعني ...؟ سأل هاني

-يعني مطلقة، أجبت بسرعة من يريد إنهاء الموضوع.

لكن هاني تابع: "سيدة جميلة مثلك من غير الممكن أن تكون قد بقيت من دون زواج حتى الآن."

لم أعد أعرف كيف أتصرف وماذا أقول، فاستأذنت وعدت إلى غرفة الجلوس حيث كانت أمي وأولاد أخي وزوجته يسهرون أمام التلفزيون.

وما هي إلا دقائق قليلة حتى دخل هاني وأبي الغرفة.

-سنجلس معكم هنا، قال هاني، لماذا هذه القسمة؟

تفضل، قالت أمل، زوجة أخي، اجلس حيث تشاء.

قرع الباب ودخل أحد أولاد هاني وقال:

-بابا أنسيت أن الماما ستتصل بنا هذه الليلة؟

-لا لم أنس، أجاب هاني، ولكن اصعد الآن إلى البيت، وإذا اتصلت قبل مجيئي فتكلما معها، أنت وأخوك.

عاد الولد من حيث أتى وبقي هاني.

-هل ستتأخر في سفرتها؟ سألت أمل متوجهة إلى هاني.

-لا أدري، أجابها، وحاول تغيير الموضوع.

بقي هاني تلك السهرة حتى ساعة متأخرة. كان يساير الجميع، أما نظراته إليّ فكانت تتسم بشيء من الاعجاب الظاهر.

كنت في تلك الفترة، خارجة من قصة حب خائبة، لم أعر هاني ونظراته اهتماماً، كما أني لم أكد أعير أي اهتمام لأي رجل. لم يعن لي الرجل، وقتها، إلا شيئاً اريد تحطيمه، أو في أحسن الحالات عدم الاكتراث به. ولكني انثى وأطرب للاطراء مهما كان، ونظرات هاني الي كانت تعني ذلك الاطراء. فتصنعت اللامبالاة والتجاهل حتى انقضت تلك الليلة وانصرف هاني إلى بيته.

-3-

كنت وحدي في البيت.كان الوقت بعيد الظهر. الاولاد في المدرسة وزوجتي عند أهلها خارج البلد. أدرت الفيديو واخترت فيلماً بورنوغرافيا لاستمتع مرة أخرى بؤية تلك المرأة التي تستثيرني بشكل جنوني وتحرك كل مجوني للبحث عن صيد جديد. إنها شقراء، وشعرها طويل، تداعب النسمات خصلاته كلما تحركت. جسدها جسد أنثى بكل استداراته. والأهم من ذلك انها تمارس الجنس بشكل ممتع ومثير للغاية.

ارتدت البطلة "جينزها" الضيق وقميصها القصير الذي يبرز كل جمال جسدها. ودعت صديقها بقبلة طويلة، غادرت الشاشة وانتهى الفيلم.

أوقفت الفيديو وخرجت إلى الشرفة أنتظر عودة الأولاد لأهتم بهم بسرعة، علني أتمكن من زيارة صديقتي التي تؤمن لي الصيد كلما كنت بحاجة اليه، ولكي أتمكن من العودة إلى البيت قبل أن تتصل بنا زوجتي هاتفياً، في المساء كما كان الاتفاق بيننا.

وقفت على الشرفة وصورة تلك المرأة تملأ رأسي وخيالي وتحرك كل مشاعري وجسدي. توقفت سيارة أمام البناية، وإذ بإمرأة الشاشة تخرج منها! هل تركت صديقها لتأتي إلي؟ هل أدركت كم اشتهيها؟

كنت ما زلت مذهولاً حين رأيت رجلاً مسناً وإمرأة مكتنزة وشاباً في العقد الثالث من عمره يخرجون، هم أيضاً، من السيارة " هل تزورني برفقة أهلها؟ ما هذا التصرف الغبي؟ "

دخلوا البناية ودخلت بيتي أنتظر طرقاً على الباب. انتظرت الوقت اللازم، لم أسمع شيئاً. عدت الى الشرفة لأتأكد من رؤيتي إذ اختلط عندي الحلم بالواقع وما عدت أعرف هل أن ما رأيته هو حقيقة أم أنه من وهم خيالي الذي كان ما زال تحت تأثير ذلك الفيلم.

السيارة في مكانها. إنني متأكد الآن مما أرى. ولكن أين ذهبوا؟ من المستحيل أن يزوروا سواي! لا أحد يعرفها ويشتهيها غيري. لم أعد أستطيع المكوث حيث أنا، فتحت الباب بسرعة ونزلت إلى مدخل البناية.

-هل حان وقت عودة الأولاد من المدرسة؟ سألني الناطور. لقد أنقذ ارتباكي بسؤاله هذا، فارتحت وسألته بدوري، بعد أن أكدت توقعه بجواب سريع:

-لمن هذه السيارة ؟ إنها جديدة في البناية.

-إنها لأهل السيد ذكي المستأجر الجديد في الطابق الثاني. لقد أتوا منذ قليل وهم الآن عنده في البيت.

صمت وأخذت أتمشى في المدخل بإنتظار الاولاد: "ذكي، أعرفه وقد زرناه سابقاً و..."

أتى الاولاد وصعدنا السلم إلى البيت. وما أن وصلنا إلى الطابق الثاني حتى وجدت نفسي أطرق الباب. ورأيتها ! إنها هي حقاً! تمالكت أعصابي وانفعالي وتخلصت من الاولاد إذ طلبت منهم الصعود إلى البيت وبقيت تلك الليلة أفتعل كل ما بإستطاعتي لتدوم سهرتي معها إلى أطول وقت ممكن. والذي ساعدني في سلوكي هذا هو أن ذكي كان خارج البيت، ومكوثي في بيته، مع أهله، لم يزعجهم لأنهم كانوا ينتظرون عودته التي أتت متأخرة.

-4-

انصرف هاني ودخلت غرفتي. وقفت للحظة أمام المرآة أتفحص وجهي وجسدي لأكتشف الشيء الذي سبب نظرات هاني المعجبة إلي. لم أجد ما يسترعي الانتباه بشكل لافت، فارتديت ثياب النوم واستلقيت على السرير أستعيد ما حصل معنا في ذلك اليوم. سمعت طلقات رشاش بعيدة، تبعتها أصوات انفجارات، فخبأت رأسي تحت اللحاف وانطوى جسدي على بعضه تماماً كما انطوت اجسادنا على بعضها في السيارة، ونحن نعبر خط التماس تلافياً لرصاص القناصين.

هدأ الرصاص بعد قليل، فأخرجت رأسي من مخبئه ضاحكة من ذاتي على هذا السلوك العفوي البعيد عن المنطق، وعدت إلى هاني الذي أبدى إستعداده لمرافقتي حيث أشاء حين تساءلت عن عنوان محدد لشراء بعض الأغراض.

عاد الرصاص من جديد، لم أخف هذه المرة، الانفجارات والأصوات كانت بعيد، ثم إن أهل البيت لم يستيقظوا، كأن الأمر طبيعي بالنسبة إليهم. يوسف، فقط، نهض من فراشه مستفسراً، فطمأنه ذكي قائلاً: "هذا أمر عادي وستسمع مثله كل ليلة. عد إلى فراشك ولا تخف".

"ما بالي أفكر بهاني؟ صحيح أنه شاب وسيم وجذاب... ومعجب كما يبدو ... ولكنه متزوج ولديه أولاد... " نفضت هذه الافكار من رأسي وعدت إلى ذاتي وصوت الرصاص مستمر بتقطيع: "ماذا أفعل هنا وما معنى بقائي في هذا البلد؟ السفر! إلى أين؟ إلى فرنسا! شهادتي من باريس وأستطيع بواسطتها البحث عن عمل أقوم به هناك حتى تنتهي الحرب في لبنان؟

أعجبتني الفكرة وأخذت أرسم بعض خطوطها وصممت، قبل أن ألجأ إلى النوم أن أفاتح يوسف بالموضوع. سيقبل إقتراحي حتماً. هو أيضاً يود الهرب من هذه الاجواء القذره. وإن قبل فسيتاح له استكمال اختصاصه في باريس لأنه خريج الكلية اليسوعية هنا. وهكذا يتابع هو دروسه وأقوم أنا بأي عمل أحصل عليه بإنتظار عودة السلام...فنعود.

-5-

فتحت باب بيتي بهدوء كي لا أوقظ الاولاد، وتوجهت إلى غرفتي بعد أن تفقدتهم في اسرتهم. النوم لم يأتني. حاولته فتمنع. نهضت من فراشي، أشعلت سيجارة ووقفت على الشرفة أفكر بهذه الصدفة التي كنت أحلم بها منذ بدايات حياتي الجنسية. ماذا يعني تحققها الآن، بعد أن تزوجت وأنجبت؟ هل هي سخرية القدر؟ ولكن هل أعني لها أنا ما تعني هي لي؟ لم يظهر ذلك في سلوكها. كانت لا مبالية، وحتى عندما عرضت عليها خدماتي لمرافقتها بسيارتي، لم تعر قولي إهتماماً وأكتفت بالرد السريع المتعالي:" غداً سنرى" وتابعت : "إذا لم أجد من يرافقني... فلست مستعجلة". ماذا يعني قولها هذا؟ هل ترفضني؟ ولكني أعرف النساء جيداً" كلهن يبدأن بالرفض حتى يتأكدن من نوايا الطرف الآخر تجاههن. فهل هي أيضاً تحاول هذه اللعبة؟ ولكنها تبدو جدية، وكثيراً ما تغرق في ذاتها بشكل ظاهر، وكأنها تعاني مشكلة معينة. هل قصة الطلاق أثرت عليها؟ ولكن المرأة الطلقة تكون عادة "سهلة"، هذا ما علمتني إياه التجربة. فهل ستكون هبى سهلة؟ علي أن أحاول. لن أتركها تفلت من يدي. الصدفة السعيدة لا تتحقق مرتين. كما يقول المثل الفرنسي:" الصاعقة لا تسقط مرتين في موقع واحد".

استيقظ باكراً، ورتبت أمور الأولاد وأوصلتهم إلى المدرسة. في طريق العودة فكرة بهبى وبكيفية استمرار اللقاء بها. إذا لم أحاول من جديد، فهي، بالتأكيد لن تفكر بي. توقفت أمام فرن ودخلته طالباً مناقيش بالصعتر، قائلاً في نفسي سأتحجج بتقديمها لهم لأدق باب بيت ذكي وأراها من جديد، وإن دعوني للدخول، أحاول التردد، لن أدخل حتماً، ولكن أمهد، هكذا، الطريق لزيارة لاحقة في النهار.

نزلت من سيارتي وطلبت المصعد، فتحته ودخلت، هل أصعد إلى بيتي أم اكبس زر الطابق الثاني؟ كان الوقت حوالي الساعة التاسعة صباحاً؛ الوقت مناسباً إذا. على كل حال سأعطيهم المناقيش وأنصرف. توقف المصعد في الطابق الثاني، خرجت منه ووقفت أمام الباب، باب بيتهم، متردداً. أعدت فتح باب المصعد وهو قريب من باب بيت ذكي، تركت المصعد مفتوحاً، إذ أمسكت بابه بإحدى يدي لأظهر استعجالي، وطرقت بابهم بقوة.

فتحت أم هبى، فبادرتها:

-إنها مناقيش فخمة وما زالت ساخنة. أظن أنكم لم تتناولوا الفطور بعد. أرجوك تفضلي وخذيها.

ولكن والدة هبى كانت لائقة، بحسب توقعي، فشكرتني ودعتني لتناول القهوة معهم. ولكني ترددت وقلت لها:

-لدي بعض الأعمال... سأعود لاحقاً... ثم أني لا أريد إزعاجكم في مثل هذا الوقت، ربما لم يستيقظ الجميع بعد!

-لا! لا إزعاج إطلاقاً، فالحكيم استيقظ باكراً كعادته وهبى ويوسف أيضاً. إنهم في غرفة الجلوس، أدخل أرجوك.

لم أستطع الصمود أمام دعوتها، تهيأ لي أنها تلح علي بالدخول أو هكذا توهمت، فدخلت وسلمت على الجميع، وجلست لا أدري كيف أبرّر زيارتي الصباحية. دار بيننا حدث عادي حول الاخبار السياسية. ثم ساد الصمت، ولكنه لم يدم طويلاً إذ أتت السيدة أمل بالقهوة، التي ملأت فجوات الحديث الذي كان منذ بدايته متقطعاً ومرتبكاً.

نظرت إلى هبى وهي تشرب قهوتها وتدخن سيجارتها. كانت هادئة لا تتكلم. وجهها صاف وشعرها متدل على كتفيها، من دون تسريح. لاحظت أني أتأملها، فمسحت وجهها بكفيها وردت شعرها إلى الوراء وأظهرت بعض الارتباك، فما كان مني إلا أن قلت متوجها إلى والدتها:

-لا يعرف جمال المرأة الحقيقي إلا صباحاً، حين تستيقظ من النوم. وابنتك، السيدة هبى، هي حقاً، جميلة.

-هذا لطف منك. أجابت الأم.

لم يكن لطفاً. كنت أقول ما أرى وما أشعر به بكل صدق. أما هبى فتصرفت كأنها لم تسمع شيئاً. أستأذنت وخرجت من الغرفة. انتظرت عودتها ولكنها لم تعد. طال مكوثي عندهم وتضايقت من نفسي ونهضت مودعاً. وعند الباب الخارجي استدرت نحو والدة هبى وسألتها:

-هل مازالت ا لسيدة هبى تريد الذهاب الى السوق؟

-لا أدري. أجابتني.

كنت أود الانفراد بهبى ولو للحظة، لأتعرف عليها عن قرب، ووجدت هذه الفرصة مناسبة جداص لهذا الغرض. فقلت:

-أرجوك اسأليها كي أعرف أي وقت تختار.

توارت الأم عن نظري لثوان وحين عادت قالت لي:
-ستتصل بك إذا قررت الذهاب. شكراً لك على كل حال.

-6-

خرجت من الغرفة ينتابني شعوران متناقضان: فرحت لملاحظة هاني، وفي الوقت نفسه، اغتظت كعادتي حين أسمع مثل هذا الكلام. إنه إطراء كثيراً ما سمعته في حياتي، وكان دائماً ينتابني الشعور المتناقض نفسه. أنا لست ضد أن أكون جميلة ولكن أن تستغرق هذه العبارة كل كياني فهذا ما يؤلمني. لا أرفض نعمة الجمال ولكي لست جميلة فقط. والآخرون، وخاصة من يلتقونني للمرة الاولى، لا يرون مني إلا مظهري، فأشعر بالتشييء وبالاستلاب، وهذا أمر يربكني ولا أعود أدري كيف التخلص منه.

-هبى متى تريدين الذهاب لشراء أغراضك؟ سألت أمي وهي تدخل باب الغرفة، قاطعة علي حبل أفكاري، هاني يريد الانصراف ويسأل متى تكونين جاهزة.

ترددت قليلاً ثم قررت التريث فأجبتها:

-سأتصل به حين أقرر ذلك.

خرجت والدتي وقررت ألا اتصل به. سأتركه يفعل إذا كان مصمماً حقاً على مرافقتي. وإذا اتصل فسأوافق وأخرج معه كي أثبت له أني لست إمرأة جميلة فقط، لست دمية، واني إمرأة أكبر من مظهرها الخارجي وأن لدي أشياء كثيرة غير هذه الصورة البرانية وأن داخلي أغنى بكثير من هذه اللوحة المشرعة للنظر. حينها سيدرك، كما أدرك غيره، ان المرأة المطلقة ليست لقمة سائغة.

-7-

عدت إلى بيتي أنتظر خبراً منها. لم أستطع القيام بأي عمل. جلست أقرأ الجريدة واترقب صوت كل حركة في الخارج. سمعت لعدة مرات، خطوات تقترب من باب بيتي، ثم تتلاشى على السلم صعوداً أو هبوطاً. مرت فترة قبل الظهر وأنا على هذه الحالة. "لم تقرر بعد" قلت في نفسي، ولكني سأنتظر، وإن لم يأتين خبر منها، سأحاول من جديد قبل ان تقفل السوق وأضيع فرصة اليوم. هل إنها حقاً، غير مكترثة بي أم أنها تفتعل تجاهلي كي ترى اندفاعي وردة فعلي على

سلوكها؟ مهما كان تفكيرها لن أتركها، ولدي كل الوقت للمحاولة ولمحاولات لاحقة إذا فشلت هذه المرة. ولكنها لن تذهب الى السوق فترة الظهر، هذا أكيد.

استلقيت على الكنبة في الصالون لأرتاح بإنتظار الوقت المناسب للتحرك. حاولت النوم ولكن صورتها ظلت أمامي. إنها تشبه جداً إمرأة الشاشة. وتختلف عنها في الوقت نفسه. امرأة الشاشة مثيرة، هذا ما يميزها، أما هي. وعلى الرغم من هذه الناحية فيها، فهي تبدي الجدية وعدم اكتراثها بأحد. ولكن هذه النقطة بالذات، تزيدني توقاً للتقرب منها وهذا ما يجعلها، في نظري، أكثر إثارة. هل تفتعل هذه الجدية أم أنها حقاً، هكذا؟ لدي كل الوقت للتحقق من ظنوني. على كل حال سأكرر المحاولة حتى أنجح أو أفشل فانكفئ، وأبحث عن رزقتي فع سواها. فما زال البلد بألف خير على هذا الصعيد ومن جدّ وجد.

قلت ذلك لنفسي وحاولت النوم عبثاً. كانت تسكن أفكاري وتشغل جسدي. نهضت وتناولت طعامي وأخذت أدخن واتمشى حتى الساعة الرابعة من بعد الظهر. لم أعد أطيق سكوتها، ارتديت ثيابي ونزلت السلم بسرعة.

-8-

حوالي الساعة الرابعة من بعد الظهر، طرق الباب. ففتحته كان هاني هو الطارق.

-اعتذر على الازعاج، كنت متوجهاً الى السوق وتذكرت انك تريدين شراء بعض الاغراض... وتابع بعد صمت قصير: هل تريدين الذهاب الآن أم ...؟

كان مرتبكاً لا يدري كيف يتصرف. فقررت بسرعة حسم الموضوع وأحبته: "انتظرني قليلاً، سأرافقك إلى السوق".

-إذا سأنتظرك في السيارة في مدخل البناية. قال ذلك وانصرف.

ارتديت ثيابي وتبعته. فما كان منه إلا أن ترجل من السيارة وفتح لي الباب وادخلني بكل لياقة ثم عاد إلى مكانه وكل حركاته تدل على الاضطراب.

-الآن إلى أين؟ سأل.

-إلى حيث أجد... وعددت ما أريد شراءه.

فتوجه إلى ناحية في بيروت وتوقف أمام محل وجدت فيه ما كنت أبحث عنه. وحين أنتهينا، عدنا إلى السيارة، فقلت له لعد أن شكرته على مرافقتي.

-هل نعود الآن؟

صمت للحظة وبدا التوتر على وجه ثم قال:

-أتسمحين لي بأن أدعوك إلى تناول القهوة في احد المقاهي؟ كنت أتوقع اقتراحه ودعوته. فكرت قليلاً أو تظاهرت بذلك واجبته.

-لا بأس! فما زال الوقت باكراً.

جلسنا وجهاً لوجه وطلب القهوة. كنا وحدنا على رصيف ذلك المقهى في منطقة الروشة.

نظر هاني ملياً إلي، وافتتح الكلام بيننا بقوله:

-هل زوجك غبي إلى هذه الدرجة ليقبل بالطلاق؟ وهل يُفرّط بسيدة جميلة مثلك؟

"بدأ الغزل" قلت في نفسي، " ولم لا! سأتركه يقول ما يشاء" وأمام صمتي تابع:

-لو كنت مكانه لما قبلت بالطلاق منك، ولو كلفني الأمر حياتي!

أمام اندفاعه هذا، ما عدت أستطيع الصمت. شعرت بالمبالغة فضحكت وقلت له:

-الامور ليست بقشورها، فهو أيضاً شاب وسيم، ولو اقتصر الامر على ذلك فقط، ولو كنت احكم على الاشياء كما تحكم عليها أنت الآن، لما كنت طلبت الطلاق أبداً، ولكن...

-معك حق! فأنا أيضاً لي زوجة يقولون أنها جميلة...

وغرق في سرد طويل عن وضعه وحياته وعلاقاته، سرد لم يوقف انسيابه الا صوت طلقات نار بعيدة.

-نعود الآن. قلت.

ضحك هاني وأجابني مطمئناً:

-لا تخافي! سأحميك بروحي!

وعدنا بسرعة إلى البيت.

-إلى الغد. قالها لعدة مرّات وهو يصعد إلى بيته بعد أن رافقني إلى باب بيت أخي.

-9-

كان الاولاد في البيت حين عدت. توقفوا عن الدرس وأتوا إليّ يستوضحون أين كنت ولماذا لم انتظرهم كالعادة. قبلتهم بشوق كأنني استغرفهم؛ قلت لهبى ونحن في المقهى: "حظك جيد" حين أجابتني بأن ليس عندها أولاد. هل كنت أعني حقاً ما أقول؟ وهل كانت هي صادقة حين أجابتني :" إذا كان جو البيت غير مرتاح، فمن الافضل للأولاد بالذات أن يتم الانفصال". فما ذنبهم؟ وهل يجوز أن يحرموا من أحد الوالدين ويعيشوا مع واحد فقط؟ وهل هذه هي الطريق الأسلم كما ادعت هبى؟ إنها استسهلت الطلاق ونفذته لأنها لا تعرف ماذا يعني ذلك حين يوجد الاولاد!

-اتصلت بنا الماما وسألتنا عنك وستتصل بنا مساء. قالوا

-سأكون هنا، اجبتهم. والآن عودوا إلى دروسكم.

جلست وحدي في الصالون أستعيد تفاصيل لقائي بهبى. إنها مستمعة جيده. لا تتكلم كثيراً. كانت تنظر إلى وكأنها لا تراني. لماذا هذا الشرود في عينيها؟ هل لتفهمني أنها لا تكترث بي؟ ولكنها كانت تتابعني، لاحظت ذلك على تغيرات وجهها. كنت أود ملامسة يدها، وهذا ما كنت فعلته مع سواها. لماذا لم أفعل؟ ألجو لم يسمح بذلك، ولكنني سأثابر وستكون بين ذراعي كما اشتهي. لو كانت الآن معي لضممتها وقبلت ثغرها بعنف.

كنت اعانقها حين رن جرس الهاتف، وسمعت صوت زوجتي الذي أعادني الى الواقع ورتابة موضوعاته وتفاصيله.

-10-

لماذا أخبرني عن كل حياته؟ إنه لا يعرفني! هل هو كاذب، اخترع قصة ملفقة ليبرر اهتمامه بي وعدم تعلقه بزوجته؟ هل صحيح أن عيني سحرتاه ففاض منه القول من دون عناء؟ وما همني أنا، إن كان تعرف صدفة على زوجته؟ ماذا يغير من وضعه، بالنسبة إلي، أن تكون زوجته "بلفته" بإيهامها إياه أنها حامل قبل زواجهما؟ قال لي: "إنها غلطة يحمل الانسان وزرها كل حياته، يحمله لأنه ذو ضمير وخلوق، وحين يستفيق يجد نفسه وكأن الزمن قد سبقه، فيحمل ذلك بصمت إنقاذا لمن لا ذنب لهم. هل يحمل، حقاً، كما يدعي أو أنه يمثل دور الضحية لاستدرار عطفي عليه؟ وماذا يفيده عطفي وماذا سيغير من وضعه؟ ولكنه لا يستحق العطف، لأنه يعيش على هواه. ويخون زوجته في كل لحظة تتوافر فيها ظروف الخيانة، بل أكثر، إنه يبحث عن بنات الهوى ويمارس الجنس بنهم مع المومسات. ويبرر ذلك بأنه :" حين يدفع مالاً مقابل الجنس يتحرر من المسؤولية". وأية مسؤولية هذه التي يتكلم عنها؟ وهل يتزوج المرء لمجرد غلطة إرتكبها؟" الاخلاق والضمير "قال لي. إين اخلاقه الآن وأين ضميره؟ هل توقف فعلهما لمجرد أنه تزوج من أخطأ معها؟

ولكنه إنسان جذاب حديثه ليس مشوقاً بشكل خاص، إذا ماذا؟ إنه يوحي بالرجولة، بالذكورة غير المفتعلة. جسده، بنيته، نظراته، كلها تدل على شبق دفين، على شهوة ملجومة تريد الانفلات والانفجار! لماذا أشعر بانقباض في صدري حين أتذكر ملامحه، انقباض هو شبيه بما نشعر به حين نكون داخل سيارة مسرعة على طريق فيها مطبات قصيرة وغير قاسية. نشعر وكأن شيئاً في داخل الصدر يهبط . شعور لذيذ، كنا نبحث عنه ونحن أطفال. هل أعادني إلى الطفولة؟ لا! ولكنه يحرك جسدي. إنه لا يعيدني إلى الطفولة بل يعيدني إلى بداية المراهقة، إلى

الشعور الاول بالجسد حين رأيت ذلك الشاب على مدخل بيتنا [1] منذ سنين طويلة. كان جسدي في ذلك الزمان يتفتح، كان في بدايات نضجه، في مرحلة التحول من جسد طفلة إلى جسد إمرأة. كنت أشعر به وبكل تغيراته. أما الآن وقد تركز جسدي بشكل كامل، وقد مضى على عدم شعوري به سنوات عديدة فماذا أيقظه؟ وما هذه الرعشة الممتعة التي تحركه كلما التقيت بهاني أو تذكرته؟ هل هو أيضاً يشعر مثلي؟ ولكنه يبحث عن مغامرة سريعة، مغامرة بلا غد وأنا لست لهذا النوع من العلاقات، أنا لا أبحث عن مغامرة لا عن علاقة جدية في الوقت الحاضر. ما عدت أؤمن بالجدية على هذا الصعيد. هل هذا يعني أني أميل نحو الرغبة بالمغامرة السريعة غير المبنية على تواصل حقيقي؟

لو أخذ يدي بين يديه! لو قبلني! أبدي رغبة في ذلك! سأتمنع حتماً، لو فعل. وغفوت تلك الليلة على قرار التمنع لو فعل وكلي رغبة أن يفعل.

-11-

عيناك يا هبى، وعلى الرغم من صفائهما، تقولان الكثير، وصمتك أسمعه من خلال نظراتك. هل هذا يعني الحب؟ سألتها في لقاء آخر بيننا.

ابتسمت هبى ولم تجب بشيء اطلاقاً، غرقت في ذاتها للحظة تفكر، ثم قالت كمن يحدث نفسه:

-لا الزواج خلاص ولا الحب الخلاص، فلتجر الأمور كما تريد!

ماذا يعني قولها هذا؟ لا تؤمن بالزواج ولا تؤمن بالحب. وأنا أيضاً لا أؤمن بالزواج، أما الحب، فلم أشعر به بشكل جدي حتى الآن. هل بدأت أحبها؟ لا أدري! ولكني سأتابع المشوار. وكما قالت، فتلجر الامور كما تريد. ولكني ألاحظ أنها بدأت تميل إليّ. انها ترتبك حين تراني، ثم أنها بدأت أيضاً تتأنق بشكل لافت وتتعطر بإستمرار بذلك العطر الذي استرعى انتباهي مرة وسألتها عنه قائلاً إنه يناسبها جداً. ثم هذه التنانير القصيرة التي ترتديها الآن اليست جواباً عن الإعجاب الذي أبديته، مرة، بركبتها حين أجابتني: "إنك دقيق الملاحظة أو أن هواماتك غريبة"! إني أعشق جسدها وهي الآن أصبحت تعلم ذلك أنا متأكد. ولكن كيف الوصول إلى هذا الجسد. متى سأضمه بين ذراعي؟ متى سأقبل ثغرها؟ ماذا يحدث في داخلي ولماذا كل هذه الحسابات؟ لا أذكر أني عشت مثل هذه اللحظات في حياتي! ربما لأنني كنت دائماً مع بنات أو سيدات يردن مني أكثر مما أريد منهن. هل هذا يعني أنهها لاتريدني؟ لا أظن! ولكن لماذا هذا التمنع ولماذا هذه البرودة التي هي في أغلب الظن مصطنعة؟ ولماذا هذا التهرب كلما سنحت الفرصة؟ ولكن سأستمر في الملاحقة، سأتردد باستمرار على بيت ذكي وسأحاول تقديم كل

[1]- ورد ذكره في السيرة الأولى.

الخدمات والمساعدات لأهل البيت، سأصاحب يوسف وأدعوه إلى بيتي. سأضع سيارتي بتصرف هبى ويوسف، كي لا يبدو الأمر لافتاً. وهذه التصرفات من قبلي لن تكون نافرة، ففي أيام الحرب يقترب الجيران من بعضهم بعضاً أكثر وتصبح حياتهم نوعاص من المشاركة التي غالباً ما تكون مفقودة في حالة السلم، حيث تنطوي كل عائلة على ذاتها وتنغلق على أحوالها الخاصة ولا يعود يرشح منها إلا القليل، ومثل هذه الحياة لا يعرف منها حقيقة ما في الداخل. ولكنهم، حتماً، سيتساءلون عن اهتمامي المفاجئ بهم. سأحاول تحييد هبى عن الموضوع، وسأحصر علاقتي ظاهرياً بالدكتور يوسف، وهكذا أظل بالقرب من هبى حتى استميلها و...

طلقات رشاش قريبة قطعت حبل أفكاري. استفاق الاولاد وأتوا إلى غرفتي. نهضت من سريري وخرجت من أحلامي وتذكرت أن هذا النهار هو موعد انتخاب رئيس الجمهورية. ولكن لماذا اطلاق النار؟ خرجت إلى الشرفة واستفسرت الأمر من الجيران فتبين لي أن الرئيس المرشح موجود في فندق قرب بيتنا وبأن خصومه، هو الذي يطلقون النار باتجاه الفندق.

جهزت الأولاد بسرعة ونزلنا السلم بحثاً عن مكان آمن نختبئ فيه. كان باب بيت ذكي مفتوحاً، فدخلنا من دون استئذان. كانت هبى ما زالت بثياب النوم ويوسف كان يرتدي ثيابه استعدادا للهرب إلى أي مكان. دخلت هبى إلى غرفتها، ارتدت ثيابها وخرجت مرعوبة لأن الصواريخ أخذت تنهمر في كل الاتجاهات.

تجمع أهل البناية في الطوابق السفلى وفي الغرف الداخلية تحسباً لاحتمالات يمكنها أن تودي بحياتهم. أما يوسف وهبى فكان خوفهما كبيراً، وكنت أرافقهما حيثما توجها مبدياً القوة واللامبالاة بما يحدث، لأطمئنهما وأطمئن ولديّ اللذين كانا يلازمانني.

في إحدى مراحل تلك المعركة، جلست هبى وحدها على سلم الطابق الاول. جلست بالقرب منها. وحين إشتد القصف، رأيت نفسي أضع ذراعي على كتفيها قائلاً:" لا تخافي فنحن هنا بأمان". شعرت بدفء جسدها وكأنه تيار يجذبني إليها. وفي كل مرة كان يعود القصف كنت أضمها بقوة أكبر وهي لا تمانع وكأنها تحس بنوع من حنان هي بحاجة إليه. كان جسدها كشتلة عطشى ترويها لمساتي بجرعات خفيفة.

بعد فترة انتبهت هبى إلى ذاتها، فاحمرت وجنتاها وحاولت الابتعاد عني. لم أقل شيئاً، تركتها تتصرف كما تشاء واكتفيت بالبقاء جالساً معها. وحين عاد القصف من جديد، لم اتحرك ولم اضمها إلي، بل أخذت أراقبها فقط: كانت قد وضعت كفيها على أذنيها وأسندت ظهرها على الحائط بتوتر شديد.

استمر القصف وهبى تقطب جبينها وتشد على أذنيها وترطم الأرض برجليها... ما عدت أستطيع الانتظار اكثر، اقتربت منها وضممتها بين ذراعي واستمررنا هكذا حتى انتهى القصف، وكنت أود ألا ينتهي. شعرت بكل جسدها، ولامس وجهي وجهها. كان صدرها يخفق بسرعة. هل هو الخوف؟ هل هي رعشة الملامسة؟ أمسكت رأسها بيدي واقتنصت من ثغرها قبلة سريعة أشعلت كل جسدي رغم برودة شفتيها. وابتعدت عنها وعدت إلى مكاني. أما هي فبقيت صامته، حوّلت نظرها إلى الأرض بهدوء ولم تعد تنظر إلي.

-اعتذر إن كنت أزعجتك... ولكني أشعر بأنك ستغيرين كل حياتي.

لم تجب، فقط نظرت إلى مرتبكة، لا تدري ماذا تقول في تلك اللحظات، ولم أستطع معرفة شعورها الحقيقي، إذ أتى ولداي فجأة وهما يسألان:

-أين أنت؟ نحن خائفان، هل سيستمر القصف؟

كنت أود أن يستمر، ولكنه توقف وعادت الامور إلى مجراها الطبيعي، وخرج كل واحد من مخبئه وعاد إلى بيته.

أمام بيت ذكي قلت لهبى إني سأعود بعد أن ينام الأولاد. لم تجب. وقبل أن تدخل بيت أخيها، غيّرت رأيي وقلت لها: "اليس من الافضل أن تصعدي مع يوسف إلى بيتي؟ لا أستطيع أن أترك الأولاد وحدهم في مثل هذه الليلة.

أجابت من دون أن تنظر إلي: "سنرى"

وأغلقت الباب.

-12-

دخلت بيت أخي مصممة على عدم تلبية دعوة هاني، مفضلة العودة إلى ذاتي وترتيب أفكاري ومشاعري. أمضيت وقتاً قصيراً مع أفراد العائلة ثم توجهت إلى سريري متحججة بالتعب.

لم أكن وحدي في السرير. كان ظل هاني يرافقني. كانت ذراعاه تطوقاني. وضعت رأسي على كتفه واسترحت. فما كان منه إلا أن أمسك رأسي بيديه وقبلني قبلة مجنونة حركت كل جسدي. كنا لا نزال على سلم البناية حين بدأ يداعب شعري بإحدى يديه تاركاً اليد الثانية تتوجه نحو العنق والصدر. "لا! قلت له، ليس هنا". توقف، وفجأة وجدت نفسي في السرير. حاولت أن أسخر من ذاتي، لم أستطع. هل عدت إلى المراهقة؟ ربما! لم أشعر بما أنا فيه حالياً إلا في بداية المراهقة حين كنا نلتقي مع الشباب في السهرات، وتكون التعاليم الاخلاقية رادعاص لكل تصرفاتنا وعفويتنا فنكتفي بالنظر إلى بعضنا من بعيد، تاركين للخلوة الليلية مع الذات أن تحقق، وهماً وخيالاً، كل ما كنا نود تحقيقه في الواقع. أذكر أني عانقت وقبّلت وأحياناً ضاجعت أكثر من شاب لم يلمس حتى يدي في

الواقع. ولكني الآن امرأة ناضجة، تزوجتُ وعشتُ الجسد مع الزوج ومع العشيق بعد الزواج والطلاق، فما بي أعود إلى الوراء؟ ما هذا النكوص العاطفي والانفعالي؟ ما هذه الصدفة التي ألغت أكثر من عشر سنوات من عمري لتعدني إلى امرأة لم تعرف الرجل بعد، إلى جسد لم يلامس جسداً آخر؟

توقفت عند هذه النقطة، ابحث عن الاسباب والدوافع. أسكتُ جسدي وتركت لعقلي وحده أن يتحرك. تبين لي، ولا أدري إن كنت على حق في تحليلي، إن الصدفة هي دائماً التقاء خطّين يأتي كل منهما من اتجاه مختلف. كنت أنطلق من علاقة أفشلها الجسد، وهاني ينطلق من علاقة قامت على الجسد. علاقتي توقفت وأنا الآن في مرحلة الخروج منها كتجربة بائسة. علاقة هاني مع زوجته مستمرة، ولكن كلامه عنها يظهرها، وكأنها فاشلة. تأملت في الفشلين فرأيت أنهما مختلفان تماماً: علاقتي السابقة كانت تشكل نوعاً من الحلم لم يتحقق، وعلاقة هاني تشكل نوعاً من التواطؤ والوهم وهو في محاولته الخروج من حالته يتجه نحو الحلم. أنا في خط هابط. وهو في خط صاعد. هكذا التقى الثغران في القبلة التي ربما كانت بداية لقاء الجسد. هل هذا يعني أننا سنلتقي على هذا الصعيد، ربما ! ومن قال، أو يستطيع القول، إنه صعيد لا يؤدي الى نتيجة مرضية؟

كنت أدور مع أفكاري حين دخل يوسف الغرفة وهو ما زال تحت وطأة الخوف. جلس على حافة سريري حين تأكد أني واعية، وسألني:

-ماذا نفعل هنا يا هبى؟

وأمام صمتي أضاف:

-إني إفكر بالسفر، هل تذهبين معي إلى باريس؟ أتابع أنا اختصاصي وأنت تبحثين عن عمل، فنرتاح من هذا الجو المرعب الذي لا يدور لنا فيه سوى الانتظار والتنقل من ملجأ إلى ملجأ ومن حالة رعب إلى حالة يأس!

كان قلقاً ويود الهروب من هذه الاجواء التي لم يكن يعرف منها إلا وجهها السلبي لأنه لا يهتم بالسياسة.كان همه الوحيد أن يكمل اختصاصه. لم يرد، يوماً، الدخول في البحث في أسباب الحرب وتطوراتها، كانت، بالنسبة له، أمراً مجانياً عبثياً لا يستطيع فهمه ولا يريد فهمه.

-كم أفهمه الآن.كم أحسده على قراره!

كنت في لحظتها غير قادرة على التفكير بشكل جدي. كان جسدي ما زال متيقظاً وكان هاني أداة التيقظ!

-سنبحث الأمر غداً. أجبته. فتركني وانصرف.

-13-

رتّبت أمور الأولاد ودخلوا غرفتهم. أصبحت وحدي. توجهت إلى المطبخ وأحضرت بعض الطعام السريع، نقلته إلى الصالون وصففته على الطاولة، ثم أتيت بزجاجة وسكي وثلاث كؤوس، وجلست أنتظر قدومها. كان جسدي مضطرباً، لم استطع الجلوس طويلاً. وقفت وأخذت أعبر المكان من طرف إلى طرف، وكلما وصلت إلى باب الشرفة خرجت قليلاً لأعود بسرعة إلى قرب باب المدخل. كنت أتوقع طرقه في كل لحظة. لو أتت وحدها! لاشبعت نهمي من ثغرها وكل جسدها.

مضى الوقت، لم يأت احد. ولكنها كانت معي. استلقيت على الكنبة، كانت تتمدد فوقي، تدلّي شعرها، فما كان مني إلا أن رفعته من حول وجهها، فأدنت شفتيها من شفتي، وغرقنا في قبلة مجنونة. استيقظ جسدي كله، فعريتها وتعريت. أنها تماما كالمرأة التي رأيتها في الفيديو: جسدها إياه! وخبرتها إياها! وسلوكها إياه! كنت لا أصدق عيني، كنت في قمة النشوة حين رن جرس الهاتف وردني إلى الواقع. هل هي تتصل لتعتذر عن المجيء لأن الوقت تأخر؟ سأدعوها مجدداً وألح عليها كي تأتي و... رفعت السماعة:

-ألو

-ألو هاني هل انتم بخير؟

كان صوت زوجتي على الطرف الثاني من الخط. سمعت بالاخبار أن معركة دارت قرب فندق... في بيروت وهي الآن تتصل لتطمئن على الاولاد وعلي.

-كلنا بخير ولا داعي للقلق. أجبتها.

لعن الله النساء! لماذا لم تأت، ولماذا هذه الكبرياء! ولكنها لم تمانع حين قبلتها، وهذا دليل خير.

-14-

كنت معه في السيارة، وكانت يده تداعب ركبتي، حين قلب له، لاتخلص من غليان جسدي الذي كاد يفضحني:

-اننا نفكر بالسفر.

-من؟

-أنا ويوسف؟

-إلى أين ولماذا؟ سألني وقد أخذته الدهشة التي تحولت إلى برودة في كفه، الذي تجمد وضغط حيث كان منذ ثوان يدور ببطء في حركة ناعمة حول الركبة، حركة ولمسات تبعث الرعشه في كل أنحاء جسدي.

-إلى باريس. أما لماذا؟ فهذا سؤال من السهل ومن الصعب، في آن، الجواب عنه. ولكني أعتقد بأن السفر أصبح ضرورة، خاصة بالنسبة إلى يوسف... وأيضاً بالنسبة إلي.

صمت هاني، سحب يده عن ركبتي، وغاص في ذاته يفكر، ثم هز رأسه، وكأنه وجد الحل وسألني:

-متى قررتم السفر؟

-في أقرب وقت، الوقت اللازم طبعاً.

فقال كمن يحدث نفسه:

-بعد اسبوع ستقفل المدارس. ثم صمت قليلاً، بعدها توجه إلي وعيناه تقولان أكثر من لسانه:

-هبى انتظريني أسبوعاً واحداً، واحد فقط، سأسفر الاولاد إلى حيث أمهم وأرحل معكما. أنا أيضاً بدأت أشعر بضرورة السفر. ثم أستفاض في تحليل هذه الضرورة وكأنه يقنع نفسه بها فتدخلت وقلت له:

-أسبوع واحد ليس مهما و...

وقبل أن أنهي كلامي سارع إلى القول:

-واحد فقط! أعدك، وسأحضر لسفرة ممتعة. ما رأيك لو سافرنا برا بالسيارة؟

-سنبحث الامر مع يوسف.

-15-

كيف سأدبر وضعي وقد اقترب موعد عودة زوجتي من سفرها؟ هل ستقبل بأن ارسل لها الاولاد وأسافر وحدي إلى باريس؟ وإذا لم تقبل فماذا أفعل؟ هل أترك هبى ترحل وحدها؟ هل أترك حلمي يتبخر هكذا؟ وإن رحلت هل سألتقيها في ما بعد؟ ما بي أشعر بالاحباط واليأس لمجرد فكرة فقدانها؟ هل أحبها؟ وما هو الحب؟ هل هو حرمان الجسد؟ هل كانت ستملأ حياتي كما تملأها الآن لو تمكنت من النوم معها؟ لماذا اداريها. واكتفي بالبقاء بقربها وببعض اللمسات الخجولة لبعض نواحي جسدها؟ لم يحدث معي ذلك، ولا مرة واحدة في حياتي. كنت أصل، وبسرعة، إلى غايتي التي كانت دائماً، إشباع شهوة عابرة تنتهي مع إغتسالي بعد المضاجعة. هل أنا تغيّرت أم إنها إمرأة تختلف عن النساء اللواتي عرفت؟ كم تشبه الصورة التي تتراءى أمامي كلما كنت غارقاً في ممارسة الجنس مع إحداهن أو

حتى مع زوجتي، التي حين أنام معها تغيب عن نظري وأصبح وحدي أضاجع خيالاتي وتصوراتي و...

فهمت الآن لماذا أداريها، لماذا أبعد قدر الممكن لحظة أمتلاكها: إنها بمثابة الرمز الذي أخاف عليه من الانتهاك. سأمتلكه وحدي. لن أترك لسواي هذا الحظ. لا أستطيع، ولو للحظة أن أتخيلها مع غيري. ما هذه الغيرة التي بدأت أشعر بها تجاهها، والتي لم أشعر بمثلها من قبل؟ كنت دائماً مستعداً لتقديم صديقة لي إلى أي صديق يبدي رغبته فيها، فماذا دهاني؟ لا أستطيع قبول فكرة ابتعادها عني، فكرة سفرها التي فاجأتني بها. لن تسافر وحدها. سأتصل بزوجتي وأقنعها بضرورة بقائها حيث هي وبضرورة ترحيل الاولاد عن هذا الجو في بيروت.

لم انتظر، أخذت سماعة الهاتف وطلبتها. ثم جلست أنتظر المخابرة وأحضر في ذهني ما يجب قوله لها والوسيلة الاجدى لاقناعها. سأبدأ بملاطفتها وإظهار شوقي إليها، ثم أنتقل إلى وصف الحالة المزرية في بيروت، حيث لا ماء ولا كهرباء ولا أمن ولا إمكانية للعيش بشكل مقبول. سأضخم الأمر وأنتقل بعد ذلك إلى سؤالها حول إمكانية تخليص الأولاد من هذا الواقع الصعب وسأبحث معها بهدوء، إمكانية لقائنا اللاحق في فرنسا حيث أكون قد أمّنت مسكنا لنا، ومدرسة للأولاد، طبعاً بعد أن أكون قد أمنت عملاً لنفسي وهذا ما يستدعي سفري قبلهم لتحضير كل ذلك...

-إذاً ستتصل بنا من فرنسا وتعلمنا بما يجد معك ومتى نلتحق بك. هكذا أجابتني زوجتي.

-طبعاً! فأول ما أنتهي من الموضوع سأتصل بكم. وإذا لم أنجح في محاولتي سألتحق بكم فوراً لأنني لا أستطيع العيش طويلاً بعيداً عنك وعن الأولاد، تعلمين ذلك. والآن أقبلك وأوصيك بنفسك وبالاولاد وإلى اللقاء القريب.

وهكذا حسمت موضوع السفر وأمنت الرحلة التي أنتظر منها الكثير، من دون أن أزعج أحداً ممن هم قربي. ونزلت بسرعة أخبر هبى بأنني جاهز لكل المهمات.

-16-

قضية السفر كانت محور حديثنا حين أتى هاني. كان فرحاً ومتحمساً. تدخل مباشرة في الحديث، وكأنه معني مثلنا بالموضوع، ثم راح يخطط للسفر برا ويصف بدقة الاماكن التي يمكننا زيارتها والتمتع بها قبل وصولنا إلى باريس. فما

كان من يوسف إلا أن وافق على الفكرة، وحددنا الموعد وباشرنا بتحضير لائحة الاغراض والاوراق التي سنحتاج إليها في رحلتنا. وحين اكتملت اللائحة قال هاني:

-هبى ما رأيك بدأنا الآن بشراء ما يلزمنا، لماذا التأجيل؟

حدست أنه يريد الانفراد بي، في عينيه كلام كثير.

-هيا، أجبته وتوجهنا نحو السيارة .

كان الوقت عصراً ، والوضع الأمني غير مرتاح تماماً، فأقترح هاني أن نؤجل موضوع شراء الاغراض الى الغد ونذهب الآن لتناول القهوة في ذلك المقهى الذي شهد أول كلام بيننا.

كنت أعلم ذلك، فما رفضت. دخلنا المقهى وجلسنا كما في المرة الأولى وعلى الطاولة نفسها في المكان نفسه قبالة البحر.

أخذ هاني يدي بين يديه وقال:

-هبى أحبك: لا أدري ماذا فعلت بي، كأني أولد من جديد، وهذه هي المرة الأولى في حياتي، التي أحس بهذا الشعور الغريب... هل هذا هو الحب؟

إبتسمتُ وفرحت بكلامه هذا، ولكني لم أجب. فتابع:

-هل سبق لك وجربت الحب؟

-مرات عديدة! سحبت يدي من بين يديه وأخذت أنظر إلى البحر وغرقت في ذاتي. نعم لقد جربت الحب وما عدت أؤمن به. وهنا أستعدت كل علاقتي السابقة بعمر [2]، تلك العلاقة التي انتهت بيننا بسبب الجسد، أو بالاحرى، بسبب خيانة عمر لجسدي. الجسد كان أقوى من الحب إذ أنه حطم علاقة، كنت أعتقد أنها حقيقة ومتينة، وبالتالي من الصعب قهرها وتدميرها. والنتيجة؟ انتصار علاقة قائمة على الجسد، أو هكذا بدأت، ولكنها استمرت. فما سرّ الجسد هذا؟ وأين مصدر قوته؟ سأحاوله لأتعرف على آلية تحركه وانفعالاته وعلى مدى صموده أيضاً.

أما هاني فلم يتركني لنفسي وتابع كلامه عن حاله:

-هبى لا أدري بماذا أشعر حقاً، ولكن شيئاً في داخلي يستفيق، شيئاً يجعلني أشعر كأنني أقوى من الكون كله. عنياك يا هبى جمّلتا الحياة التي كنت أراها بشعة وسخيفة.

---

[2]- ورد ذكره في السيرة الاولى

لم أجب، فقط نظرت إليه وأخذت أتأمل هذا الرجل الذي شعرت كأنه يجرني إلى مغامرة ما. فقال مقاطعاً صمتي:

-هبى، لا تنظري إلي هكذا. لست مراوغاً ولا أحاول إغواءك. صديقني أنت أول إمرأة أقول لها: "إني أحبك". عرفت نساءً كثيرات ومارست الجنس معهن، وتنقلت من واحدة إلى واحدة من دون أن أشعر بأي رابط تجاه إحداهن. لم تعن لي المرأة حتى الآن إلا الجنس فقط.

-أكمل كما بدأت، أجبته، فلا داعي للتعلق بالحب، الحب دائماً مؤلم لأنه دائماً ينتهي.

-لا أريد النصائح يا هبى. عشت هكذا لأنني كنت هكذا، ولست نادماً على ما فعلت، ولكني الآن أشعر بالسخف، بسخف ما عشته حتى الآن. كل ما عشته كان محاولة هروب من ذاتي. صمت قليلاً ثم تابع: لم أشعر حتى الآن إلا بجسدي ولم أكن أمارس إلا جسدي مع النساء اللواتي عرفت. لم أشعر مرة أن إحداهن تعني لي شيئاً سوى هذه اللذة العابرة التي كنت ابحث عن تكرارها كلما توافرت الفرصة. وكنت دائماً أبحث عنها بين المومسات وفي بيوت البغاء. صدقيني! أنا لا أرى فيك إمرأة فقط، إنك إمرأة ولكن إمرأة خضخضت كل كياني.

-هاني لا تضخم الأمور، إنك لا تعرفني جيداً ولا أعرفك جيداً وما أشعر به تجاهك هو تماماص ما كنت تشعر به أنت تجاه المرأة. إنك وبكل صراحة، تحرك جسدي، ولا أمانع، لأن جسدي، بالنهاية هو مني، وربما كان أصدق في إحساسه مني، لأنه ينفعل بلا تفكير.

-هبى يؤسفني قولك هذا، أني أعشق جسدك، ولكن، وفي الوقت نفسه، أشعر أني أحبك أنت. عشقت أجساداً كثيرة ولكنها لم تكن تحرك عندي إلا الرغبة الجنسية. هبى لست أدري كيف اشرح لك حالتي الآن. إنني أشعر بكل وجودي دفعة واحدة، لا انفصام الآن عندي بين جسدي وبيني.

كنت انظر إليه وهو يتكلم وفي الوقت نفسه كنت أراقب ذاتي. شعرت حينها أنني أنثى أمام ذكر، نظراته إلى حولتني إلى ما كنت أرفضه دائماً في ذاتي. وهذا الشعور لم يزعجني كما في السابق، بل استسغته وقررت بسرعة ألا أقمع نفسي وألا أمانع.

-لم لا؟ قلت وكأني أجيب نفسي.

-ماذا تقصدين، سألني، ولماذا هذه اللامبالاة؟ هبى إني لا أريد جسدك فقط إفهميني.

كنت أفكر بجسدي، في هذه اللحظة، واغتظت من قوله هذا فأجبته:

-هاني، لا مانع عندي أن تريد جسدي...وسأحاول هذه التجربة...ربما... ولم أكمل كلامي.
-هبى، إنك لا تفهميننني، أو إنك تتجاهلين ما أقصد.
-أترك الامور تسير كما تشاء، أجبته، ولنرحل الآن، لقد تأخرنا.
كان يتكلم بلغة الحب وأنا أصرُّ على لغة الجسد الذي قررت ممارسته أو ممارسة ذاتي من خلاله. كنت اريد الهروب من طرف لم يؤدِ إلا إلى الخبية، إلى الطرف النقيض، وكأنني أنتقم من ذاتي أو أنتقم لذاتي.

وثابر هاني على ملازمة بيت أخي، وعلى مسايرته للكل وعلى تقديم كل الخدمات الممكنة لهم. وأنا أصبحت أفرح لمجيئه وأنتظره. كان يدور بيننا حوار صامت ينفجر أحياناً، عند هاني بنوع من الاطراء المهذب لي. ولكني كنت اشعر بوجوده أكثر من غيري: فحين أدخل وهو موجود، وحدي كنت ألاحظ أنه يتنشق الهواء بعمق واستمتاع ليفهمني أنه يحب عطري. وحدي كنت أفهم نظراته إلى حين أتأنق بملابسي، وحدي كنت أشعر أنه معجب بشعري حين كان يدنو مني بهدوء ويلتقط شعرة وقعت على كتفي، ويبقيها في يده من دون ان يرميها. بدأ، جسدي يتمتع بحضوره، هذا الحضور الذي كان مهملاً طيلة الايام السابقة من عمري. لم أفهم هذا الانقلاب في ذاتي ولكني قررت الا أفكر وألا أحاول أن أفهم. ولماذا الفهم؟ ها هي الحرب تعبث بكل شيء بلا فهم، ثم أني لم أمارس حتى الآن إلا ما كنت أفهمه وأحلله، والنتيجة؟ خيبة تلو خيبة! سأترك حالي ولتأخذني الدرب حيث تريد، لن أمانع، سأفلت العنان لمشاعري. ومن قال إن المشاعر ليست منا؟ لا! لن أعود إلى التفكير، سأذهب مع هاني حتى النهاية، أو بالاحرى، سأذهب مع ذاتي تجاه هاني... ولكن هل هذا يعني أني أحبه أو بدأت أحبه؟ لن أسأل ذاتي! فقط سأسير. وإن تحولت هذه العلاقة إلى حب، فلا بأس! وإن لم تتحول، وإنتهت، فلا بأس أيضاً.

-17-

أقفلت المدارس واستعجلت سفر الاولاد كي أتفرغ للرحلة مع هبى. أصبحت شبه مداوم في بيت أخيها. لم أتركها تقوم بأي عمل يتعلق بتحضيرات السفر، جهزت كل شيء من تأشيرات دخول إلى البلدان التي سنمر على أراضيها، إلى تراخيص دولية لقيادة السيارة، إلى شراء كل ما نحتاجه في الطريق، إلى ... كانت ترافقني أحياناً، وعندما يكون الوضع الأمني متوتراً أذهب وحدي كي لا أزعجها، فهي تخاف جداً من صوت الرصاص. كنت في حركة دائمة وقد دبت في جسدي

قوة غريبة، ما عدت اشعر بالتعب الذي مهما كان مرهقاً بددته ابتسامة منها حين أعود.

ماذا فعلت بي؟ هل فهمت أني أعشقها؟ لقد صرحت لها بحبي ولكن لماذا قالت لي أني أحرك جسدها؟ هل حاولت، بهذا القول، كشف نواياي تجاهها؟ لكنني لم أنزلق: تكلمت عن الجسد فأجبتها عن الحب. هل هي صادقة؟ وهل أحرك جسدها؟ أنا صادق مع نفسي ومعها، إني أحبها، وما هو الحب إن لم يكن هذا الاحساس الذي أشعر به الآن؟ إني أعشق كل ما فيها من رائحة جسدها الممزوجة بذلك العطر السحري الذي لم يسترع انتباهي على أي سيدة سواها، إلى لون عينيها، إلى تدلي شعرها، إلى اتساق جسدها، إلى كل ما فيها... وهي تدرك أني أعشقها، أقرأ ذلك في عينيها وابتسامتها.
ماذا بعد ؟ هل ستتجاوب معي؟ وإن تجاوبت فإلى اي مدى؟ هي امرأة مثقفة ولا أظن أن رجلاً عادياً مثلي يستطيع امتلاكها؟ لن أتساءل وسأكتفي بانطباعي الذي يقول لي أنها لا ترفضني. ولكني بدأت أشعر بالغيرة فماذا يعني ذلك؟ أغار من أصدقائها، وأغار من كل اتصال هاتفي بها، وأغار من كل من يدعوها إلى أي مكان، وأصدقاؤها كثر وخاصة الرجال! لكنها لا تكترث بهم وتتعامل معهم بكل بساطة. وفي المقابل أرى أنهم كلهم ينظرون إليها كما ينظر الرجل إلى المرأة، انهم معجبون بها ويسايرونها ويلاطفونها. إنها محاطة بحلقة من المعجبين. فهل سأستطيع اقتناصها من بين ايديهم؟ أنتظر موعد السفر بفارغ الصبر كي تصبح معي وحدي بعيدة عن كل الاصحاب والرفاق، كي تصبح لي وحدي وسأعرف كيف أتصرف.

-18-
مراكب الشحن كانت الوسيلة الوحيدة للخروج من لبنان في تلك المرحلة من الحرب.

صعدنا إلى المركب وشحنا السيارة التي كانت تحمل كل أغراضنا. جلست داخل السيارة ووقف هاني ويوسف في الخارج حين أبحر المركب باتجاه طرطوس.

أتى بعض الشبان اللبنانيين وأخذوا يتكلمون مع هاني ويوسف، ويسألونهما عن سبب سفرهما، وهما يسألانهم بدورهما عن أشياء كثيرة. كانوا كلهم يمزحون ويضحكون، فرحين بالنجاة من الحرب والهرب إلى حيث يستطيعون العيش

بأمان، وحزينين لأنهم يتركون بلادهم للدمار والخراب والموت، جاهلين متى ستكون عودتها إلى الحياة وعودتهم إليها، وهل من عودة؟
-الا تشعرين بالحر؟ سألني هاني، اخرجي، لنجلس هنا على الارض بقرب السيارة، سأفرش لك منشفة.

خرجتُ من السيارة وجلستُ بقرب هاني من دون أن أفوه بكلمة. كانت بداية الرحلة هذه تعني لي بداية مرحلة لا أعرف إلى أين ستؤدي بي. كنت قلقة وشاردة أنظر إلى البحر. أنا الآن أمام المجهول! اقترب مني فأسندت ظهري على جسده، وشعرت بالدفء ولكني بقيت صامتة استمع إلى ما يدور بين يوسف وهاني والآخرين من حديث.

قال أحد الشباب:
-نحن أيضاً شحنا سيارتنا وحين نصل إلى طرطوس سننتقل إلى حلب حيث نمضي ليلتنا وبعدها نكمل الطريق الى تركيا.

هنا تدخلت وقلت:
-ممتاز! إذا سنترافق علي طريق تركيا. وعدت إلى شرودي. كان ذلك الشاب قبالتي.

وصلنا إلى طرطوس صباحاً. وبعد انجاز المعاملات تهيأنا للتوجه نحو حلب، كان الشباب الآخرون قد فعلوا مثلنا. ووضعوا سيارتهم وراء سيارتنا لكي نسير معاً.

سأبدأ الرحلة، قال يوسف، وقاد السيارة. كنت أجلس إلى جانبه وهاني في المقعد الخلفي. حاولت أن أجلس بشكل لا أدير فيه ظهري تماماً إلى هاني. وضعت رأسي على سندة مقعدي وأخذت أنظر، من وقت لآخر، إلى السيارة الأخرى لأتأكد من وجودها وراءنا. كنت أفضل أن نظلّ معاً لأن الطريق طويلة وصعبة. لكن هاني لم يكن مرتاحاً تماماً. كان ينظر إلي، وأنا أتلفت إلى الخلف، بنوع من الغضب لم أفهمه.

اشتد الحر، وكان الوقت بعيد الظهر، فاقترح هاني أني نوقف عند أول مقهى على طريق حلب لنشرب بعض المرطبات. وهكذا فعلنا. أوقف يوسف السيارة،

فتوقفت السيارة الثانية أيضاً، ترجل الجميع. ودخلنا المقهى وشربنا شيئاً بارداً، غسلنا وجوهنا واستعدنا قوانا وحيويتنا، وبعدها قال هاني:
-هيا بنا نكمل المشوار، ثم توجه إلى يوسف قائلاً: سأقود السيارة الآن، اتسمح؟
-بكل تأكيد، فأنا سأنام.

كنت أشعر أن هاني متوتر، لكني لم أكن أعرف لماذا. ركبنا السيارة فتمدد يوسف على المقعد الخلفي وجلست إلى جانب هاني الذي استلم القيادة بصمت. أخذت أسايره لأفهم سبب انزعاجه واستمريت في التلفت، من وقت لآخر، إلى الخلف لتفقد السيارة الثانية.

أخذ هاني يسرع بشكل جنوني حتى غابت السيارة الثانية عن نظري، واستمر مسرعاً حتى وصلنا إلى حلب وحدنا، فتوجه مباشرة إلى احد الفنادق الفخمة هناك، وهو فندق معروف وحجز غرفتين وقد بدأ بعض الارتياح يعود إلى هيئته وتصرفاته. صعدنا إلى الغرفة فقال هاني:
-نستريح الآن وفي المساء نقصد أحد الملاهي لنتعشى ونسهر ونتعرف على أجواء حلب، ثم إن لي اصدقاء هنا سأتصل بهم، وإذا قبلوا دعوتي، نمضي الوقت معهم، فهم يعرفون الامكنة الجيدة أفضل منا، فما تقولان؟
-لا بأس! أجبته.
-لا بأس إذا كان مع اصدقائك صبايا جميلات. قال يوسف.
ضحك هاني وأجابه:
-اطمئن فأنا أعرف ماذا أفعل.

لست أدري لماذا شعرت بالغيرة، فنظرت إلى هاني، قلت بنوع من التحدي:
-وأنا ايضاً أريد شباباً في السهرة، فهل فكرت أيضاً بالموضوع؟
-أعرف الآن أنك تحبين الشباب الصغار يا سيدة هبى وسأحاول تلبية رغباتك.
لم أفهم جوابه، انا التي كنت أنتظر منه أن يقول لي، ولو تلميحاً إنه لي، وإني سأكون معه هو في السهرة، فماذا غيّره بهذا الشكل، ولماذا قبلت بهذه السهرة؟ ولعنت الساعة التي قررت فيها المجيء معه ولعنت الرجال ورفقتهم.

دخلت مع يوسف غرفتنا وتوجه هاني إلى غرفته من دون أن ينظر إلي أو يعبّر عن أي ارتياح. كانت الغرفتان متلاصقتين. تمددت على سريري، وما هو إلا

وقت قصير حتى سمعت جرس الهاتف يرن في غرفة هاني، ثم سمعته يقول بصوت منفعل: "اننا متعبون ونريد النوم، سنبقى اسبوعاً كاملاً في حلب... أكملوا الطريق وحدكم، مع من يتكلم؟وهل سنبقى اسبوعاً هنا؟

وما هي الا دقائق حتى سمعت صوت هاني مجدداً!

-الو أريد أن أتكلم مع حاتم. وبعد صمت قصير:

-ألو حاتم أنا هنا، كيف حالك وكيف حال الاهل؟ أنا هنا في حلب... أدعوك مع اختك ومن أردت من الاصحاب إلى تناول العشاء معنا... لست أعرف الامكنة جيداً، فحدد أنت المكان... إذا نلتقي في صالون الاوتيل... الساعة التاسعة... إلى اللقاء.

ساد الصمت وغفوت ولم استيقظ إلا حين سمعت طرقاً على الباب. نظرت إلى الساعة في يدي، كانت الثامنة مساء. فتحت الباب وإذا بهاني.

-هيا، حضروا حالكم الاصحاب آتون في التاسعة، وستكون مسروراً يا دكتور.

كان هاني بكامل أناقته، معطراً كالعادة بذلك العطر الذي يتناسب جداً مع شخصيته، وكأنه عطره الطبيعي، عطر يعج بالرجولة. تنشقت بعمق وقلت:

-انت جاهز، على ما يبدو، أما نحن فيلزمنا بعض الوقت.

-ما زالت الساعة الثامنة ولديكم الوقت الكافي لتحضروا انفسكم.

دخل يوسف الحمام وتوجهت إلى هاني أسأله عن نوع السهرة. وما هو اللباس المطلوب. وبعد أن استعرض ما كان عندي من ملابس اختار الثوب الأكثر حشمة وقال: "هذا مناسب جداً ارتديه".

خرج يوسف وهاني من الغرفة وتركاني وحدي، فباشرت بتحضير نفسي.

كنت أزين وجهي أمام المرآة حين طرق الباب من جديد.

دخل هاني يسألني:

-هل أنت متأخرة؟

-لا. دقائق قليلة فقط وأكون جاهزة. هل أتى الاصحاب؟

نظر إلي وكاد يفترسني بعينيه، لكنه تمالك نفسه وقال:

-ننتظرك في الصالون. ارجوك أسرعي.

هاني ما بك؟ إني لا أفهم تصرفاتك وتوترك!
أقترب مني، امسكني من شعري، كنت لا أزال أمام المرآة، أدار وجهي نحوه وقال بغضب:
-ألا تعرفين أني أحبك؟
قال ذلك وانصرف.
فرحت لقوله، لكني لم أفهم ماذا يقصد. فإذا كان يحبني فلماذا هذا الغضب البادي على وجهه وفي نبرة صوته؟ أكملت تسريح شعري ونزلت إلى الصالون حوالي الساعة التاسعة. كانت نظرات هاني إلي، حين رآني، تقول الاعجاب والغضب في الوقت نفسه.
جلسنا في الصالون وساد الصمت للحظة قبل أن يأتي الاصحاب.
وحين دخلوا استقبلهم هاني وقبّل الجميع ثم قال:
-اعرفكم على الدكتور يوسف وهبى، ثم توجه إلينا وقال اعرفكما على حاتم وأخته فاديا... فأكمل حاتم: وأخي رشيد وصديقتي ليلى، نظر يوسف إلى هاني وهز برأسه؛ كانت فاديا صبية جميلة.

بدأت السهرة وكان الكل فرحين. قام يوسف ودعا فاديا إلى الرقص وبدوره أمسك هاني بدي ودعاني إلى الرقص. ضمني إليه وهمس في أذني:
-أحبك، ألا تعرفين ذلك؟ ألم تدركي أن كل سفرتي هذه هي من أجلك ولأنني أحبك؟
ضممته إلى مسرورة، وقلت: أعرف، وأنا بدأت أرتاح لعلاقتي بك.
-هل أنت صادقة؟
-أظن ذلك.
-ولماذا، إذا، تلك النظرات الحالمة الى ذلك الشاب في الباخرة؟
-أي شاب تقصد؟
-تتجاهلين، وكدت تفترسينه بنظراتك؟ أنسيت حالك كيف كنت غارقة في وجهه حين كنا على ظهر السفينة في البحر؟ أنسيت أستفقادك له في كل لحظة ونحن في السيارة على طريق حلب؟ ثم انه لماذا لحق بنا وسأل عنا في الفندق لو لم تفهميه انك معجبة به؟

سقط قول هاني علي كالماء البارد. لا أذكر أني نظرت إلى ذلك الشاب كما يقول هاني. ولكني فرحت بما قاله وفرحت بهذه الغيرة التي يبديها، فهذا يعني أنه يحبني فعلاً. ومن يرفض الحب؟

-كنت شاردة. أفكر، أجبته: أقول لك بصدق إنني لم أكن أنظر إلى ذلك الشاب، حتى أني ما عدت أذكر كيف هو.

-هل تنظرين ولا ترين؟

-بالضبط! فكثيراً ما أنظر إلى شيء ما ولا أراه لأنني أكون مأخوذة بفكرة معينة.

-ولكن الآخر يظن انك معجبة به حين تفعلين ذلك، ويكون ما تنظرين اليه شخصاً محدداً.

-مالي وللآخرين. ثم أدركت وضع هاني وأردت الدخول في اللعبة لاستشارة غيرته أكثر فقلت: ولكنه شاب وسيم على كل حال.

-ولماذا قبلت بالسفر معي إذا؟ قال هاني بغضب.

-كنت أسأل نفسي لماذا قررت السفر معي، أنت، حين وصلنا إلى الفندق وكنت تتحادث مع يوسف عن الصبايا الجميلات.

ضمني إليه بحب وقال: "هبى أحبك، فلا تعذبيني. وإذا كنت لا أعني لك شيئاً فقولي، عندها سنكمل الطريق معاً لأننا. بدأناها، ونفترق حين نصل إلى باريس.

كنت أشعر بكل جسدي يرتعش بلذة بين ذراعيه. فقلت:

-لاتفسر الامور على غير ما هي حقاً.

-وانت، حين تريدين التفكير والشرود أرجوك لا تنظري إلى شخص محدد. انظري أينما شئت ولكن ليس إلى رجل، لأن نظراتك هذه الثابتة لا تعني إلا الاعجاب بما تنظرين إليه... أو انظري إلي أنا، وهكذا يكفي.

-حينها لا أعود شاردة ولا أعود أفكر، وتكون نظراتي تقصد حقاً ما تقوله.

كنت أشعر وأنا أجيب هاني، بنوع من اللؤم البريء. فقبّلني على ثغري وتمتم: أحبك! أحبك.

أما أنا فلم أكن إلا جسداً منفعلاً بين يديه.

أمضينا ثلاثة أيام في حلب. مراهقين كنا على الرغم من أننا تجاوزنا عمر المراهقة من زمان. أصبحنا وكأننا بدون تاريخ، لا أنا أفكر بوضعي ولا هو يفكر بوضعه، نسي نفسه كلياً، نسي أن له زوجة وأولاداً. أصحبت أنا كل شيء عنده، يطاردني كخيالي وعيناه تقولان أكثر من أي كلام. كان كالطفل فرحاً كأنه خارج الزمان، لا يغضب إلا حين يرى أن أحداً ينظر إلي وكنت أقول له حين يغضب:

-لا نستطيع أن نمنع الغير من النظر، المهم هو أنا، وأنا لا أنظر إلى أحد. ألا يكفي ذلك؟

-أشعر، يا هبى أن كل نظرة إليك من شخص آخر، تسرقك مني. لا أريد لاحد سواي أن يتمتع بالنظر إليك.

كان كلامه هذا ينمي شعوري بأنوثتي، حتى بدأت أتلمس أني إمرأة فعلاً، امرأة بمعنى الانثى أمام ذكر يهيم بها، وسلوكي تغير، فأخذت أهتم بأناقتي وأبرز أنوثتي أكثر من قبل. وهاني ينتابه إزاء ذلك شعوران متناقضان؛ يفرح بي ويستاء في الوقت نفسه لأنه كان يعتقد أن كل الرجال يريدونني فيلازمني باستمرار. وحين يغضب من وجود أحد أو من نظراته إلي، يضمني إليه ليقول للآخرين: إنها لي وحدي، فلا تحاولوا!

وهكذا تنقلنا بين سفينة وسيارة حتى وصلنا إلى باريس في مساء اليوم السادس من بداية الرحلة.

-19-

وصلنا إلى باريس وتوجهنا مباشرة إلى أحد الفنادق حيث حجزنا غرفتين ونقلنا أمتعتنا إليهما. دخلت غرفتي واستلقيت على السرير لأرتاح من عناء هذه السفرة التي مضت بأسرع مما كنت أتوقع. شعرت، وعلى الرغم من التعب، أن جسدي أصبح كالثمرة الناضجة التي ترميها أية نسمة هواء عنيفة، أو حتى أية نسمة ناعمة. لم أذكر أني بقيت مثل كل هذه الفترة التي تعرفت خلالها إلى هبى، بدون ممارسة الجنس، ولكن أشعر أيضاً أن باستطاعتي المثابرة على هذا الوضع حتى تنضج هبى بدورها. لقد مضى على "تبتلها" كما قالت لي يوماً، مازحة، أكثر من سنتين! فكيف تستطيع أن تتحمل ذلك؟ وهل المرأة هي غير الرجل على هذا الصعيد؟ ولكن جسدها، حين ألامسه يرتعش وأكاد أسمع خلجاته التي تعني طلب الاستمرار والمزيد من المتعة. وحين أقبل ثغرها أشعر بشفتي تحترقان من حرارة شفتيها، فأغمض عيني لأغوص أكثر وأكثر في هذا الدفء اللذيذ حتى الخدر، وحين أفتحهما يكون وجهها عابقاً وكأن كل دم جسدها تحول إلى وجنتيها وشفتيها اللتين وددت دائماً أن اعتصرهما لأذوق طعم دمها.

لم نزل بعد في مرحلة التهيؤ وكأننا وضعنا على نار خفيفة، كثيراً ما تضطرم وتعود لتنطفئ أو تهمد لأن عنصراً مهما كان ينقصنا، وهو المكان! سأتخذ شقة صغيرة وأجعل منها مملكتي وأجعل من هبى ملكة أركع أمامها لأقبل ركبتها كل يوم وأغوص في جسدها الذي أصبح يعذبني.

-20-

في صبيحة اليوم التالي، استفاق يوسف باكراً، ارتدى ثيابه، اتصل هاتفياً بأحد أصحابه في باريس وغادر الغرفة.

لم يمضِ وقت طويل بعد مغادرته حتى رن جرس الهاتف.
-ألو، صباح الخير هل استفقتم؟ كان هذا هاني.
-يوسف ترك الفندق باكراً. أجبته.
-إذا أنت وحدك، إنني آت لتناول القهوة معك.

لم ينتظر جوابي، أقفل السماعة وأتى. كنت ما زلت بثياب النوم. طلبنا القهوة والترويقة وجلسنا على شرفة الغرفة.
-لقد أمضيتِ وقتاً طويلاً في باريس، كما عرفت، أليس لديك من ذكريات هنا؟ سألني.
-ذكريات كثيرة. منها الحلو ومنها المرّ.
-هل أحببت أحداً هنا؟
-جئنا من لبنان عاشقين واقترقنا هنا، والآن ربما تجددت اللعبة.
-لا تقولي ذلك، فأنا لن أتركك حتى موتي، وإذا ما تجددت اللعبة كما تقولين، فتكونين انت السبب.
-لا يهم من سيكون السبب، فحين تأتي نهاية أمر ما، لا يعود البحث في السبب مهما. ولكل شيء نهاية، كما تعرف.
-وللانسان نهاية، إنه حتماً سينتهي، أما حبي لك فلن ينتهي أشعر الآن، يا هبى، أني لن أعيش إلا بك.
ضحكت وقلت له:
-سمعت هذه العبارة من غيرك، وها كل منا في طريق! ولهذا السبب ما عدت أفكر بما بعد اللحظة الراهنة، فلا تحمل الموضوع أكثر مما يتحمل، ولا تربط نفسك بوعود، ربما كانت صادقة الآن...

-الآن ولاحقاً، قال بنوع من التحدي... وتابع: حين رأيتك يا هبى من شرفة بيتي، أحسست كأنني وضعت دفعة واحدة، أمام كل أحلامي.
-لا تستحق الاشياء كل هذه الجدية يا هاني، لست طالبة استمرار ووعود لأنني ما عدت أؤمن بها. أنا فرحة بك ومعك الآن فلنمتنع بهذا الفرح، لأن الزمن ماكر... وتابعت بعد صمت قصير، والانسان أبله، يدخل الدائرة للمرة الألف، وفي كل مرة يعتقد أنه نجا منها، وحين يصل الى نقطة الصفر يرى ان الدائرة أقفلت من

جديد. ولكنه لا يلبث أن يدخل في الثانية، هكذا إلى أن تتمدمك الدوائر حول هوة لا تشعره إلا بالغثيان فيهوي...

-لا تكملي أرجوك، ولا تحولي سعادتي الآن إلى حزن طالما حاولت وأحاول الخروج منه بشتى الطرق... فكري كما تشائين واتركيني سعيداً، ولو واهما، بما أنا فيه معك.

-وما برنامجنا اليوم؟ قلت لأقفل الموضوع لأنني لا أريد الغرق في ذاتي.

-سجلت عدة عناوين لشقق صغيرة أخذتها عن جريدة "الفيغارو"، أقترح أن نقوم بجولة عليها لنختار ما يناسبنا منها وهكذا نفاجئ يوسف حين يعود ونريحه ونرتاح من هذا الهم.

-فكرة جيدة. اتركني الآن لاحضر نفسي، ثم نذهب حيث تشاء.

-أنا جاهز ولا أضايقك بشيء فادخلي، وحضري نفسك. سأنتظرك هنا على الشرفة.

دخلت الغرفة وتوجهت إلى الحمام حيث إغتلست وخرجت ورائحة الصابون المعطر تفوح من جسدي. تنشق هاني بعمق وقال: "نعيماً"، ثم تقدم مني وضمني إليه وقبلني على ثغري قبلة اشعرتني بالدوار، فالتصقت به وطال عناقنا وهو يداعب جسدي من فوق منشفة الحمام، وبعد فترة، لم تطل جلّست رأسي وحررّت شفتي من شفتيه وقلت:

-الآن سأرتدي ثيابي ونذهب وإلا...

-كما تشائين أجابني.

دخلت الحمام من جديد حيث ارتديت ثيابي وخرجت. وقفت أمام المرآة وأخذت أبرج وجهي بهدوء وهاني يراقبني بفضول ظاهر. ثم أخذت مشطاً وبدأت أسرح شعري، فتقدم هاني مني وجمع شعري بيده وأبعده عن عنقي ووضع شفتيه بالقرب من أذني وأخذ يقبلني قبلات ناعمة خدّرت كل جسدي، فاستدرت نحوه وقلت:

-هذه الاماكن حساسة جداً! يا هاني.

-وما المانع؟

-ليس من مانع إطلاقاً. كان جسدي ينطق بلساني.

تشجع هاني وحاول من جديد أن يقبلني. لم أمانع. بدأ يعريني شيئاً فشيئاً وتقدمنا نحو السرير حيث استقلينا وأنا شبه عارية وأخذ هاني يداعب جسدي ويقبلني حتى انتشيت من دون أن نمارس الجنس بمعناه الحرفي، فشعرت بنوع من الاسترخاء والراحة وقلت:

-منذ زمن بعيد لم أشعر بجسدي... أو بالاحرى لم أشعر به قبل الآن فلنكمل هذه النشوة.

ولكنني كنت شبه متعبة وقد لاحظ هاني ذلك فقال:

-أنا سعيد بما تقولين، سعيد إن كنت صادقة حقاً. لقد لاحظت عطش جسدك ويسعدني إن كنت أنا أوريه وأحركه. أما أنا فلم أشعر، طوال حياتي إلا بجسدي وكنت دائماً أشبعه وكان يظل عطشاً. والآن فهو ليس مرتوياً وفي الوقت نفسه لا يشعر بالعطش كالسابق وكأن عطشه قد تحول إلى شعور لا أدري ما هو ... بلى أعلم، إنه الحب. أحبك يا هبى ولا يهمني إن أشبعت جسدي أم لا. يكفيني أنك معي، ولست أدري إن كنت استطيع الآن أن أمارس الحب، اشعر باضطراب غريب!

لم أتركه يتابع كلامه، أخذت المبادرة وقبلته على ثغره بسرعة وقلت:

-الامر لا يهم، يبدو أنه شعور طبيعي عند الرجل حين يكون حقاً عاشقاً، جسد المرأة التي يحب يرعبه للوهلة الاولى ولكن لا بأس.

ارتديت ثيابي وخرجنا. ولأول مرة طوق هاني خصري بذراعيه ونحن نسير على الطريق. التصق جسدي بجسده. أية لغة يتكلم الجسد؟ أخذ يضمني إليه أكثر فأكثر، وكلما ضمني طلبت المزيد. كاد يعتصرني وكدت أذوب نشوة. ما هذا التحول في نفسي؟ وما هذه الاحاسيس التي تتفتح في داخلي وما هذا التوتر أو بالاحرى ما هذا الشبق الذي يحركني؟

كنا نتوجه نحو المكان الذي حدده هاني قبل خروجنا من الفندق. وصلناه لا أعرف كيف، كنت فقط مع ذاتي، لا! كنت مع جسدي الذي تحول إلى شبه هيولى تشكل على نغمات ملامسة جسد هاني.

حين عدنا إلى الفندق وقد تم التوصل سريعاً، في ذلك اليوم إلى إستئجار شقتين صغيرتين لنا ولهاني، ودخلت غرفتي وتوجهت مباشرة نحو المرآة، وأخذت أتفحص جسدي الذي بدا لي كائناً آخر لم أعرفه من قبل، ولكنه فرض وجوده علي بشكل مستبد، لم أرفضه، بل أستمرأته، وذهبت معه في صبوته واندفاعه، فبدأ يأخذ، مع الوقت، حيزاً مهما في حياتي وبدأت ضرورة المرآة التي تعكسه تلح علي. وأول عمل قمت به حين انتقلنا الى الشقة الجديدة هو تثبيت مرآة كبيرة تعكس البدن كله، على أحد الجدران. واصبحت أمضي وقتاً طويلاً أمامها أراقب كل تفاصيل جسدي كلما أردت الخروج أو حين أكون وحدي في البيت. حتى أن نوعية ثيابي قد تغيرت، إذ أصبحت لا أرتدي إلا اللباس الذي يبرز تفاصيل واستدارات هذا الجسد الجديد.

-21-

بعد الانتهاء من مشكلة السكن، اصبح هم هبى ايجاد عمل لنفسها. واتفقنا أن نبدأ البحث في السفارات العربية أولا. وضعنا برنامجاً وباشرنا بتحضير الطلبات والملفات الضرورية لذلك. لميدم انتظارنا طويلاً إذ استلمت هبى دعوة لمقابلة أحد المسؤولين في إحدى السفارات.

كانت هبى بكامل أناقتها وأنوثتها وحضور كل جسدها حين دخلنا قاعة الانتظار في تلك السفارة. أشخاص كثر كانوا في تلك الصالة ينتظرون. كلهم نظروا إلى هبى بإعجاب وأحدهم أخذ يسايرها ويلاطفها، ويعرض عليها خدماته ومساعدته.شعرت بالازعاج ولكني تمالكت أعصابي وتظاهرت بالامبالاة حتى أتى احدهم وطلب من هبى الدخول إلى غرفة السيد... المسؤول.

دخلت وبقيت أنتظر في الخارج. طال مكوثها في تلك الغرفة. ماذا يحدث؟ هل يغازلها؟ هل يقبلها؟ هل يغريها بتقديمات معينة؟

احسست ناراً تغزو جسدي، والدم كاد ينفر من وجهي. هل أطرق الباب وأدخل؟ لا، سأنتظر قليلاً ولكن إذا طال الوضع أكثر سأفعل ولترفض هبى، سأجد لها عملاً في مكان آخر.

كنت في هذه الحالة من التوتر حين خرجت. كان وجهها عابقاً أو هكذا تراءى لي، وحركاتها مرتبكة: لمحت وراءها رجلاً أقفل الباب بعد خروجها. إنه حتماص المسؤول وقد أوصلها إلى الباب. لست مخطئاً في ظنوني إذا!

خرجنا إلى الشارع من دون أن يكلم أحدنا الآخر. كانت هبى بعيدة عني كأنها تفكر بشيء مزعج. لم يصمد صمتي طويلاً:

-هبى ما بالك وماذا جرى معك؟

-لا شيء جديداً. كان المسؤول لطيفاً جداً، بل أكثر من المألوف. كان يتكلم معي وعيناه تجولان على كل جسدي. كاذ يفترسني بنظراته. تجاهلت الامر واعطيته عنواني ورقم هاتفي كما أراد ولكنه تمادى في جلافته إذ اعطاني رقم هاتفه في البيت، وطلب مني أن اتصل به هناك، ثم دعاني إلى العشاء ثم أكد لي أن السفير يرغب، حتماً في التعرف إلى سيدة مثلي وأنه سيكلمه عني ويمهد للقاء بيننا...

لم أعد أتحمل وقلت بانفعال ظاهر:

-تعنين أنه "قواد"؟
ضحكت هبى حين سمعت هذه الكلمة وأجابت بدلال:
-ليس تماماً، ولكنه حتماً يلعب دور السمسار. على كل حال أنا لا ألومه ولا ألوم السفير، حتى ولو كانت نواياهما سيئة. نحن اللبنانيين أطمعنا الاثرياء العرب ببنات لبنان فتشوهت سمعتهن عند الآخرين، لقد تاجرنا بالموضوع بما فيه الكفاية!
-الآن انسي الموضوع، سنبحث عن عمل في مكان آخر.
ثم ضممتها إلى وقبلتها على ثغرها. شعرت بضرورة القبلة هذه لاستعيد هبى إلي.، ثم طوّقت خصرها بإحدى ذراعي وسرنا نحو... كنت أتحرق غيرة. هل الآخرون يرون هبى كما أراها؟ وهل يشتهيها الآخرون كما اشتهيها؟
-تكاد تخنقني ! سمعتها تقول.

كنت اشد على جسدها بدون وعي وكأني أريد امتلاكها وحدي. وتغييبها عن نظر الآخرين كل الآخرين.

انتبهت إلى ذاتي، أرخيت توتر ذراعي، فابتسمت وأفهمتني من دون أن تتكلم أنها نسيت الموضوع وعادت إلي. فكان جوابي أن أعتصرتها بقبلة وبكلمة "أحبك"!.

-22-

دخلت غرفتي حين اوصلني هاني وانصرف. وقفت أمام المرآة كما اعتدت في الفترة الأخيرة، فعكست لي جسدي الذي بدأت أتلذذ بالنظر إليه وباكتشافه. خلعت ثيابي أمامها ببطء وارتديت ثياب النوم ببطء أكبر متفحصة كل حركة في ذراعي وخصري وفخدي... كان جسدي أمامي في المرآة شخصاً آخر وحاولت النظر اليه متفحصة نفسية الرجل؛ حقاً جسد المرأة مثير. ما هذه النرجسية؟ قلت لذاتي وأدرت ظهري إلى المرأة كي أغيب جسدي عن نظري. هل المرأة جسد في نظر الرجل؟ كنت جسداً متأنقاً ومثيراً. حين قابلت المسؤول في السفارة، فكيف ألومه على تصرفاته وعروضه؟

استلقيت على السرير لأرتاح قبل أن ألتقي بهاني مجدداً. لماذا هاني وليس ذلك المسؤول؟ كان هذا السؤال الذي مرّ في ذهني أولا. إنه لا يحرك جسدي! هذا هو الجواب بكل بساطة. ولكن هذا يعني أن الجسد ليس أعمى في اختياره. صحيح

أن اختياره يتم بطريقة غرائزية ولكنه اختيار على كل حال. للمس دور كبير! وقضية الجسد هي قضية جلد أي قضية الملمس الذي منه المنفر ومنه المستحب، وهكذا يستجيب الجسد أو يمتنع إذا ترك لعفويته، واختياره هو دائماً، الانسجام وهو لا يخطئ لأنه لا يفكر. الاشياء واضحة بالنسبة اليه، إذ أنه يقسم البشر إلى فئتين وينتهي الموضوع. الفكر وحده عرضة للخطأ والصواب. والعلاقة الصحيحة هي التي يتلاقي فيها صواب الجسد مع صواب الفكر. ولكن هل هذا ممكن؟ لا حتماً! هذا ما تقوله تجربتي حتى الآن، لم أعثر بعد على علاقة من هذا النوع. ولكن هاني يتسهوي جسدي فلماذا أفكر؟ ولماذا الفكر في عالم المتعة؟ إنه يفسد الامور كلها إذ يحتم الفراق لأنه لا يفهم ولا يقبل لغة الجسد وقوله. لقد قررت بوعي أن الغي وعيي. ولكن إلى أين المفر؟ فعلى الرغم من استسلامي العفوي والقصدي لمنطق الجسد أشعر بالتشييء وبالانفصام . إني أتعاطى مع جسدي وكأنه خارج عني وأتساءل إلى متى ستدوم هذه الحالة؟ وهل أن الشريك يمارس اللعبة نفسها أم أنه حقاً يحبني كما يدّعي؟ وإن كان يحبني حقاً، ألست أستغل هذا الشعور عنده لاقوم بتجربتي، تجربة ممارسة الجسد؟ وهل هذا عمل نبيل؟ وحين وصلت إلى هذا السؤال قلت لنفسي: أنا أفهمته، منذ البداية، أنه يحرك جسدي، وهو حقاً يحركه، ولكنه أفهمني، بدوره، أنه يحبني، وهو بالتالي، ينتظر مني الحب بالمقابل وليس متعة الجسد فقط. هل هو صادق في قوله؟ له ستتحول هذه العلاقة، عندي إلى حب؟ وهو يقوم الحب على تلاقي الجسدين فقط؟ لقد سمعت وقرأت أن الجنس حطب الحب، أي أنه هو الحرارة التي تؤمن استمرار الحب وتوهجه، وأن الحب ينتهي إذا لم يتغذ بالجنس، وهذا يعني بصيغة أخرى، أن الجسد هو وقود الحب. فإن صح القول، وهو على الارجح، صحيح، أفلا يكون الجسد أداة تدمير لذاته إذا لم يكن في خدمة حب ما؟ إنه يبقى نارا وحرارة ولكنها حرارة تتآكل وتؤدي إلى الدمار واللا شيء... أي إلى الرماد! وحين وصلت إلى هذه النقطة أدركت أني غرقت في التفكير الذي كفرت به منذ البداية فأنصرفت عنه لأغوص من جديد في جسدي وانفعالاته.

ما كدت أخرج من ترهات فكري حتى رنّ جرس الهاتف.

-هل استرحت، سأمر بك ونخرج ثم أدعوك إلى العشاء. فما رأيك؟

وافقت وأقفلت السماعة وشعرت أن كل تساؤلاتي السابقة تسربت من يدي التي بقيت للحظة فوق سماعة الهاتف بعد أن اقفلته وأنا أفكر بما سأرتديه لتلك الليلة.

-23-

عدت إلى البيت حيث أكلت بسرعة وتمددت طلباً للراحة والنوم ولكني كنت متيقظاً جداً. كلما حاولت إغماض عيني أتتني صورة هبى مع ذلك الرجل في الفراش. هل هيأتها لاقدمها لقمة سهلة إلى سواي؟ لا! إنها لي وحدي!

نهضت من مكاني وأخذت أتمشى وأدخن وأتمشى وأدخن وأفكر بأموري وأمورها حتى ضاق صدري بالانتظار، فاتصلت بها وتركت البيت مباشرة بعد المكالمة لكي القاها، بدأت أشعر أنها تفلت من يدي كلما ابتعدت عنها.

-24-

كان تصرفه غريباً حين التقينا. ضمني اليه بعنف وكأنه يستردني من شبح خفي. سرنا معاً. خطواته مسرعة. كدت أركض لكي أجاري وقع تحركه. لم ينتبه لذاته إلا حين صرخت به:

-هاني ما بك؟ لماذا تسرع هكذا؟

لم يجب، لكنه استجاب وتباطأت خطواته حتى انسجمت مع وتيرة خطواتي. كل ذلك تم بصمت.

-إلى أين؟ سألته بعد فترة.

-إلى حيث تأخذنا الدرب.

لم يخرج من انفعاله إلا بعد فترة سير طويلة، حين توقف وقال:

-سأدعوك إلى العشاء عندي في البيت الليلة. وسأدبر الأمور كما أريد ولا أظنك تمانعين. قال ذلك وكأنه لا ينتظر جواباً مني. كان الأمر محسوماً بالنسة اليه. على كل حال لم يكن لدي مانع من ذلك وأتى صمتي بمثابة رد على توقعه.

دخلنا "سوبر ماركت". كانت المبادرة بيده، يتجول بين الرفوف وأتبعه. اختار زجاجة "شامباني" وانواعاً من اللحوم الباردة والاجبان وعلبة كافيار كبيرة وبعض الحلوى وعدنا إلى البيت، بيته.

-الآن أنا أيضاً سأحضر الجلسة قال لي. كان جسده يتحرك بتوتر وانفعال ملحوظين.

-إفعل ما تشاء وإذا أردت لي أن أرتاح فلا مانع عندي إطلاقاً. كنت أيضاً أحدس بشيء غير واضح تماماً، فقلت:

-أحضر أنت الطاولة وأنا سأستحم وأرتدي عباءتك لتكون الجلسة مريحة.

-حسناً، أجابني، وأخذ ينفذ ما في رأسه ودخلت أنا الحمام.

حين خرجت رأيت هاني جالساً على الارض وأمامه شرشف ممدود على الموكيت وعلية صحون صغيرة وضعت فيها اللحوم الباردة والاجبان بشكل أنيق، وثمة كأسان فارغتان. وهاني يدخن سيجارة، فنظرت اليه باعجاب وقلت:
-ما هذا النشاط يا هاني، لقد رتبت كل شيء وكأنك ساحر.

كان جوابه أن وقف وضمني اليه وقبلني على ثغري وقال: اجلسي قبالتي
جلسنا وجهاً لوجه على الارض وأخذنا نشرب الشامباني ونتحدث بأمور مختلفة تحمل في طياتها نوعاً من الشبق واللعب على الكلمات المثيرة... ثم لم يلبث هاني أن وقف وأخذ له مكاناً بالقرب مني وبدأ يداعب جسدي بيديه وأنا لا امانع. كنت في حالة استسلام كلي. استسلام عفوي ومقصود في الوقت نفسه. وحين بلغت بي الاثارة درجة معينة من عدم التحمل، أخذ هاني يعريني رويداً رويداً حتى أصبحت جسداً عارياً تماماً، فأمسك كأس الشامباني وأخذ ينقط منها على وجهي وثغري، ثم يلتقط المشروب بشفتيه ولسانه، حتى عمد كل جسدي بالشامباني وهو يرشفه وكأنه يشرب جسدي، وأنا أتلوى كالافعى تحت لمساته وشفتيه حتى أصبح جسدي كتلة من مشاعر لذيذة. فقررت ألا أفكر وأن أذهب في اللذة حتى النهاية. كان هذا الاختبار جديداً كلياً علي، فأنا لم أشعر بجسدي اطلاقاً قبل الآن، حتى أني لم أكن أعرف أن في جسد المرأة مواضع معينة للشعور باللذة. استيقظ جسدي دفعة واحدة، فكنت أمسك برأس هاني وأداعب شعره وأذنيه طالبة المزيد مما يفعل. وهو حين انتهى من شرب جسدي من شعري حتى أصابع قدمي، خلع ثيابه ودخل جسدانا في عراك طويل كان،كل منا، يحاول الا ينهيه، فشعرنا بنشوة لم يشعر بها أي منا من قبل.
-احبك، يا هبى، قال هاني، حين تمدد بالقرب مني وهو ما زال يقبلني، إنك لي.

أما انا فقد شعرت بنوع من الاستلاب، فهذا الجسد الذي ارتعش بين يدي هاني بهذا الشكل الجنوني أصبح وكأنه ملكه. لقد ملكه حقاً لأنه هو الذي اكتشفه وهو الذي ايقظه. ولكن، يبدو، أن للجسد شروطاً، فهو أيضاً يريد تملك أداة لذته ومتعته.
-شرط أن تكون أنت كلياً لي، أجبته.
-أتعتقدين أنك تضعين شروطاً يا هبى؟ لا أعتقد أنني سأستطيع حتى النظر إلى إمرأة بعد الآن. إنك الغيت كل عالمي الآخر، انت كل حياتي.

لم أكن أعرف من قبل هذا النمط من العلاقات، ولكني احببت. اكتشفت نفسي من جديد؛ لقد وصلت إلى الثلاثين من عمري وأنا حتى الآن، لم أدرك سر الجسد ومتعته، فقررت أن أكتشفه أكثر فأكثر:

"ربما هذه العلاقة لا تؤدي إلى خيبة كما العلاقات الجدية السابقة". قلت لنفسي. هل أبرر نفسي أمام نفسي؟

-25-

أوصلت هبى إلى بيتها وعدت وحدي، واعدا نفسي بنوم عميق بعد أن ارتحت نهائياً من امتلاكها. كانت قد تجاوبت مع كل امنياتي واحاسيسي بأكثر مما كنت أتوقع. وكثيراً ما كنت تختلط عندي صورتها، وهي بين ذراعي بصورة تلك المرأة التي لا أشبع من مشاهدتها على الفيديو. ولكن هناك فرق بينهما: امرأة الشاشة تمسك هي بالمبادرة، بينما هبى تتركني، أنا، أفعل ونجحت في اكتشاف مكامن الشعور باللذة في جسدها. كنت مصمماً على النجاح لأنني مارست معها، ودفعة واحدة، كل ما سبق لي ومارسته مع جميع النساء اللواتي عرفتهن. كم جسدها جميل! وكم هي مثيرة حين تمارس الجنس!

حين وصلت إلى البيت، سمع جرس الهاتف يقرع، استعجلت بفتح الباب قبل أن يقطع الخط، رفعت السماعة بسرعة وسمعت:

-أين كنت حتى تأخرت بالاجابة؟

-كنت في الحمام، كيف حالك وكيف حال الاولاد. اشتقت إليكم.

-وماذا فعلت؟

-لم أوفق حتى الآن بإيجاد شقة لائقة لنا في باريس.

-ولكننا سنأتي على كل حال!

-أمهليني بضعة أيام، لا تتعدى الاسبوع، وكل شيء يكون جاهزاً.

-أنا لا أحب السكن في باريس، أفضل السكن في "نيس" على شاطئ البحر.

-كما تريدين سأذهب غداً إلى نيس وأرتب كل الامور. لا تستعجلي. أتركيني أوفر لكم أسباب الراحة قبل مجيئكم.

ثم تكلمت مع الاولاد وتواعدنا على اللقاء بعد أسبوع في نيس.

لا أدري كيف استدركت الأمور وأجبتها من دون تردد أو ارتباك. هل لاحظت شيئاً؟ لا اظن! لقد كنت طبيعياً جداً في كلامي. ولكن ماذا سأقول غداً لهبى؟ وماذا سيكون موقفها مني وماذا ستكون ردة فعلها؟ وهل استطيع أنا الابتعاد عنها؟ لا! إني أحبها حقاً وسأفعل المستحيل لكي تستمر علاقتي بها. هل ستقبل

بوضعي هي التي قالت: انها لي، شرط أن أكون كلياً لها؟ سأكون لها! ولكن كيف؟ الطلاق غير وارد الآن، الاولاد ما زالوا صغاراً وبحاجة إلى أمهم، فماذا سأفعل؟ تخابطت الاسئلة في رأسي فقررت عدم التفكير، إذ لم يكن لدي اجوبة. كبست زر التلفزيون وجلست قبالته لاسترخي وأنام.

-26-

دخلت غرفتي وغرقت في نومٍ عميق حتى ساعة متأخرة من اليوم التالي. وحين استفقت لم أنهض من سريري بل بقيت مستلقية أستعيد في خيالي ليلة البارحة، "ليلة الشامباني" كما أسميتها. كم انه يعرف جسد المرأة! هذا يعني أنه عرف الكثيرات قبلي. هل صحيح أنه لم يسبق له أن مارس الجنس كما مارسه معي؟ هل صحيح أن اللذة التي شعر بها كان يذوقها لأول مرة في حياته؟ ما هذا الدجل وهل يعتقد أني صدقته؟ ولكن لماذا لا أصدقه؟ أنا أيضاً قلت له الكلام نفسه وكنت صادقة فعلاً. لقد جعلني أغوص في أدق تفاصيل جسدي الذي حوله بخبرته إلى ما يشبه الآلة الموسيقية المحكمة الاوتار وحول نفسه إلى عازف ماهر، فكان كيفما لمس أصاب اللحن المناسب لتلك السمفونية المجنونة العابقة برائحة الشامباني والكافيار.

حاولت النهوض وإذ بي كأنني أنسحب من قمقم دافئ ولكني نهضت، اغتسلت وارتديت ثيابي واتصلت بهاني الذي كان ينتظرني في بيته. كنا على موعد لزيارة احد اصدقائه للبحث عن عمل بعد أن الغينا امكانية الشغل في السفارة.

التقينا وقمنا بالزيارة التي فشلت ولكن لاسباب غير الاسباب التي أفشلت المحاولة الاولى في السفارة. هنا كانت الاسباب سياسية، إذ أبدى "الخواجة" ، صديق هاني، جلافة في إبداء ارائه، بعد أن عرف ميولي واتجاهاتي. واستفاض في الكلام حتى استفزني فخرجت من عنده بعد أن اسمعته كلاماً جارحاً حول مواقفه المنحطة.

المهم أن المحاولة فشلت وهذا أشعرني بالاحباط، فلعنت باريس والسكن فيها. ألا تستطيع المرأة أن تعمل إلا اذا استعملت جسدها جسراً للعبور، أو إذا اسكتت ضميرها وقناعاتها؟ لا! وألف لا! ولعنت هاني الذي اتى بي إلى صديقه هذا، وهو يعلم جيداً ميولي السياسية ومن المفروض أنه يعرف ميول صديقه.

كان هاني مرتبكاً منذ التقينا ووجهه متعب كأنه لم ينم جيداً. وحين لعنته وشتمته لاذ بالصمت وتركني أصب غضبي عليه وعلى صديقه وعلى باريس وعلى ... وحين هدأت قليلاً توجه إلى قائلاً:

-ما رأيك لو ذهبنا إلى نيس؟ هل تعرفين "الكوت دازور" ؟

-لا! ولكن لماذا هذا الاقتراح الآن؟

-فقط لتغير الجو، ترتاحين ليومين أو ثلاثة، ثم نعود وتبحثين عن عمل من جديد.

وافقت على كلامه. كنت اشعر بالحاجة إلى الخروج من باريس أو بالاحرى الخروج من المكان علني أخرج من ذاتي التي بدأت أشعر أنها تفلت مني. وفي لحظة شرود بعد هذا الحديث القصير جالت في ذهني، لست أدري لماذا، مقارنة بين وضعي ووضع أية مومس، ولكن سرعان ما ابعدت هذه الفكرة وحسمت الامر قائلة لذاتي: "أنا أترك لجسدي أن يتكلم لغته بينما هي تتكلم لغتها بواسطة الجسد، فلا مجال للمقارنة. ولكن هل هذا صحيح؟ ما الفرق بين اللغتين؟ الفرق شاسع! المومس تستغل جسدها وتدَّفع الرجل ثمن متعته، وهكذا يصبح جسدها سلعة للتجارة وليس أداة متعة. هذا بالنسبة إلى المرأة، ولكن ما هو موقف الرجل في مثل هذه الحالة؟ وهل يستطيع أن يميز بين المنطقين؟ بالارجح لا! إلا اذا كان يحب فعلاً المرأة. ويبدو أن هاني يحبني، وما ليلة البارحة إلا نتيجة للغيرة علي بعد أن لمس في السفارة اهتمام الآخرين بي. والغيرة تشحذ الحب الذي ليس له أداة للتعبير سوى الجسد، وقد أحسن هاني هذا التعبير.

نظرت إليه، كان، هو ايضاً، شارداً، انتبه الى ذاته وقال:

-نرحل الآن الى نيس ونصلها مساء.

لم يمض على قرارنا هذا نصف ساعة حتى كنا في السيارة خارج المدينة.

طريق جميلة وسهلة، ولكنها طويلة بين نيس وباريس. تركنا العاصمة عصراً فكانت رحلتنا ليلاً. والظلمة تسمح بالعودة الى الذات والانكفاء نحو الداخل. هاني يقود السيارة بصمت ومن وقت لآخر يضمني إليه ويقبلني أو يضغط على كتفي أو يدي ثم يعود إلى صمته. لم أعتده هكذا، ما به لا يتكلم؟ هو هو تعب؟ هل ملني بعد أن امتلك جسدي؟ لم أصبر طويلاً وسألته عما به، وقلت له بصراحة ما جال في ذهني، فنفى بعنف كل تأويلاتي و"ولدناتي"وعزا صمته إلى مشاكل عنده يريد حلها ولا علاقة لي بها. ولكنه بعد ذلك خرج من ذاته وأخذ يكلمني على تعلقه بي

وعن عشقه لجسدي، واستعاد كلاما ما تم بيننا ليلاً. كان يتكلم ويقود السيارة بيد واحدة، بينما اليد الأخرى تجول على كل جسدي. لمساته تثيرني حقاً.

أوقف السيارة في أحد الأماكن المجهزة لاستراحة المسافرين وضمني اليه. كان في حالة شبق تفوق حالتي. كبس على زر بالقرب من مقعده فانقلب ظهر المقعد الامامي، وكان قطعة واحدة، الى الوراء، اصبح كالسرير. ومارسنا الجنس حتى في السيارة. كانت الظلمة تشكل ستائر عازلة لجنون جسدينا الملتهبين.

-هبى. قال حين انتهينا. لن أسمح لسواي أن يمس هذا الجسد، لا أحد، على كل حال يعشقه كما أعشقه انا، والآن أكثر من قبل، بعد أن تذوقته واكتشفت نضارته، كأنه جسد شابة في السادسة أو السابعة عشرة من عمرها. لا أستطيع أن اصدق أن احداً عبث بهذا الجسد الذي حافظ على كل صلابته وعنفوانه. أنا متأكد أنك لم تعرفي الرجل قبلي، ولم يعرف أي رجل قبلي جسدك. لا أستطيع أن أتصور ذلك ولو للحظة واحدة.

-ولكنك أنت عرفت أجساداً كثيرة وهذا يزعجني.

-كلها أمحت من ذاكرتي الآن. كنت دائماً أبحث عن المرأة التي تختصر كل نساء العالم ووجدتها فيك أنتِ. أنا متأكد أن جسدي نفسه سيرفض أية امرأة حتى ولو حاولت إرغامه.

ما هذا الاحساس بالتملك؟ كان هاني يتكلم على وضعه، كأنه يرسم حالتي أنا. لم أشعر بهذا الاحساس إلا بعد "ليلة الشامباني". لماذا؟ ما سرد الجسد؟ إنه أداة حب التملك وسببه. ويبدو أن للجسد عنفوانه هو ايضاً، يأبي ويرفض المشاركة. هل هو يرفض أم نحن نجعله يرفض بأننا في وعينا نغار؟ هل هي الغيرة أم عنفوان الجسد؟ ما هو الحد الفاصل بينهما؟ وأين موقع الحب؟ وهل أحب هاني؟ ما عدت قادرة على تصوره مع غيري، أريده لي وحدي تماماً كما عبر هو عن حاله.

-هاني هل تحبني؟

-مجنونة أنت! ألم تعرفي بعد؟

هل يعرف هو معنى الحب؟ أنا متأكدة، الآن، إنه يعشقني وأنا أعشقه ولكن هي يحبني وأحبه؟ للعشق علاقة مباشرة بالمادة: جسد يعشق جسد آخر، تماماً، كما الارض اليابسة تعشق الماء.

عاد هاني الى قيادة السيارة. ضمني اليه. أرخيت رأسي على كتفه وغرقت بدفء جسده. أوقفت كل تحليلاتي وأسئلتي. كان جسدي شبه مخدر. لماذا اوقظه؟ تركته يستريح ويغرق في الخدر.

وصلنا إلى نيس ونزلنا في فندق هناك على مدخل المدينة، وإذ ببعض أصحاب هاني مقيمون في ذلك الفندق. وفي اليوم التالي دعانا أحد هؤلاء الاصحاب إلى العشاء.

جلسنا حول الطاولة، كان صاحب الدعوة برفقة سيدة شقراء جميلة. ظننت أنها زوجته. ولكن حين سأله هاني عن زوجته وأجابه أنها مع الاولاد في البيت، والبيت كان في نيس نفسها، علمت أن السيدة الشقراء هي صديقته أو عشيقته. كل الآخرين كانوا يتقبلون هذا الوضع حتى أن وجودي مع هاني لم يكن مستغرباً. ما هذه الاجواء؟ كل واحد مع عشيقته، كأن الامر طبيعي جداً! أهكذا هو جو الرجال المتزوجين، يتسامحون مع بعضهم بعضاً وكأنهم متفقون ضمنياً وواثقون أن لا أحد منهم سيخبر زوجة الآخر بالأمر!

-إنها شقيقة زوجته وعشيقته أجابني هاني حين عدنا إلى غرفتنا وسألته عن صاحبه ورفيقته.

زوج واحدة وعشيق شقيقتها! ما هذه السلطة!

-قل لي، هل كل الرجال هم هكذا؟ لقد لاحظت من علاقاتكم مع بعضكم أنكم تفتخرون بأن يكون لكم عشيقات خارج الزواج. سبق لي وفهمت منك أنك غير سعيد مع زوجتك وأنك، لهذا السبب، تبحث عن علاقة في الخارج أو عن علاقة صحيحة كما تدعي، فهل كل الرجال هم مثلك يا ترى؟ أنا لا أعتقد ذلك. أو أنكم كلكم كذابون؟

-لا! الامور ليست كما ترينها، والرجل يبحث عن مغامرة حتى ولو كان سعيداً في زواجه!

-يعني..

لم يتركني أكمل سؤالي وأجاب:

-قلت إنه يبحث عن مغامرة ولم أقل عن علاقة حب. فهما يختلفان. وأنا معك يا هبى، لا أبحث عن مغامرة، إنني أحبك وستثبت لك الأيام ما أقوله الآن.

"جواب غير مقنع"، قلت في نفسي. صمت وغرقت في ذاتي: كل رجل يقول هذا الكلام لعشيقته، فهل أصدق هاني؟ ولماذا أصدقه؟ هل هو يبحث عن مغامرة يعود بعدها إلى أهله وبيته؟ ربما! ولكنني أنا أيضاً أقوم بمغامرة أشعر الآن أنها

ممتعة، أكتشف من خلالها جسدي، ولم أفكر بما ستؤول اليه. فإن عاد هاني إلى عالمه، عدت أنا إلى عالمي. لن أترك قصة مثل هذه تنغص حياتي.

لم يتركني لذاتي، كأنه حدث بما يجول في خاطري. اقترب مني وأخذ يفكفك ثيابي ببطء ويداه تداعبان كل قسم يتعرى من جسدي ويقول كلمات من وزن: أحبك، وأعبدك، أنت حياتي، إلى آخر المعزوفة التي تفعل كالطلاسم وتضرم النار في الجسد، وتعطل الفكر وتلغي كل الفواصل بين الجسدين اللذين دخلا في بعضهما، يحاولان التوحد الذي لن يأتي أبداً!

لم أنتش كما كنت أتوقع، "ليلة الشامباني" كانت القمة والمقياس الذي بدت بعدها كل الليالي اللاحقة في درجة أدنى وأدنى وأدنى....

-27-

نهضت باكراً وجهزت نفسي للخروج.

-هبى، قلت لها حين فتحت عينيها، لدي بعض الاعمال سأقوم بها وأعود بسرعة. أما أنت فنامي، وإذا أردت فانزلي إلى البحر وتمتعي بشمس نيس إلى أن أعود.

لم تجبني، قبلتها وانصرفت أبحث عن مدرسة للأولاد. أما، بالنسبة إلى البيت فكان صديقي قد وجد لي شقة مفروشة وكلمني عنها البارحة. زرت أولا البيت مع الصديق وقبلت به مباشرة لأنني كنت أريد الاسراع في الموضوع، ثم توجهت إلى المدرسة التي أرشدني إليها صديقي نفسه وتم التسجيل، ايضاً، بسرعة. وهكذا كنت ظهراً في الفندق.

وجدت هبى في الغرفة تستعد للنزول في البحر.كانت ترتدي المايوه وهو عبارة عن قطعتين صغيرتين جداً تستران أقل ما يمكن من جسدها.

-كم أنت جميلة يا هبى! إني أغار من الذين سيرونك الآن على الشاطئ.

ابتسمت ورفعت شعرها إلى قمة رأسها، وربطته بشريطة، لونها أصفر كلون المايوه. بدت في هذا الشكل كأنها لا تتعدى سن المراهقة. فما كانت مني إلا أن دنوت منها واعتصرت جسدها بضمة جعلتها تصرخ وتحاول الإفلات مني. لم تستطع لأن جسدي التصق بجسدها وتحركت في داخلي ارتعاشة، أظنها انتقلت إلى جسد هبى، التي، بعد محاولة الافلات، استكانت وأخذ جسدها يرتاح، بعد توتر، وكدت أتحسس هذا الارتياح الذي سرى من أعلى ظهرها إلى آخر قدميها وتتوج

بنظرة هادئة في عينيها تبعها إنفراج في ما بين الشفتين، كان دعوة لقبلة اخذتنا إلى عالم آخر كانت أرض الغرفة مسرحه.

وحين عدنا إلى جو الغرفة من جديد، نظرت هبى إلى جسدها وضحكت. ثم نظرت إلي وقالت:
-لقد تحققت ما تريد يا ... واقتربت مني، وإذا بلطخات حمراء تميل إلى الزرقة، منتشرة على جسدها، حول النهدين وعلى الذراعين والرقبة والكتفين والظهر و...

-28-

لا أحب الفضائح الجنسية. لهذا السبب التغى مشروع الذهاب إلى البحر. ارتديت قميصاً ذا أكمام وبنطلونا طويلاً وخرجنا نطوف في المدينة التي كان هاني يعرفها من قبل. جلنا في طرقاتها الداخلية، تناولنا الغداء في أحد مطاعمها. حين عدنا، في المساء إلى الفندق، كنت متعبة. اقترحت على هاني العودة في الغد إلى باريس. لم يمانع، بل رحب بالفكرة قائلاً: "وأنا أيضاً أنهيت عملي هنا". اكتفيت بالجواب هذا ولم أسأله ما هو العمل الذي انتهى منه.

عدنا كما أتينا على الطريق إياها. كانت العودة نهاراً ووصلنا باريس في الليل. توجه هاني مباشرة نحو بيته قائلاً: "سنبقى الليلة أيضاً معا فما رأيك؟" وتابع قيادة السيارة في الاتجاه نفسه من دون أن ينتظر جوابي. كنت متعبة وأريد الراحة أينما توفرت، فلم أجب.

في بيته دخلت الحمام فوراً حيث إغتلست ودخله بعدي هاني.

كان في الحمام وكنت مستلقية على الكنبة في الصالون. رن جرس الهاتف.
-هل أرد أنا؟ سألته.
-لا!لا! إني آت.
خرج بسرعة من الحمام، بيده منشفة، والصابون والماء يشرشران من كل جسده وشعره. أخذ السماعة، مسح وجهه بالمنشفة:
-...
-وصلت الآن وقد أمنت كل شيء في نيس.
-...
-عدت إلى باريس لأتخلص من بعض الامور العالقة. ولكن سنلتقي كما اتفقنا.

-...
-غداً! لا مستحيل. بعد غد إذا أردتم.
-...
-إلى اللقاء. أقبلكم.

أقفل السماعة وعاد إلى الحمام فوراً من دون أن ينظر إلي. وحين خرج من جديد بادرني بقوله:
-هبى، العائلة آتية بعد غد. سأذهب إلى نيس لأدبر أمورهم وأعود إليك.
صمت للحظة شعرت خلالها أنني أهبط في هوة عميقة. وحين وصلت إلى القاع سألته:
-متى تعود؟... اذا عدت.
-بأقرب وقت، فقط فترة إدخال الأولاد إلى المدرسة وترتيب وضع البيت. ولا أظن أن ذلك يستغرق أكثر من اسبوع.

الآن أدركت ماذا فعل في نيس ولماذا اقترح على الذهاب إليها. لم يكن اقتراحه إذا ليخرجني من باريس ولكي أرتاح كما أدعى. نظرت إليه وإذا بي أرى أمامي رجلاً غريباً وبعيداً جداً عني. لم أعد قادرة على الكلام ولا على البقاء معه.
-أوصلني إلى بيتي من فضلك.
أوصلني وكان الوجوم يخيم على الجو بيننا. نزلت من السيارة بصمت وافترقنا.

-29-

افترقنا وعدت الى بيتي. أزعجني صمتها وانغلاقها، فماذا يعنيان؟ هل أتصل بها؟ لا! من الافضل أن أتصل بها غداً بعد أن تكون قد نامت وارتاحت. وأنا أيضاً على أن أنام جيداً لأني مضطر إلى العودة إلى نيس في الغد كي أستقبلهم بعد غد في المطار.
تناولت "حبة منوم" من العيار القوي، كي أغفو بسرعة وأتخلص من الاسئلة التي فرضت نفسها علي. حاولت الا أفكر بهبى وحولت نفسي باتجاه آخر، باتجاه الاولاد وزوجتي، لقد اشتقت إليهم فعلاً وسأفرح بهم، وهبى سأشتاق اليها حتماً، وسأعود إلى باريس وألقاها من جديد وأعيش معها فترة جميلة. والحل هو أن أقسم أوقاتي بينها وبين عائلتي بشكل لا يزجع أحداً، لا زوجتي ولا الأولاد ولا هبى. سأعرف كيف أتصرف مع كل واحد منهم.

استفقت باكراً. اتصلت بهبى هاتفياً وطلبت منها أن نلتقي قبل سفري. كانت باردة واجاباتها قصيرة: "لا، أفضل أن أبقى وحدي هذا اليوم"، هذا هو كل ما قالته، وحين استودعتها قائلاً: إلى الاسبوع القادم"، أجابتني بلجهة ناشفة: "سنرى".

أقفلت سماعة الهاتف توجهت إلى نيس. خيل إلي أن هبى جالسة إلى جانبي في السيارة، أحاورها وأعيش معها أمتع اللحظات. كنت أحاول إقناعها بأني لها وحدها، وأن حياتي العائلية لن تغير شيئاً من طبيعة علاقتنا. ولكن هل هذا القول صحيح؟ فإذا استطعت إخفاء الموضوع عن زوجتي فكيف سأستطيع إخفاء علاقتي بزوجتي عن هبى؟ وهل ستصدقني إذا قلت لها أن لا علاقة لي مع زوجتي، هذه، التي إذا اردت إخفاء الامور عنها وجب علي ترسيخ علاقتي بها أكثر من السابق؟ سأحاول المستحيل لكي أحافظ على هبى، إني أحبها ولا أكذب علي نفسي وعليها في هذا الموضوع. فكيف المحافظة على هذا الحب؟

كنت ما زلت أسائل نفسي حين وصلت الى نيس ودخلت الشقة التي استأجرتها منذ يومين. اتصلت بهبى، لم أجد تجاوباً. أصبحت وحدي، فانهالت علي الاسئلة من جديد، كات تتساقط على رأسي كأنها مطارق حديدية. ضاق صدري وما عدت قادراً على المكوث وحدي، نهضت بسرعة وتوجهت إلى بيت أحد الاصدقاء. سهرت عندهم إلى ساعة متأخرة، ولم أعد إلى البيت إلا وقد هدني النعاس، فاستلقيت على فراشي وغصت في النوم، المنقذ الوحيد لارتباكي.

-30-

افترقنا وعدت إلى ذاتي احاسبها واحاورها، هل انتهت علاقتي بهاني؟ عليها أن تنتهي، فأنا لا اقبل بوجود إمرأة ثاني، وبالتحديد لا أقبل بوجود جسد إمرأة أخرى قرب جسدي. حين قلت ذلك لنفسي شعرت كأن جسد زوجة هاني -التي لا أعرفها- يلاصق جسدي، فإنتفضت وقررت القطع، فأنا لست سحاقية! مع العلم أني لا أتخذ موقفاً "أخلاقياً " من الموضوع. فإما أن يكون هاني لي وحدي، على صعيد الجسد، أو ينتهي كل شيء بيننا! علاقة من هذا النوع لا تعيش أطول مما عشات. عمرها الآن هو حوالي الثلاثة أشهر، وهذا يكفيها. ان علاقة الجسد كنار القش، تشتعل بسرعة وتنطفىء بسرعة، هذا هو منطقها على ما يبدو. ولكن علاقة هاني بزوجته بدأت بالجسد واستمرت وهما الآن يشكلان عائلة ككل الناس. علاقة "عمر بانغرد" [3] قامت على الجسد واستمرت وهما الآن معاً يشكلان عائلة ايضاً

[3] - ورد ذكره في السيرة الاولى

ويعيشان كما يعيش كل الناس المتزوجين. هل كانا يكذبان علي عندما أخبراني، كل بدوره، أن علاقته مع شريكة حياته بدأت بالجسد فقط؟ حتما كانا يكذبان. كذب عمر لاستعادتي اليه من جديد وكذب هاني لاستمالتي اليه. رفضت الأول لأنني لم أستطيع تقبل خيانته لجسدي، أما الثاني فقبلته وأنا أعلم أن له علاقة ثانية، أي أنه متزوج ويعش مع زوجته. لماذا أرفضه الآن واشعر بالاهانة إذا عدت اليه؟ هل هذا يعني أن للجسد عنفوانه وكبرياءه؟ في هذا الموضوع يتضخم مفهوم الجسد ليستغرق الشخصية كلها ولا يعود له لغة خاصة، تبصح لغة الانا الواعية. أنا هي التي تفرض هاني الآن وليس جسدي، جسدي أبله، ينساق وراء شهواته وميوله، وإذا ترك لذاته، عاد إلى جسد هاني الذي يستهويه حقاً. ولكنني أرفض هذه العودة إذا لامس جسد هاني غير جسدي. سأقمع جسدي وأرغمه على الطاعة.

كنت قد قررت منذ البداية أن اترك جسدي ينساق مع منطقه، أن يقول لغته كما ادعيت سابقاً. ولكن لغة الجسد عاهرة وليس لها ضوابط. هل أدخل، هنا،في التقييم الاخلاقي؟ ربما! إذ ما معنى الضوابط إن لم تكن تلك السدود التي يضعها المجتمع والتقاليد أمام شطحاتنا وميولنا وغرائزنا وصبوتنا وعفويتنا؟ إني أرفض الاخلاق التقليدية ولكن هل يعاش بلا ضوابط؟ لا! ولكني أنا أختار ضوابط سلوكي، يعني أني أترك لعقلي أن يوجهني ولا استمد احكامي من الافكار المسبقة والكليشيهات الجاهزة والقوانين المكتوبة. لقد عشت في مجتمعي، ومن الطبيعي أن يكون أثر هذا المجتمع في صنع وتكون تفكيري وعقلي ومبادئي ومقاييسي ولكني أشعر أني أملك هامشاً صغيراً من الاستقلالية –الفردية طعباً- التي تمكنني من الحكم على مكتسباتي، وبالتالي أن أختار منها ما أراه صحيحاً وأرفض ما اراه خطأ. وما أراه الآن هو قناعتي بألا أقبل بالمشاركة إطلاقاً، من دون أن ارفض العلاقة الحرة. وسينقاد جسدي لهذه القناعة رغم أنفه، وإذا تمرّد علي،أعرف كيف أطوعه! إرتحت لهذا القرار وحاولت تجميد الموضوع إلى أن أقابل هاني من جديد وأحسم أمري معه.

في اليوم التالي أتصل بي:
-حياتي أنا مشتاق إليك وانتظر موعد لقائنا بفارغ الصبر.

لن أحسم الموضوع على الهاتف سأواجهه حين يعود، إذا عاد، وإن لم يعد فلا داعي للكلام إطلاقاً.

-هاني، إجبته، ارترك الكلام إلى حين نلتقي، هذا إذا التقينا لاحقاً، ودعني الآن لنفسي.

-كما تريدين، إلى اللقاء.

-31-

هبطت الطائرة في مطار نيس. كنت أراقب قدومهم. أطلوا، وركض الاولاد إلي، عانقوني، فرفعتهم إلي وقبلتهم بحنان وشوق، ثم أعدتهم إلى الارض، قبلت زوجتي التي بدت متعبة، لتفهمني بأن المسؤولية التي تحملها وحدها في غيابي كانت كبيرة.

وصلنا البيت. كنت قد احضرت لهم الطعام. جلسنا حول الطاولة وأخذ الولدان يخبراني عن كل تفاصيل حياتهم وإقامتهم في مصر. أما هي فكانت صامتة تصغي إليهما وتبتسم؛ لدينا كل الوقت للكلام وغيره حين ينامان.

دخلا غرفتهما بعد أن استحما وبقيت وحدي معها، فقالت:

-أنا متعبة وأريد الاستلقاء. هيا بنا إلى غرفتنا. ثم وقفت وتوّجهت نحو الغرفة. بقيت أنا في مكاني. وصلت إلى باب الغرفة واستدارت نحوي قائلة:

-ما بك؟ تعال!

-إذا كنت متعبة سأتركك تنامين.

-لست نعسانة، أريد التمدد فقط.

أربعة أشهر تفصل بيننا. ثلاثة منها مع هبى، مع إمرأة أخرى! فكيف سأواجه الآن؟

-من الافضل أن تأخذي حماماً ساخناً، فيتحلحل كل التعب. قلت لها ذلك كي أحضر نفسي، كي أكسب بعض الوقت.

-هذا ما سأفعله A bientôt، قالتها بغنج، ودخلت الحمام. ربما فهمت من كلامي أني أطلب منها أن تهيىء نفسها للسرير! فلتفهم ما تشاء.

حين توارت عن نظري، أتيت بزجاجة وسكي وأخذت أشرب منها مباشرة. كنت قد شربت كمية لا بأس بها حين خرجت تلف جسدها بمنشفة صغيرة، رمتها على الارض، استلقت على السرير ونادتني. دخلت، خلعت ثيابي ببطء وأتيتها. كانت مهتاجة جداً، ضمتني إليها فقبلتها وحين بدأ جسدي يتحرك، أطفأت النور. غابت عن نظري وحضرت كالعادة صور كثيرة في خيالي. نسيتها تماماً وتعاملت مع جسدي كأنني أمارس العادة السرية. انتشت هي بسرعة، وهذا دليل على حرمانها كل فترة فراقنا. حاولت الانتهاء بسرعة لاظهر لها أني حرمت نفسي أنا

أيضاً مثلها، ولكن للجسد مزاجية تختلف عن أرادتنا. أعدت المحاولة مرات، ولكما حاولت خانني جسدي. ولكنها انتشت مرة ثانية وثالثة، بعدها قالت:
-وانت خلص، أنا تعبت وأريد ان أنام.
-حين سمعت هذا منها، تلاشى جسدي وأتى القذف ببطء فانسحبت منها، أسرعت إلى الحمام. اغتلست وعدت إليها. قبلتها وقلت لها:
-سأتركك تنامين وأكمل سهرتي على التلفزيون حتى أنعس. فتحت التلفزيون وغفوت على الكنبة.

بعد أيام قليلة تركز وضعنا. أصبح الأولاد يذهبون كل صباح، إلى المدرسة "بالاوتوكار" ويعودون بعد الظهر وأصبحت زوجتي تخرج لزياراتها وحلاقها واصحابها. عادت حياتنا إلى ما كان مألوفاً بيننا قبل إنفصالنا الاخير. كنت أتصرف وكأن لا شيء يشغلني، ولكن هبى كانت دائماً في ذهني. وكلما خلوت بنفسي أستعدت كل لحظة قضيتها معها. وكلما ذهبت وحدي الى السوق لشراء بعض الاغراض، اتصلت بها لأعبر لها عن شوقي وأعدها بعودتي السريعة.

وحين أشرف الاسبوع على الانتهاء، خططت في رأسي لبرنامج طويل مع العائلة، ذهبنا أولاً إلى مكان مخصص للأولاد؛ واشتريت لهم ألعاباً عديدة، ثم قدمت فستاناً جملاً إلى زوجتي ودعوتهم بعد ذلك إلى السينما ثم تناولنا العشاء في أحد المطاعم وعدنا فرحين إلى البيت.

نمت مع زوجتي كالعادة، تلك الليلة، وبعد أن أنتهينا تمددت بالقرب منها وأخذت أتكلم بصوت منخفض كأنني أحدث نفسي:" علي أن أتخلص من الشقة في باريس فلا داعي للاحتفاظ بها، ومن الافضل أن يتم ذلك بأسرع وقت ممكن". فأجابت: "طبعاً! لا حاجة لنا بالشقة هنالك. إذهب غداً وأنه الموضوع بسرعة".
-وهو كذلك فهذا ما أفكر به ولكن لا أدري كم يحتاج الأمر من وقت.
-إذهب بالقطار إذا، أنا أحتاج إلى السيارة هنا.
-لا مانع عندي، وعلى كل حال، فكرت مثلك. فأنت لا تستطيعين البقاء من دون سيارة، ولا حاجة لي بها في باريس حيث المواصلات سهلة بواسطة الميترو والاتوبوس. اتفقنا على هذا البرنامج ونمنا.

-32-

-"هبى أنا في محطة القطار في نيس وسأصل باريس حوالي الساعة الرابعة بعد الظهر. هل تنتظرينني في المحطة... أو نلتقي عندي في البيت؟

كان قد مضى أسبوع واحد على فراقنا حين قال لي ذلك على الهاتف.
-سأنتظرك في المحطة، أجبته. الى اللقاء.

لماذا القطار وليس السيارة؟ الموضوع ليس مهما، فقرار العودة بعد أسبوع تماماص يعني أنه جدي وصادق في علاقته معي. ولكن لن أستغرق في التفاؤل، عل الغيب يخبئ لي مفاجأة غير سارة. في مطلق الأحوال أنا جاهزة لكل الاحتمالات، الاستمرار أو الانفصال، فكلاهما واحد بالنسبة إلي. هل هذا صحيح؟ ليس تماماً لأنني كنت في قرارة نفسي أود الاستمرار، فهل هذا يعني أني أحبه؟

أتى القطار ونزل الركاب وإذا بهاني يحمل حقيبة ويسرع لملاقاتي. كنت على الرصيف غارقة في ذاتي، اقترب مني وتعانقنا، هو بشوق كبير وأنا بحذر ظاهر. ولحذري أسباب معروفة، لقد نظرت إلى هاني، فلم أستطع رؤيته وحده، كان بالقرب منه، ملتصقاً به، جسد إمرأة أخرى. لم يسبق لي أن تخيلته هكذا. لقد دخلت زوجته المسرحية ولا يمكن تجاهلها بعد الآن. فأنا، وعلى الرغم من استسلامي للمغامرة، لا أرضى ولا أسمح بوجود إمرأة أخرى في علاقتي برجل ما. كنت متيقظة، أحضر نفسي للابتعاد عن هاني إذا تحققت من ظهور زوجته الفعلي، وذلك على الرغم من كل الأسى الذي سأعاني منه. شعرت تلك اللحظة إني أعشقه، ولكن لن أترك للعشق أن يذلني.

أما هاني فلم يتركني على حالي من الحذر والترقب، وكأنه علم بما يدور في رأسي، وعندما وصلنا إلى شقته، تخلص من حقيبته وجلسنا كل واحد منا ينتظر الآخر أن يعبّر عن شوقه. وحين طال صمتي قال هاني!
-هبى صديقيني، اني لا أستطيع العيش بدونك. كنت أقول هذا الكلام قبل سفري إلى نيس وعودة العائلة، أما الآن فأنا متأكد مما أقول وقد لمسته بيدي وبكل جوارحي.
لم أجب للحظة ولكني لم أقدر على السكوت طويلاً فسألته:
-كيف كان اللقاء؟
-استقبلتهم في المطار وذهبنا إلى البيت بكل بساطة.
-استقبلتهم؟ اليس بالعناق؟
-طبعاً، قبلت الاولاد، كنت مشتاقاً إليهم.
-وهي؟
-قبلتها بسرعة، أمام الاولاد، واصطحبتهم إلى السيارة. كان الاولاد يسيرون إلى جانبي وهي تسير وراءنا.

-وصلنا إلى البيت وكنت قد أحضرت لهم العشاء، فتناولناه وأخبروني عن إقامتهم في ...
-وأنت أخبرتهم، طبعاً، عن إقامتك في باريس!
-كنت فرحاً بالاولاد وبقصصهم الصغيرة المرحة. كنت أسألهم وهم يتبارون بالرد والاخبار.
-وبعدها؟
-بعدها ذهبوا إلى النوم.
-ودخلت أنت مع زوجتك إلى غرفتكما... إلى سريركما.
-لا! صديقيني ! لقد دخلت هي إلى غرفة النوم وبقيت وحدي في الصالون، وحين طال مكوثي في الخارج، عادت إلي وجلست بالقرب مني، وحاولت بشتى الطرق أن تستثيرني ... كنت كالجليد حقاً. يا هبى، لم أشعر بشيء تجاهها، وجسدي كان في شبه انحلال. وقعد عدة محاولات فاشلة من قبلها، غضبت وعادت إلى غرفتها، وبقيت أنا في الصالون. لم أستطع النوم ليلتها، فجلست وحاولت أن أبصر بالورق، وما هو إلا وقت قصير حتى خرجت من الغرفة، والتوتر باد على وجهها وكل حركاتها، اطفأت النور في الصالون وخبطت الباب وقالت: "إذا لم ترد أن تنام فأنا اريد النوم والضوء يزعجني". وعادت إلى الغرفة، فاستفاق الاولاد وسألوا عما يحدث فطمأنتهم قائلاً بأن الهواء هو الذي أغلق الباب وأحدث الضجة، فعادوا إلى النوم وبقيت أنا، حتى الصباح مستلقياً على الكنبة، أفكر بما سأفعله... كنت، يا هبى محور تفكيري ... وحين أتى الصباح، استفاق الاولاد، فاشغلت نفسي بتحضير الفطور لهم وتجهيزهم للذهاب إلى المدرسة. وهي لم تخرج من غرفتها. تركنا البيت ولم نعد إليه إلا عند فترة الغداء، وكنت واثقاً أنها لم تحضر طعاماً، فدعوتهم إلى المطعم ولكنها رفضت وقالت إنها ستزور بعض الاصحاب. وهكذا عدنا وخرجنا من جديد، الاولاد وأنا وحدنا.
-وبعدها؟ سألته.
-بعدها؟ أمضينا الاسبوع على هذه الحالة، والجو أصبح لا يطاق في البيت. كانت هي شبه متأكدة أن لي علاقة في الخارج، ولو سألتني لقلت لها الحقيقة، ولكنها لم تفعل، وأنا أيضاً لم أبح بأي شيء لانها إمرأة فضوحة، كما قلت لك سابقاً، وبإمكانها أن تهمل الاولاد وتعذبهم لتثأر مني، وأنا لا أريد ذلك.
-ألم تحاول أن تجرك معها إلى السرير مرة ثانية؟
-حاولت في اليوم الثاني، وهنا أقر لك بكل صدق، لو استطعت لفعلت لانقذ جو البيت، ولكني أعترف لك أنني لم أستطع ولهذا السبب تحول الجو إلى جحيم.
فرحت بأخباره هذه ولو أن الشك في كلامه وصدقه، كان ماثلاً في رأسي. ولكني حاولت إبعاده أمام إصراره على تأكيد ما رواه لي. كنت ميالة إلى تصديقه

لأن ذلك يريحني، ثم كيف لي أن أتأكد من كلامه؟ لا أملك أية وسيلة لذلك. الإنسان ينزع دائماً إلى تصديق ما يناسبه حين يكون واقعاً في الحيرة. وهكذا اخترت أن أصدقه لأن كلامه كان يرضي عزة نفسي وكبريائي.

-33-

وجدت نفسي اكتشفها من جديد حين جالت يداي عل كل جسدها. كنت أتحسس كل تفاصيله واستداراته ونعومته. إنه يختلف كلياً عن جسد زوجتي، الملمس يختلف والرائحة تختلف والانفعالات تختلف، حتى أني لم أعد أتمالك نفسي فأخذت أحدثها عن جسدها وأصفه بدقة وأطيل الوصف للأماكن المثيرة فيه، وحين قلت لها أخيراً أنها تختلف عن كل النساء، أجابت:

-ما بك؟ وكأنك تتعرف على جسدي للمرة الأولى.

فأجأني تعليقها ولكني أجبتها بسرعة:

-هبى، في كل مرة نلتقي أشعر كأني أمام إمرأة جديدة!

-هل هذا مديح أم ...

-حتماً. وهنا سرّ المرأة الجذابة والمثيرة حقاً! أن نشعر معها كما أشعر أنا كل مرة معك فهذا دليل على الحب المتوقد لها. وحبي لك لن ينطفئ أبداً. أنا ذاتي أستغرب هذا الشعور عندي. هل أنت تشعرين مثلي؟

-34-

لم أكن في مثل حالته التي ما عدت أعرف إن كانت تدل على الصدق أو على التمثيل والتضخيم لإخفاء شيء ما. لكن الغريب في الامر الآن هو أنني كنت، وأنا امارس الجنس معه، أرى نفسي اراقبه يمارس الجنس مع إمرأة أخرى غير محدودة المعالم تماما، وذلك كان يثيرني. ما هذه الهوامات الجديدة؟ وما هذا الانفصام العنيف بين منطق الفكر ومنطق الجسد؟ كنت مصممة على الانفصال عنه لو تأكدت من ملامسة جسده لجسد إمرأة ثانية، فما بي يثيرني هذا المنظر المتخيل وأنا معه في السرير؟ غريب عالم الجنس وغريب حقاً منطقه وغريبة آليته.

-35-

من أين أتاني الكلام وأنا معها وكيف ترتبت الاحداث في فكري بهذا الشكل؟ هل أقنعتها فعلا بما قلته لها وبأني لها وحدها؟ لو لم تقتنع لما بقيت معي، أنا أعرف شخصيتها جيداً. هي، إذا، مرتاحة لما أخبرتها، وهذا يمهد لي الطريق لمغادرتها من جديد والذهاب إلى نيس من دون مشاكل، هي لا ترفض أن أهتم

بالاولاد وبخاصة الآن بعد أن اعتقدت، أو جعلتها تعتقد، أن زوجتي ستهملهم بسبب سوء علاقتنا. سأعود إليهم بعد أن أكون طمأنتها نهائياً وأخرجت من رأسها أي شك حول الموضوع.

مكثت عشرة أيام في باريس، معها. بذلك كل جهدي كي أشعرها بأني لأ أفكر إلا بها. وخلال هذه الفترة أنهيت ترتيبات الشقة من دون علمها وافترقنا من دون خصام، وعلى أمل اللقاء بعد أن أكون قد أمنت خادمة لتهتم بشؤون الأولاد في فترات غيابي عنهم.

-36-

حين عاد هاني إلى نيس استأنفت البحث عن عمل في باريس، فلم افلح. وفي يوم من البحث الطويل بلا فائدة، عدت الى البيت محبطة. كان يوسف ينتظرني، وحالته لا تختلف عن حالتي. لقد تركنا بلادنا هرباً من الحرب وها نحن الآن في وضع لا نحسد عليه من احباط وشعور بالغربة والوحدة. كنا في لبنان معززين مكرمين، وإذا بنا هنا هامشيان، لا أحد يهتم بنا، إننا وحيدان نكد ونعمل، ولكن من دون جدوى ولا نتيجة.

تباحثنا في الموضوع قليلاً، مهزومين كنا. ولكن يوسف قال:

-إني أفكر جدياً بالسفر إلى الولايات المتحدة لأكمل اختصاصي هناك، فما عدت أطيق جو المستشفيات في باريس. إنهم لا يسمحون للمتدرب بأي عمل سوى المراقبة، وهكذا فإنه لا يتعلم شيئاً... سأحضر الامتحانات المطلوبة للسفر، وسأقدم الطلبات اللازمة، وإذا قبلت سأذهب لا محالة.

-وأنا لم أجد عملاً حتى الآن، أجبته. ولا أدري ماذا سأفعل. ربما عدت إلى لبنان... لست أفضل من غيري من المقيمين هناك في الرعب والخوف. سأعود ولتأت الايام بما تريد.

وإتفقنا أن نترك باريس، كل منا في سبيله.

وحين أتصل بي هاني، في اليوم التالي، أخبرته بقراري. فصمت قليلاً ثم قال:

-ماذا نستطيع أن نفعل الآن في لبنان؟ أجابني وكأن قراري يطاله هو أيضاً.

-قلت سأعود إلى لبنان فما بك أنت؟

-لن أتركك بعد الآن، ألم تفهمي بعد؟

-ولكن الاقامة في باريس مكلفة جداً، ويوسف قرر السفر إلى اميركا، والشغل يبدو صعباً جداً، فما العمل؟

عاد إلى الصمت الذي لم يطل وقال بعده:

-لدي إقتراح فهل توافقين؟

-وما هو الاقتراح أولا؟

-أليس من الأفضل لك أن تذهبي إلى لندن وتتسجلي في مدرسة لإتقان اللغة الانكليزية. لقد لاحظت أن كل الاعمال تتطلب هذه اللغة وأنت لاحظت ذلك، وقد تباحثنا في الموضوع سابقاً. فإن قبلت اقتراحي تتقنين اللغة المطلوبة وتصبح هكذا إمكانية العمل أسهل، هذا من جهة، أما من جهة ثانية فتكونين قريبة مني، المسافة بين نيس ولندن ليست كبيرة وبإستطاعتي أن أمضي معك كل "ويك اند". وها إن أعياد الميلاد ورأس السنة قد اقتربت فإمضيهما معك أيضا.

فكرت في الموضوع، وكنت أفضل عدم العودة إلى لبنان، حيث لا بيت لي هناك وحيث أن عودتي تعني العيش مع الآخرين والهرب من ملجأ إلى ملجأ. فكرت بصمت: "لا أريد العودة إلى لبنان، ولكن ماذا سيحل بي في لندن، وها هو يقترح أن يمضي معي "الويك أند" فقط. هل سأتحمل الوحدة هناك؟ في باريس كنت مع يوسف. ولكن اقتراح هاني، إذا جرد من أية غاية، فإنه معقول وجيد وهذه فرصة يجب الافادة منها". حسمت الامر وقررت الذهاب إلى لندن لدراسة اللغة الانكليزية التي لمست ضرورة امتلاكها، من خلال البحث عن عمل، أو حتى لأتقانها هي بحد ذاتها. وهكذا اتفقنا على اللقاء في لندن.

-37-

اخترت لنا لندن لأنها مقر رئيس الشركة التي كنت أعمل فيها في لبنان، وهذا يسمح لي بأن أزورها بحجة العمل من دون أن تشك زوجتي بشيء. وحين جلست في المساء مع زوجتي قبالة التلفزيون بعد أن نام الاولاد، قلت لها وأنا أمسك يدها:

-حبيبتي، الحياة غالية في فرنسا وعلي أن أعمل وإلا ما استطعنا البقاء في نيس لمدة طويلة.

-طبعاً حبيبي، ولكن ماذا تستطيع أن تعمل هنا؟

-هنا؟ من الصعب. لقد بحثت عن عمل في باريس ولم اوفق لأن العمل الذي بإمكاني القيام به يتطلب رأس مال كبيراً، وهذا من الصعب توفيره في الوقت الراهن. ثم صمت كأنني أفكر في الموضوع. وافتعلت ابتسامة مفاجئة وتوجهت إلى زوجتي قائلاً:

-ما رأيك لو قابلت السيد.... في لندن وعرضت عليه وضعي ربما أستأنفت العمل معه. ورما أن لشركته فروعاً كثيرة، فقد يعينني في فرنسا، أو حتى في نيس بالذات.

فرحت زوجتي لهذا الاقتراح، وحضرت لي حقيبة السفر وتركتها بعد أن أشبعت جسدها ومتطلباتها كما ينبغي. كنا على بعد اسبوع واحد من عيد الميلاد.
-لا تتأخر، قالت لي، تعرف أن الاسبوع القادم هو أسبوع أعياد أم نسيت ذلك؟
-لا ما نسيت سأكون هنا قبل الميلاد حتماً.

-38-
استفسرت عن الموضوع قبل سفري فتبين لي أن مدرسة الـ "ال. تي. سي" تبدأ دروسها في مطلع السنة وأن التسجيل يتم فيها الآن قبل الاعياد، وهذا ما كنت أريده فعلاً؛ أذهب الآن إلى لندن أسجل نفسي في المدرسة، أمضي فترة الاعياد مع هاني ثم أباشر دراستي.

حين إلتقينا في لندن، توجهنا إلى شارع أوكسفورد حيث مبنى المدرسة. قابلت المسؤولين وسجلت نفسي بعد أن أخضعت لامتحان صغير حدد بعده المستوى الذي سألتحق به عند بدء الدروس.
بعد إتمام المعاملات هذه، سألتني إحدى السيدات هناك:
-أين تسكنين؟
-لا أدري، لم أبحث الموضوع بعد.
-سأساعدك إذا أردت. هل تفضلين السكن مع عائلة انكليزية؟
-لا ! أفضل أن أكون مستقلة.
-إذا هناك إمكانية السكن في "رزيدانس" المدرسة.

مر في ذهني، وبسرعة، ايام "الداخلي" في المدرسة في لبنان فإبتسمت وقلت لها:
-أريد الاستقلال، لا الحبس!
ضحكت بدورها وأجابتني:
-الرزيدانس كالفندق ولكنه يؤمن لك الطعام والمنامة ولا يقيد حركتك إطلاقاً. هو مخصص للفتيات فقط. وأسعاره مدروسة كي تلائم ميزانيات الطالبات.
-سنرى، أجبتها. ثم شكرتها وانصرفت.

عرضت الموضوع على هاني وتم إختيارنا لغرفة في الرزيدانس وأنهينا الموضوع بسرعة. وهذا ما ساعدنا على التحرر والتمتع بأجواء لندن على هوانا، حيث عرفني هاني على أصحاب له في المدينة. زرناهم في مكتبهم، واختلى هاني مع المدير لفترة، عاد بعدها إلي فرحاً كأنه حقق نصراً معيناً. وأجابني حين سألته:

-بعد الاعياد، تذهبين أنت إلى المدرسة وأنا الى العمل! لقد وافق صاحب الشركة أن أستلم الفرع في نيس. والآن لنذهب إلى السوق أريد أن أقدم لك فستاناً جميلاً.

-39-

دخلنا مخازن "هارولد" وأخذنا نتجول في أروقتها وننتقل بين أقسامها حتى وصلنا قسم الملبوسات المخصصة للسهرة. أختارت فستاناً أنيقاً جداً وجربته. نظرت اليها وقلت لها: أنه جميل حقاً ولكن هل تسمحين لي بأن أختار لك ما أريد؟

كانت تثق بذوقي في هذا الميدان، فلم تمانع وتركتني أفعل. أستعرضت الفساتين واحداً واحداً حتى وجدت ما يقارب الصورة التي في مخيلتي. سحبته قائلاً: جربيه من فضلك.

فستان أسود طويل مصنوع من القماش الناعم الهادل مصنوع من القماش الناعم الهادل كالحرير. لم يعجبها للوهلة الاولى ولكني أصررت عليه وطلبت منها أن ترتديه، ففعلت وحين خرجت من غرفة القياس، نظرت إليها بإعجاب، كانت تماماً كما تخيلتها:

-أنظري في المرآة إنه رائع، قلت لها.

نظرت إلى نفسها في المرآة وابتسمت. كان الفستان يلتصق بجسدها تماماً. فتحة صدره بشكل رقم سبعة، تصل إلى ما بين النهدين حيث لا يظهر منهما إلا إيحاء صغير. أما فتحة الظهر فكانت تصل إلى الخصر تماماً. استدارة الاوراك بارزة منه بوضوح وهو ينساب حتى الكاحل وكأنه ذيل سمكة، وتسهّل عمليه التحرك فيه فتحة أمام الساق الأيسر تصل إلى أعلى الفخد. ومع كل ذلك كان فستاناً ذا أكمام طويلة حتى الكفين.

-هل يعجبك؟

-لكنه لا يلبس إلا في السهرات. أجابت، إنه مناسب جداً لسهرة الميلاد!

سهرة الميلاد! قالت، وسمعت نفسي أقول لزوجتي:

"سأعود قبل الميلاد حتماً. شعرت بالدوار للحظة، وبسرعة عدت إلى حاضري وقررت عدم تنغيص سهرة الليلة بموضوع سأجد له الحل لاحقاً. تجاهلت قولها وأخذنا الفستان وانصرفنا.

-40-

لا أدري لماذا كان هاني مرتبكاً. في غرفة الفندق، توجه فوراً إلى الحمام حيث "تدوش" وطلب مني، أن أحضر نفسي للسهرة. كانت الساعة السادسة تقريباً. سألته أن نرتاح قليلاً إذا أراد الخروج والسهر في المساء. قبل إقتراحي، واستلقينا على السرير، فقبلني بسرعة وقال مازحاً:

-أرجوك لا تلمسيني، فإن فعلت لا أعود قادراً على النوم لأنك تهيجين كل جسدي. سأدير لك ظهري لأن النظر إلى جسدك أيضاً، يوقظ جسدي.

-وأنت أيضاً لا تحاول. فلن أستجيب، أنا أيضاً اريد النوم.

صحوت على صوت هاني يقول لي: "حياتي، إنها الساعة التاسعة". فتحت عيني وإذا به بكامل ملابسه وجاهزيته.

-لماذا لم توقظني قبل الآن؟

-تحركت كثيراً في الغرفة، لم تستيقظي، وهذا يعني أنك كنت بحاجة إلى النوم فتركتك. والآن أنهضي وهيئي نفسك، سأنتظرك في "هول" الفندق. ارتدي الفستان الجديد والبسي "Collant" اسود شفافاً.

-وما المناسبة؟

-المناسبة، أني أعبدك! ألا يكفي هذا؟ قالها وانصرف. ولست أدري لماذا تهيأ لي أنه يتهرب من الكلام معي أو يهرب من مواجهة شي ولا يرغب في مواجهته. ربما لديه مشاكل، لا علاقة لي بها. وأنا أيضاً أمر في أوقات لا أريد فيها الكلام مع أحد ولا حتى مع هاني، أكون منكفئة على ذاتي تجول أفكار سوداء أو رمادية أو غبراء في خيالي، فأحاول العزلة. ربما كان هاني بحاجة إلى وقت يعود فيه إلى ذاته. ولكن هل هو أيضاً يخرج على ذاته حين يكون معي؟ هل كان منا يضع ذاته الواعية في البراد حين نلتقي؟ هل لقاؤنا يشكل العالم المحسوس، العالم الواقعي الذي تكلم عليه أفلاطون. أين الحقيقة إذا؟

ردني السؤال مباشرة إلى علاقتي الماضية حيث لقاؤنا كان يشكل الواقع الحقيقي. كنا نشعر أننا نعيش الحقيقة في كل أبعادها وكأننا في زمان بلا زمن وفي

مكان بلا حيز. هل انقلبت المقاييس إلى هذا الحد؟ وما الجدوى من التحليل. لقد انهزم عالم الحقيقة. والمنتصر الآن هو الوهم. فلنعش النصر وهما!

دخل هاني. كنت ما زلت أتبرج وأجمل نفسي. جلس على حافة السرير يراقبني بصمت. وحين ارتحت إلى منظري وتأنقي، استدرت نحوه وسألته.

-هل نذهب؟ أنا جاهزة.

-وأنا جاهز. ثم أخذ معطفي وباشر بوضعه على كتفي. وطرق الباب.

-أدخل، قال هاني، وهو ما زال يلبسني المعطف.

فتح الباب وإذا بأحد العاملين في الفندق يدخل تتقدمه طاولة تكرج على عجلات صغيرة وعليها أنواع مختلفة من الطعام والمشروب. نظرت اليه مستفسرة. فأجابني وهو يبتسم: "سنتناول العشاء هنا".

-إنك ممثل رائع! لماذا تركتني أحضر نفسي للخروج؟

-لأنني أريدك بكامل أناقتك وجمالك لي وحدي.

رفع المعطف عن كتفي ورماه على السرير. كان الخادم قد أوصل الطاولة إلى منتصف الغرفة وإنسحب.

-41-

حين رفعتُ المعطف عن كتفيها ورميته على السرير، ظهرت تلك المرأة، في فيلم الفيديو الذي يثيرني جداً، تماماً كما هي هبى الآن، شعرها مرفوع ومصفف بإتقان، تناسب منه خصلات دقيقة تداعب العنق ورؤوس الاكتاف. شفتاها مطليتان باللون الكرزي الحار، وعيناها كغابة خضراء تنظر منهما إلى كظبية لعوب. قامتها ضامرة ونحيلة، تميل كلما تحرك كغصن تداعبه نسمات ناعمة. أما ساقها اليسرى المغلفة بالسواد الشفاف فكانت تأخذني إلى عالم من الخيال الساحر كلما ظهرت من فتحة فستانها.

-هل أنت سعيد مثلي؟ سألتها.

-إني لا أفكر بالسعادة الآن. هل انت سعيد حقاً؟

-إني في قمة السعادة، أجبتها وأنا أضمها إلى صدري قبل أن تجلس إلى الطاولة.

سكبت الخمر في الكاسات ورفعناها نشرب نخب سعادتنا. قدمت لها كأسي فشربت، وفي الوقت نفسه قدمت لي كأسها فشربت.

كنت أشرب بنهم وهي تشرب بتأن. إنها لا تحب الكحول إجمالا.

-لماذا لا تشربين مثلي؟ إشربي وإفقدي وعيك ولو للحظة.

-أنا معك فاقدة الوعي تماماً. ولست بحاجة إلى المشروب.
قالت ذلك بنوع من الأسى. ولكني تجاهلت هذه الناحية واعتبرت ما قالته اطراء، وضعت يدي على ساقها البارزة من فستانها وأخذت أداعب ركبتها. فابتسمت وقالت:" هل ما زالت ركبتي تعجبك؟".
-كل ما فيك يعجبني. ولكن يا هبى، لم تخبريني شيئاً عن حالك وعن ماضيك. لقد أدليت بكل ما عندي أمامك منذ أن ألتقينا. كنت، دائماً، مستمعة، والآن تكلمي سأكون أنا المستمع. ترددت قليلاً، رفعت كأسها وشربت جرعة صغيرة، تنحنحت وقالت:
-ليس لي ماض حافل كماضيك، وليس فيه ما يهمك أمره. قضيته في الدراسة والقراءة و...
-لا أسألك عن هذه الناحية، اخبريني عن علاقاتك قبل أن نلتقي.
-علاقاتي؟ ليس لي علاقات عديدة. أول علاقة هي الزواج و...
-هل لي أن أعرف لماذا طلقت؟
-طلقت لأن الطلاق بيننا كان حقيقة كما هو الحال بينك وبين زوجتك فحولته إلى واقع.
-ماذا تقصدين؟
-بكل بساطة، لم يكن بيننا لقاء ولا على صعيد، فأتى الطلاق نتيجة طبيعية للوضع الذي كان قائماً.
-وبعد الزواج؟ كنت أود أن تقول لي: "لا شيء" حتى اشعر أنها لي وحدي ولم يلمسها أحد قبلي. ولكنها صمتت وغرقت في ذاتها. ثم أخذت تشرب بنهم. أشعلت سيجارة وسحبت منها بعنف وأخذت تنفث الدخان بهدوء من فمها وكأنها تتنهد.
-وبعد الزواج، إذا، ماذا حصل؟ سألتها.
-بعده عشت حباً كبيراً. وعادت إلى صمتها، ثم تابعت: لماذا تسألني عن الماضي؟ إني لا أحب العودة إليه!
-وهل كان يحبك كما كنت تحبينه؟
-اعتقد ذلك.
-وكيف انتهت علاقتكما؟
انتهت! هذا كل شيء.
-واذا عاد، فهل تعودين إليه؟
-لن يعود. لقد انتهى الموضوع.
-لو كان يعشق جسدك كما أعشقه أنا لما تركك تفلتين من يده.
ضحكت ضحكة صفراوية وقالت:

-لم يكن الجنس محدداً أساسياً لعلاقتنا. كان اللقاء بيننا على صعيد آخر. كان التماثل بيننا كبيراً جداً إلى درجة أننا كنا نقرأ بعضنا كأننا نقرأ كتاباً مفتوحاً. والجنس كان يأتي نتيجة وتتويجاً لهذا اللقاء الفكري بيننا. واللقاء الأخير كان يشعرني بنشوة تضاهي إن لم تكن ألذ وأمتع من نشوة الجنس.
-لهذا السبب فرطت العلاقة. لا شيء يربط المرأة بالرجل مثل الجنس!

دنوت منها وقبلت شفتيها ومصصتهما حتى زال الصباغ عنهما ومددت يدي إلى شعرها وحللت رباطه، فإنساب على ظهرها كشلال من ذهب. عبثت به بيدي وأنا أرشف ثغرها ووجهها وعينيها بقبلات هادئة.
-إنك تخدرني.

نهضت وأخفضت النور حتى تحول جو الغرفة إلى ما يشبه الغسق. أدرت الراديو على موسيقى ناعمة، اقتربت من هبى أخذت يدها وبعد أن وضعت قبلة على بطن كفها مددت يدي الأخرى إلى خصرها وجذبتها إلي. وقفت، وضعت رأسها على كتفي، فضممتها إلى صدري وأخذنا نرقص. كانت مستسلمة تجاريني كيفما تحركت.

-42-

ألقيت جسدي عليه وسلمته أمري فأخذ يتمايل مع الموسيقى وأتمايل معه، يدي اليمنى في يده اليسرى ويده اليمنى تتحرك بشكل دائري على ظهري العاري. قبّل يدي التي يمسكها بيده، ثم تركها وطوق خصري بذراعيه، فما كان مني الا أن رفعت ذراعي حول عنقه، فالتصق جسدانا تماماً وتقابل الوجهان. رائحة الخمر التي تفوح من ثغره ممزوجة بذلك العطر الذي أحبه أثارتني، التصقت به أكثر وبدأت اشعر بتغيرات جسده. سحب ذراعيه من حول خصري، أمسك رأسي بين يديه، أماله قليلاً نحو اليسار وأخذ يدني وجهه من وجهي ببطء وعيناه تنظران إلى شفتي المشقوقتين، تريدان التهامهما، وظل يدني وجهه من وجهي حتى تلاصق ثغرانا. لم يقبلني بعنف كعادته، بل مرغ شفتيه على شفتي لفترة كأنه يتذوقهما لأول مرة.

شعرت أن شفتي استلمتا قيادة جسدي الذي امتثل تماماً، لهذه القيادة، حيث كل رعشة فيهما كانت تنتقل إليه وكأنه تحول كله إلى ثغر يتلظى نشوة ويطلب المزيد من تلك النار التي اضرمت في كل خلاياه.

حولني إلى جسد محض حين أخذ ينقل شفاهه على عنقي نقلات هي قبلات رقيقة تدرجت حتى جذع النهدين، ويداه كانتا ترافقانه في تحركه الهابط. اصبحتا على الكتفين حين أزاحتا طرفي الفستان عنهما، فارتخت ذراعي تلقائياً وتلاشت من حول عنقه وانزلقت متن الفستان عليهما وتجمع حول الخصر. رافق جسد هاني هذا الانزلاق، فانسحبت يداه على الكتفين وحين لامستا النهدين توقفتا لتعبث بهما حول رأسه الذي أصبح بينهما وهو راكع أمامي.

لم أعد أتحمل أكثر. ويبدو أنه هو أيضاً لم يعد يتحمل أكثر إذ أخذت لمساته تعنف شيئاً فشيئاً على كل جسدي الذي أصبح عارياً تماماً. ظللت أشعر به وبجسده إلى تلك اللحظة التي دنوت فيها من النشوة الجنسية حينها لم أعد أشعر الا بجسدي وحده. أصبحت جسداً يتخيل أو يتهوم. تحول هاني إلى أداة فقط. ولكنها أداة خفية وكأنها داخل الجسد. وأنتشيت فعلاً حين رأيت هاني يفترع إمرأة أخرى وكأنني أشاهد فيلماً برنوغرافياً مثيراً.

وأول سؤال وجهته إليه حين التقينا بعد هذا الغياب القصير؟

-هاني بماذا تفكر وأنت مغمض العينين تمارس الجنس معي؟

-بك طبعاً!

-لا أشك بذلك. ولكني أعني ما هي الصور التي تمر في خيالك؟

-تقصدين mes fantasmes ؟ كان لا يعرف هذه العبارة بالعربية.

-تماماً!

-أرى نفسي أضاجعك بعنف وشبق أمام جمهور كله من الرجال، الذين يريدون أخذك مني.

-وكيف تراني أنا بالذات؟

-أراك كما أنت. ماذا تقصدين بأسئلتك هذه؟ هل هو امتحان؟ وأنت ماذا ترين إذا؟

-أراك أنت طبعاً!

لم أقل له كيف أراه ولم يسألني أكثر. أكتفى بجوابي هذا وانتهى الموضوع بالنسبة إليه، خيث تبين لكل منا أن هواماته تدور حول شخص الآخر. كنا نكذب على بعضنا أو بالاحرى نكذب على انفسنا.

نام هاني وعدت إلى نفسي أسألها لأعرف أين أنا من كل ما أقوم به أين الحد الفاصل بين جسدي وبيني؟ وكيف يتم الانتقال عندي من طرف إلى الآخر، وما هو سر الانتقال ولماذا يستهويني؟

سبرت أعماقي وحاولت كشف كل أوراقي، على الاقل، أمام نفسي. كان جسدي، في تلك اللحظة مشبعاً ومرتاحاً، ومن المفروض ألا يكون له دور في حواري مع ذاتي. لكنه لم يصمت. وعند كل سؤال كان يتدخل ليقول لي: أنا أيضاً لي الحق بالمتعة، لي الحق بأن البي كل رغباتي وأن قمعتني سأغتال كل ملذاتك الأخرى، وإني لقادر.

-ولكنك تدمرها الآن! فهل أنت أداة تدمير كيفما تعاملت معك؟

-لا! إن عرفت كيف تتعاملين معي، أنقذتني وأقذت نفسك.

-علمني إن كنت تعرف.

-لي حق عليك، لا لسبب إلا لأنني موجود. فكما أنك تشبعين جوعي وعطشي، عليك ان تشبعي ظمأي إلى اللذة والمتعة!

-ولكنك نهم، كلما أعطيت طلبت المزيد!

-الا تعرفين لماذا؟

-...

-لانك زبلتني كل حياتك، وأتت فرصتي الآن لأنتقم منك ومن استهتارك بي.

-هل تثأر مني؟

-أثأر من ذاتي لذاتي؟

-أليس هذا انتحاراً؟

-كل نشوة هي غوص في العدم! والموت هو النشوة الكبرى!

-انت فيلسوف أكثر مما كنت أتوقع. من أين أتتك هذه الحكمة؟

-أنسيت أني خزان كل مكتسباتك ومعرفتك؟

-ولكنك بلا منطق، وإذا أفلت لك العنان تهورت.

-منطقي غير منطقك. والسؤال أيُّ المنطقين هو الصح؟

-إنك تبالغ في أحكامك وتتمادى في إدعائك. ألم تلاحظ ذلك؟

-الاحظ! والسبب أنني متعب وأريد الراحة.

-هذا ما طلبته منك منذ البداية. استرح واتركني لذاتي.

حين أرتاح ستكونين معي حتماً.

أسكته وحاولت العودة من جديد إلى ذاتي لأبحث الموضوع الذي بدأته، وطرح عندي، الآن، عل الشكل التالي: "ما هي علاقة الواقع بالهوام؟"

إذا عدت إلى الواقع الواعي، رأيت نفسي أغار وأرفض أن يلامس جسد هاني غير جسدي، حتى أني أغار إذا نظر إلى إمرأة أخرى بنظرة شهوانية، وكانت نظراته دائماً هكذا، إذ كنت أشعر، كلما نظر إليّ كأنه يعريني. فهل تشعر كل

الأخريات مثلي حين ينظر هاني إليهن؟ هل أن نظراته شهوانية حقاً أم أنا أحسها هكذا لانه يستثيرني؟

وإذا عدت إلى هواماتي التي ترافق ممارسة الجنس، وجدت نفسي أنها تطابق تماماً ما أغار منه وأرفضه في الواقع الواعي. إذا عناصر الغيرة في الواقع تشكل عناصر الاثارة في الهوام. كيف يتم ذلك؟ وماذا يعني؟

إذا كنت أرفض، في الوعي، كل ما يؤلمني، فهذا يعني أنني، في حالة الوعي، لست مازوشيه. وهذا ما أعرفه عن ذاتي إذ أنني أقرب إلى النرجسية.

في عالم الهوام تنقلب الآية، يعني أنني أصبح مازوشية حتى النهاية. وإذا كانت المازوشية نوعاً من التلذذ بتعذيب الذات وتدميرها يصبح إلغاء الذات هدفها الأخير. وحين تكون المتعة الجنسية من خلال الهوام عملية تلذذ بقهر الذات، كمن يلحس المبرد ويتلذذ بطعم دمهن فهذا يعني أن النشوة الجنسية، التي تلي وتختم التلذذ، هي بمثابة الغاء الذات، وهكذا تتحول النشوة الجنسية الى عملية انتحار بديل، نبحث عنه كلما عجزنا عن القيام بالانتحار الفعلي ونحن في حالة الوعي.

هنا، حتماً، تكمن علاقة الموت بالجنس! هذا ما توصلت إليه وأنا أصارع النوم في تلك الليلة. هل أنا على حق؟ هل أنا صائبة في تحليلي؟ وماهمني من الحق والصواب المطلقين! وهل هنالك من حق مطلق ؟ وهل هناك من صواب مطلق؟
واستسلمت لجسدي الذي أخذني في نوم عميق.

قبل عيد الميلاد بيومين، خرج هاني من الفندق باكراً وقال لي وهو يودعني:
-لن أتأخر، سأزور مدير الشركة لبحث بعض أمور العمل وأحجز لسهرة العيد. ثم أعود إليك ونخرج إلى حيث تريدين.

وعاد بعد ثلاث ساعات تقريباً. كانت بيده علبة صغيرة مغلفة بالورق المذهب ومربوطة بشريطة أنيقة. اقترب مني، ضمني إليه وقال:
-هذه هدية العيد. كان حزيناً حين قال ذلك.
-هدية العيد؟ ولماذا الآن؟
-هبى، لا أدري كيف أخبرك؟. ولكني مضطر إلى العودة إلى نيس.
-لماذا؟ هل وقع مكروه؟
-اتصلت بهم فأخبروني أن أبني الصغير مريض جداً ومحرور، وزوجتي لا تدري كيف تتصرف ولا بأي طبيب تتصل، وهي تفكر بنقله إلى المستشفى،

فوعدتهم بأني آت بسرعة. لا أعرف كيف أعتذر منك... ولكن لو طلبت مني البقاء لبقيت.

-هل أنت مجنون؟ صحة أبنك أهم من ألف عيد!

قبلني وقال: الآن إفتحي هديتك.

كانت الهدية خاتماً جميلاً. وضعه في إصبعي. فشكرته وسألته:

-متى تذهب؟

-سنذهب معاً إلى المطار بعد الظهر. تسافرين أنت إلى باريس، تقضين فترة عيد الميلاد مع يوسف، وأسافر أنا إلى نيس، ونلتقي من حديد هنا في لندن لتمضية سهرة رأس السنة. لقد اشتريت البطاقات وحجزت الأمكنة في الطائرات.

إبنه مريض ويفكر بسهرة رأس السنة؟ ثم كيف استطاع أن يشتري لي هدية وهو بهذه الحالة؟ هل يتهرب مني؟ هل هو صادق؟ ما عدت أعرف أين هي الحقيقة، ولا عدت قادرة على كشف الاشياء، فماذا أفعل؟

-خد وقتك، قلت له، ولا تحدد موعداً للقائنا. سأعود أنا إلى لندن بعد العطلة، حين تبدأ الدروس، ولدينا كل الوقت لأن نلتقي لاحقاً.

انفرج وجهه الذي كان ما زال عابساً. ضمني إليه، قبلني وهو يقول:

-سأعوض هذه السهرة وسنمضي أياماً ممتعة حين نلتقي.

لم أجب، حزمناً أمتعتنا، وقبل أن نغادر الغرفة ونتوجه بالتاكسي إلى المطار قلت له:

-اتصل بهم الآن لتطمئن على ابنك ولتقول لهم أنك ستصل بعد قليل.

-لا داعي، لقد اتصلت بهم صباحاً، وهم ينتظرونني.

"لماذا اتصل من الخارج؟ لماذا لا يتكلم معهم أمامي؟" كنت أسأل نفسي ونحن في الطريق وهو يمسك بيدي ويقبلها.

-43-

حاولت المستحيل ليكون موعد إقلاع طائرتها قبل موعد إقلاع طائرتي. لم أوفق. وهذا يعني أني سأغادر المطار قبلها ولن يكون لدي الوقت لشراء هدية لزوجتي، فماذا سأفعل؟

وصلنا إلى المطار باكراً وأخذنا نتمشى في أروقته في المنطقة الحرة. دعوت هبى لخدول أحد المحلات، وبعد أن عاينت اشياءه اشتريت العابا وملابس للأولاد.

كانت هي تساعدني في الاختيار. وهدية الزوجة؟ لقد اقترب موعد إقلاع الطائرة وأنا حائر بأمري، ولكني قررت أن اشتري الهدية، فلا أستطيع العودة من دون أن اقدم لها شيئاً في مثل هذه المناسبات.

دخلنا بتيكاً للملابس النسائية وطلبت فستاناً من القياس الكبير. نظرت إلي هبى مستفسره، فقلت لها:

-لنفرضها خادمة في البيت، لا يجوز أن أقدم الهدايا للأولاد واتركها هي بلا هدية. ثم إن هذا الفتسان البسيط سيسكتها عني، فأرتاح من تعليقاتها وفجورها المقرف، والاولاد، في هذه الحالة، لا يشكون بما بيننا من علاقة سيئة.

فأتى تعليق هبى على الشكل التالي:

-لا تهدى الخادمات فساتين بهذا المستوى على ما أعتقد.

-ولكنها ما زالت، في نظر الآخرين، زوجتي.

صمتت قليلاً وثم قالت:

-لن احرجك، اختر ما تريد سأنتظرك في الخارج.

ارتحت فعلاً واشتريت لزوجتي ما يمكن أن يسرها.

-44-

جلست وحدي أنتظره. وحاولت ألا أفكر، ولكن رأسي كان يعج بأسئلة كثيرة. ماذا يريد مني؟ لماذا لا يتركني وشأني؟ هل يريدني عشيقة في السرّ، يمضي معها أوقاتاً جميلة ويحافظ على حياته العائلية على حسابي؟

لكنه أتى بسرعة، أستودعني، لان موعد إقلاع طائرة نيس كان قد حان ورحل بعد أن قال:

-سأتصل بك من نيس... سأشتاق إليك كثيراً. لن أتركك لفترة طويلة. وربما وجدتني هنا حين تعودين من باريس.

بقيت على مقعدي أتخيل حياة هاني مع زوجته. لا أعرف شيئاً عن هذه الحياة. كل ما أعرفه عنها هو ما كان يصرح به هاني أمامي. وحتى الآن لم رشح عنه إلا ما يطمئن عنفوان جسدي. لكن تصرفاته تناقض، احياناً، أقواله، فماذا أصدق: قوله أو تصرفه!؟

النطق هو حقاً أفضل وسيلة للكذب ولاخفاء الحقيقة. ولهذا السبب هو ميزة الانسان الاساية!

عندها انتهت العطلة، عدت إلى لندن وذهبت مباشرة الى الريزيدانس. بعد يومين أتت آنسة تيلندية لتشاركني الغرفة؛ كل غرف الريزيدانس كانت مخصصة لطالبتين.

توكا، تلك التيلندية، كانت في غاية الجمال والأناقة. تعرفت عليها حين التقينا، وعرّفتها على نفسي. كانت تجيد الغة الانكليزية وهذا أمر سهل التفاهم بيننا. تصرفاتها تدل على أنها سيدة مجربة، وعمرها يقارب الثلاثين. كل ذلك وضعني في حيرة من أمرها ومن أمر وجودها في المدرسة تلك.

بعد عدة أيام من مكوثنا معاً، وبعد مراقبتي لها بشكل دقيق، قررت أن أسألها عن وضعها وسبب وجودها هنا. وعندما التقينا في المساء كالعادة سألتها:

-توكا لماذا أنت هنا. إنك إمرأة ناضجة وتجيدين الانكليزية، بالحقيقة لا أجد تفسيراً لكونك هنا... تدرسين...

-وأنت؟ ماذا تفعلين هنا؟ أنت أيضاً تجيدين الانكليزية وأنت أيضاً إمرأة ناضجة.

-أنا هنا لأحسن لغتي، لانني بحاجة إلى تحسينها، ثم إن الوضع في لبنان حرب، والعيش فيه صعب... أما أنت؟

-هل هذا يعني أنك غير متزوجة وليس لك أولاد؟

-كنت متزوجة ليس لي أولاد. قلت لها لأشجعها على الكلام.

-وأنا أيضاً كنت متزوجة وليس عندي أولاد، أجابت، ثم صمتت لوقت قصير وبعده تابعت:

-أحب علي ورفض أن يطلقني، فما عدت أطيق العيش معه. ولهذا السبب هربت لأخلص نفسي من هذا العذاب، والتجأت إلى بيت أهلي وحاولت العمل في إحدى شركات الطيران، فطلبوا مني أن أتقن اللغة الانكليزية وإذا أردت العمل فعلاً، فقررت المجيء إلى لندن لأن مدرسة الـ "ال.تي.سي" معروفة وشهاداتها محترمة.

-ولكن لغتك جيدة كما لاحظت.

-أتكلمها جيداً ولكن لا أحسن كتابتها بنفس المستوى.

-ألا يستطيع ملاحقتك وردك إلى البيت؟

-يستطيع طبعاً. ولكن لأ أظنه سيفعل، على الأقل الآن، لأن المرأة التي يحب، غيورة جداً ولا أعتقد أنها ستتركه يفعل.

-ولماذا يصر على بقائك معه، إن أحب غيرك؟

لا أفهم الرجال، يا هبى، فهم يريدون تجميع النساء حولهم من دون أن يفكروا بمشاعر المرأة اطلاقاً.

صمتت توكا وغرقت في ذاتي: إنهم يحبون تجميع النساء حولهم! نعم! وهاني ماذا يفعل غير ذلك؟ يقول أنه يحبني ويحافظ، في الوقت نفسه، على حياته مع زوجته. ولكن لماذا لا تتركه زوجته كما فعلت توكا؟ وهل صحيح أن علاقتهما سيئة ومقطوعة؟

-توكا، لو كان عندك أولاد لما كنت تركت، أليس كذلك؟

-ربما! ولكن حتى مع وجود الاولاد، لا تعود الحياة تطاق إذا أحب الرجل إمرأة ثانية.

-وهل استمر في ممارسة الحب معك بعد تعلقه بالمرأة الثانية؟

-نعم! ولكن حين اكتشفت، أنا من ذاتي، أنه يحب سواي لم أعد أقبل معه.

-وكان هو يريد ذلك؟

-بل يصر. فالرجل كالحيوان، حين يشعر بالاثارة لا يهمه مع من يمارس الجنس.

رن جرس الهاتف في الغرفة قاطعاً الحديث بيننا. فقلت: "أنه هاني، أرجوك أجيبي أنت وإذا سأل عني قولي له إني سلت هنا". كان حقاً هاني هو الذي يتصل. وحين قالت له توكا بأنني غير موجودة جن جنونه وأخذ يستفسر عن وقت خروجي ومكان ذهابي وساعة عودتي، وتوكا ترد عليه قائلة:" لا اعلم شيئاً من أمرها".

وحين أنتهى من اسئلته، أقفلت توكا السماعة وتوجهت إليّ تسألني:

-لماذا لا تريدين التكلم معه ومن هو؟

-إنه متزوج وهو الآن مع زوجته وأولاده.

-هو زوجته تعلم بعلاقتكما؟

-لا أدري! ولكن عليها أن تحدس بها. لأن هاني، كما قال لي، لم يعد قادراً على النوم معها.

ضحكت توكا وقالت:

-وهل تصدقين الرجال؟ أنا لا أريد زرع الشك في نفسك، ولكن تجربتي علمتني الا اصدق احداً منهم.

-ولكن لماذا يلاحقني ويطاردني كخيالي

-لأنه يحبك، ولكنك ستبقين عشيقة له في الظل. فإذا قبلت بهذا الوضع، فلا بأس، ولا تشغلي رأسك بالمواضيع الاخرى.

-وهل تقبلين أنت برجل يمارس الجنس مع غيرك، حتى ولو كان يحبك وتحبينه؟
-أنا لا أقبل اطلاقاً، ولهذا السبب هربت منه ومن كل حياتي معه.
-أنا أيضاً لا أقبل ! ولكن كيف لي أن أعرف الحقيقة؟
-لن يدعك تلمسين شيئاً من الحقيقة. والقرار لك أنت، فإما أن تلغي الشك من رأسك نهائياً، أو أنك ستتعذبين بلا فائدة، لأنه لن يقر لك بالحقيقة أبداً.

صمتنا وغرقنا، كل واحدة منا في عالمها. ودون أن ننطق بأيةكلمة، أطفأنا النور ودخلت في ذاتي أستعيد كل ما دار بيني وبين توكا من حديث. وقررت قبل أن أغفو أن أنتهي من هذه الدوامة التي أقحمت نفسي فيها، لأن الامور بدأت تأخذ اتجاهاً لا أريد الغوص فيه، وتساءلت: "لماذا أسقط إلى هذا المستوى؟ مستوى المنافسة في امرأة أخرى لا أعرفها ولا تعرفني ولا دخل لها في حياتي. "ما هذه الورطة التي أقحمت فيها نفسك يا هبى؟ أين شموخك؟ أين كبرياؤك؟ أين عزة نفسك؟ أين أنت في النهاية؟" ولكنه يجزم أنه لي وحدي. وهل أنا مجرمة لكي أحرمه من أولاده؟ ولكن هل ما يربطه بعائلته هو الأولاد فقط، كما يدّعي؟ سأستوضح الأمر حتماً حين نلتقي وسأتخذ القرار المناسب مهما كلفني الامر.

-45-

دخلت عليهم فجأة. وركضوا إلى وتسلموا هداياهم بعد أن قبلتهم جميعاً. فرح الاولاد بالالعاب وبالملابس وشكرتني زوجتي على ذوقي وحسن اختياري حين رأت هديتها وأخبرتني أنها دعت بعض الاصدقاء لسهرة الميلاد التي ستقيمها عندنا في البيت.
بعد أن وافقت على كل اقتراحاتها حول الدعوة، دنت مني وقالت بصوت منخفض:
-ما رأيك لو ذهبنا إلى باريس لتمضية فترة ما بين العيدين؟
-ملبك السفر مع الاولاد، تعرفين ذلك.
-لا! الأولاد يبقون هنا مع أختي، إنها آتية غداً.

شعرت أني لا أستطيع رفض اقتراحها، ولكن لماذا اختارت باريس؟ هبى الآن في باريس!
-حبيبتي! أنا أفضل الذهاب إلى لندن، حيث أكون على اتصال دائم بـ ... مدير الشركة، خاصة وأني سأستلم مهامي معه في أول السنة. اقترحت لندن بالذات كي

أستبق الأمور ولأجعلها لا تشك بشيء في المستقبل حين سأسافر إليها وحدي لملاقاة هبى.

-لا مانع عندي، أجابت، فقط أريد أن نسافر معاً وحدنا ولو لفترة قصيرة.

-كما تريدين، وفي المرة القادمة سأخذك إلى باريس. أعدك.

مرت فترة الاعياد وفقاً لبرنامج زوجتي وعدنا إلى نيس حيث باشرت العمل في الشركة. كنت أتصل بهبى كل يوم وأعبر لها عن حبي وشوقي وأعدها بأنني آت بأقرب وقت. كنت حقاً أبحث عن وسيلة تمكنني من السفر إلى لندن، فأتت الفرصة من ذاتها، إذ إتصل بي المدير وطلب مني أن أقابله في مكتبه، لأنه يريد أن يعرض علي إمكانية العمل في الفرع في لبنان. كنت لا أرغب في العودة إلى لبنان إطلاقاً ولكني قبلت دعوته إلى لندن تاركاً الأمر معلقاً. وأتصلت بهبى لأعلمها بمجيئي. لم أجدها في الغرفة. كان الوقت ليلاً. فأين كانت ومع من؟

-46-

خرجت من الصف مساء اليوم التالي، وإذ بهاني ينتظرني أمام باب المدرسة. غمرني بذراعيه وقبلني. كدت أقرأ الشوق في عيهنيه. قال:

-شغلت بالي! أين كنت البارحة؟

-في غرفتي !

-ولكن؟

-أعرف. ولا أريد أن أستمر معك. هذا كل ما في الأمر.

-هبى ماذا تقولين؟ هل يوجد شخص آخر في حياتك؟

-لا! ولكن بكل بساطة، لا أستطيع أن أستمر في هذه الحالة التي بدأت تزعجني فعلاً. ولا أريد أن أزعج نفسي.

أما هو فلم يفهم موقفي وتغيري. ظن أن وجوده مع زوجته يزعجني وهو ظن صحيح في شق منه، فقال:

-أقسم لك، يا هبى، أنها انتهت من حياتي. وأنت تعرفين منذ البداية أن لي ولدين ولا أستطيع أن أتركهما الآن. لم يتغير شيء في الموضوع.

-لا يزعجني الأولاد، وأنت تعرف ذلك وحتى...

لم يتركني أكمل قولي:

-إذا لا تفكري بأي أمر آخر لأنه تفكير خاطئ. وستظهر لك الايام صدقي. فقط أطلب منك أن تمنحيني الوقت اللازم لأتمكن من مداراة الاولاد كي لا يؤثر وضعنا عليهم... فما ذنبهم؟

-هاني، ماذا تريد مني، أنا لا اريد التدخل في حياتك افهمني واتركني لذاتي وعد، أنت، إلى عالمك. اعتبر أن ما حصل بيننا مغامرة من مغامراتك ولننه الموضوع.

-هبى إني أحبك، ألا تعرفين ذلك بعد؟ وأنت لا تتدخلين في حياتي. أنا المسؤول عن هذه الحياة وأنا لا أريد تغييرها، لا علاقة لك بهذا الموضوع. أكرر لك أنها انتهت من حياتي كليا، لا بل كانت منتهية من قبل أن أعرفك، وما بقاؤنا معاً، كما قلت لك، إلا بسبب الاولاد فقط، هي تريد الانفصال أكثر مني ولكننا نضحي من أجلهم. هبى أرجوك افهميني!

نظرت اليه وهو يتكلم ويتحمس لقوله فتهيأ لي أنه صادق. هل هو حقاً، صادق أم هي رغبتي اللاواعية التي تراه هكذا؟

هناك لحظات حاسمة في حياة الانسان، عليها يتوقف مسار طويل. والاستسلام لاغراءات اللحظة الراهنة هو، عادة، بداية الجلجلة! اللعنة على الغربة! واللعنة على الوحدة! واللعنة على الحرب التي شردتنا! هربنا منها، فكانت الغربة أقسى علينا منها ... وتورطنا بأمور انسحبت آثارها طويلاً على حياتنا وكبلتنا بشكل مؤلم، ونحن ننتظر الفرج الذي ما كان ليأتي بسرعة، وهذا ما يجعل القيود تتراكم بفعل التكرار والتأجيل حتى بدأنا نشعر بالاختناق، وأحياناً باليأس!

الحرب في لبنان قاسية والبعض انتحر استنكاراً لها. أما نحن، الناجين من آتونها فما أعظم صبرنا ما أكبر حظنا أيضاً! وأي حظ هذا وأنا في الغربة، هذه الغربة التي أشعر أنها جعلتني أتخلى عن ذاتي وانسجامي مع قناعاتي. في الغربة نحتاج إلى صديق ولو لم نكن مقتنعين به كليا ونشعر أنه أنيس ولو لفترة قصيرة، فنعوض في اللحظة متجاهلين أو متناسين آثارها اللاحقة علينا.

استسلمت، كأني أهرب من ذاتي، وسرت معه من دون وعي. أوقفت أرادتي من جديد، وأعدت قيادة سلوكي إلى انفعالات جسدي الذي شعر بالدفء وهو بين ذراعيه.

بعد قليل وجدت نفسي في غرفته، فاستعدت نفسي وقلت له:

-هاني، تذكر جيداً ما قلته لك في بداية علاقتنا. قلت لك إنك تحرك جسدي وأني لا أرفض ذلك. ولكن لا أقبل إطلاقاً بالمشاركة على هذا الصعيد. ولهذا السبب، زوجتك، لا تزعجني لأنها زوجتك أو لأنك تحبها أو لا تحبها، ما يزعجني هو جسدها فقط، لأنني ... كيف سأقول لك... لأنني أقرف! أتفهم ماذا أعني؟

-أفهم جيداً وأريدك أن تفهمي بدورك، أن لا حب ولا جنس بيني وبين زوجتي و...

-لا أقصد الزوجة وحدها! إني أقصد أي إمرأة أخرى.
-لا أدري إن كنت ستصدقين ما سأقوله لك، إن ما يحدث معي لا أفهمه، لأنه لم يحدث معي من قبل: إن عاجز جنسياً حين أكون بعيداً عنك. صديقيني، لاشيء يحركني، أتحول إلى كائن لا جنسي حين أغادرك.

كنت صادقة في قولي، أما هاني فكيف التأكد من صدقه؟ وأمام إبتساماتي المشككة، كان هاني يستاء ويحاول إقناعي بشتى الطرق، بأنه صادق وبأني سألمس ذلك في التجربة. وحين مارسنا الجنس كنت أنا في انفصام تام مع ذاتي وهو في تأكيد تام لذاته ولمصداقيته، إذ نبهني عدة مرات ونحن في السرير أن القذف سيأتي بسرعة، وهذا في نظره، دليل قاطع على أنه امتنع عن الجنس فترة غيابه عني. لم أعر أي إهتمام لقوله هذا الذي اقتنعت به. كنت مستغرقة في اللذة وفي الهوامات كأني جسد فقط.

ولكن الفكر لا يتوقف نهائياً عن العمل، وفي حالات كهذه يصبح كنسمات الهواء الرقيقة التي لا يشعر المرء بتحركها. وكلما هبت نسمة في رأسي، وأنا في هذه الحالة، قلت في نفسي: لقد اخترت الجسد وسأعيشه حتى النهاية. شعرت بعدها أني أتحدى ذاتي وانتقم من ذاتي. كانت حالتي شبيهة بالجالة في لبنان: الحرب قائمة على الرغم من كل رفض الشعب لها. جسدي يحصد ذاته والحرب تحصد أبناءها.

-47-

عدت إلى نيس بعد أن ارتحت إلى أن هبى لا تشك بصدقي وأصبحت أنظم وقتي بشكل مكنني من السفر إلى لندن باستمرار من دون أن يطرح ذلك تساؤلا عند زوجتي التي كنت أتعامل معها بأفضل من السابق؛ كنت في السابق أتركها أحياناً وأذهب للبحث عن مغامرة سريعة مع إحدى بنات الهوى، أما الآن فأصبحت لها ولها وحدها حين أكون في نيس. أسعدها الأمر فإنتظمت علاقتنا بشكل جيد. أصبحت أغدق عليها الهدايا وأصبحت هي تسايرني وتدللني أكثر من أي وقت مضى، فارتاح جو البيت الذي كان، في السابق، ساحة للصراع الذي تحركه الغيرة.

-48-

في أواخر مدة الدراسة، عدت يوماً إلى الريذيدانس وإذا بتوكا تقول لي أن زعيماً كبيراً أغتيل في لبنان. فاتصلت بأخي وتأكدت من النبأ. كنت قد مللت

المكوث في لندن، وفي هذا البيت بالذات، شكل هذا الحدث الكبير نوعاً من دعوة للرجوع. لم أفهم في تلك اللحظة لماذا أتتني الحماسة للعودة. وبعد تحليل قصير، وجدت أن مكوثي في لندن فقد معناه، ولم يعد يعني سوى إنتظار هاني. فحسمت أمري، وحين أتصل بي مساء ذلك اليوم، أخبرته بأنني عائدة إلى لبنان. لم أنتظر تعليقه. أقفلت الموضوع معه وإتصلت مباشرة بشركة الطيران وحجزت مكاناً للغد.

عند الوداع صباح اليوم التالي قالت لي توكا:

-هبى لا تنزعجي مني، ثقي بكلامي، الرجل لا تحركه إلا الإثارة فلا تصدقي أحداً. أتمنى أن تكذبني الوقائع وأن تتم قصتك مع هاني على خير. ولكني غير مطمئنة!

فأجبتها:

-فلتتم كما تريد، الأمر لم يعد يهمني، فإذا كان هو يعتبر علاقتنا مغامرة عابرة، أنا أيضاً أعتبرها هكذا. ولتنته ساعة تشاء وكيفما تشاء.

بعد هذا الحديث القصير، تبادلنا العناوين في بلدينا وافترقنا. لم أستلم منها رسالة في ما بعد ولم أكتب لها.

دخلت الطائرة وتفحصت وجوه الركاب وأنا أتجه إلى مقعدي فلم أتعرف على أحد منهم. رتبت أمتعتي وجلست في المكان المحدد لي. وبعد الاقلاع وفك الاحزمة، اشعلت سيجارة وغرقت في ذاتي وإذ بي وجها لوجه أمام علاقتي بهاني. فماذا تعني لي هذه العلاقة؟

إستعرضت كل احداثها، فوجدت أنها علاقة غير متوازنة. ولكني تقصدت، منذ بدايتها، التخلي عن أحكام العقل لأفلت العنان لمشاعري وجسدي، أين أنا الآن من كل ذلك؟ هل أصبحت أحبه؟ بعد أن أشبعت جسدي؟ نعم؟... ولا أيضاً! فإذا حذفنا الجسد لم يعد هاني يعني لي شيئاً. صحيح أني اكتشفت معه ما كنت أجهله عن جسدي، ولكن إلى أين أوصلني هذا الاكتشاف؟ أستعدت كل ما دار بيننا من أحاديث في المرحلة السابقة وأدركت أننا لم نتكلم يوماً بشيء محدد إلا بموضوع الجسد. فتبدت لي تفاهة هذه العلاقة. هل ما يتعلق بالجسد هو تافه حقا؟

حين بارك المسيح الخبز ووزعه على تلامذته قال لهم:" خذوا وكلوا هذا هو جسدي".

ولكن إذا وضعنا الجسد جانباً، فماذا فعلت كل هذه السنة من عمر العلاقة؟ لا شيء يذكر... الانتظار فقط! إنتفضت في مكاني وقلت لنفسي: هل أتحوّل إلى

انتظار؟ وإنتظار ماذا؟ هل يمكنني العيش معه حتى ولو تحرر من كل قيوده؟ لا! بالتأكيد. فهو لايعني لي شيئاً، فكيف أربط حياتي به؟ ولكن إن كان لا يعني لي شيئاً فلماذا حضوره يطاردني؟ ولماذا أفكر به؟ هل هو العشق أم هو وهم أتعلق به للخروج من فراغ معين؟ ما عدت أدري تماماً ماذا يمثل لي. كل ما أعرفه أنه يشغل فكري. فلماذا خلوت بذاتي أو خاصمت ذاتي أو تصالحت مع ذاتي، وجدته بيني وبين ذاتي. من هو حتى دخل حياتي؟ لقد دخلها من خلال جلدي فعلاً، وأشبع غرائزي ، من خلاله اكتشفت جسدي، فيه أحببت تجسد الخطيئة، هو متاهات لذه! هل أحبه؟ هو كل مالا أجسر على قوله! هو طبعيتي وحشيتها، هو من حياتي غير ظاهرها، هو من تصرفاتي أسرارها، هو من لذاتي ألذها! هل أحبه؟ عشت معه بدنيتي في كل أبعادها وحققت معه من تربيتي كل محرماتها، هو وجهي الثاني، هو تناقضي، هو موضوع حبي وحقدي. وهنا غاب هاني عن فكري إذ اكتشفت أن مشكلتي مع ذاتي وليست معه. والحل؟ سأعود الآن إلى لبنان وسأمارس ذاتي كما أريد، ولن أترك لهذه العلاقة أن تحدد مسار حياتي. فأنا قبل هاني بكل ما سأفعل فليبق معي، وإم لم يقبل فليذهب إلى الجحيم!.

ثم استدركت: أليس من إمكانية للتوفيق بين الجسد والذات؟ سأحاول! وإذا لم تنجح المحاولة؟ سأفصل بينهما! وهل هذا ممكن؟ وإن كان ممكناً فهل ما أريده فعلاً؟ وأن تم الانفصال فهل سيكون عملية تحرر أم عملية إستعباد؟ ... بالنهاية أين تذهب الهوة التي بيني وبينه؟ هل هو يرى مثلي هذه العلاقة؟ هل يرى فعلاً ما أرى؟

ما زلت أذكر تلك الابتسامة المأساوية. كنت معهما في غرفة نومهما حين أصبح لكل منهما سرير خاص بدل السرير الواحد العريض الذي حضنهما ليلة زواجهما. جلس والدي على حافة سريره، ووقفت والدتي بين السريرين ووجهها لجهة سريرها، وضعت ركبتها على الفراش، فسقطت فردة مشايتها من قدمها، ثم رفعت ركبتها الثانية وسقطت الفردة الثانية. كان ولادي يراقبها، فنظر إلي وإبتسم وهو يهز برأسه يشير بيده اليها، ثم سحب قدميه من مشايته، وضع ذراعيه وراء ظهره، استند بكفيه على الفراش، رفع رجليه جاعلاً من مؤخرته مركزاً لحركته الاستدارية وتمدد على السرير.

ابتسامته تلك كانت أحسن تعبير عن نمط علاقة هي ككل العلاقات الزوجية: أحدهما لا يرى الاختلاف أو لا يريد أن يراه، لأنه يدري ظهره، والآخر يرى الاختلاف ويقبله بمرارة أو بتضحية أو ربما، بفرح أو بمكابرة أو بسخرية!

هل سيأتي اليوم الذي أبتسم فيه إبتسامة الهزيمة والاستسلام؟ "أبتاه! أبعد عني هذه الكأس!"

-49-

لماذا هذه العجلة؟ لماذا قررت، بهذه السرعة، العودة إلى لبنان؟ إنها لم تترك لي المجال لأفكر معها في الموضوع. قررت وأخبرتني حين أتصلت بها، ولو لم أتصل بها الليلة لذهبت وتركتني من دون أن تعلمني بذهابها. ما هذا الاستهتار بي؟ سألحق بها، أنا أيضاً، لا أستطيع العيش هنا بعيداً عنها. سأتصل بمدير الشركة، وهو الذي طلب مني، في فترة سابقة، أن أعيد فتح الفرع في لبنان. سأبحث مع الموضوع وسأطلب منه فرصة لزيارة البلد ودراسة الوضع وإمكانية العمل فيه. هكذا سأراها وسنبحث إمكانية البقاء معاً في لبنان. بعدها أعود إلى هنا، أرتب وضعي وأسبق العائلة إلى بيروت، حيث ستلتحق بي عند إنتهاء العام الدراسي في حزيران، وهو ليس بعيداً. ولكن قبل أن أتكلم مع المدير في الموضوع، علي ان أقنع زوجتي وأبرهن لها أن دخلنا في لبنان سيكون أكبر، ثم اننا سنسجل الأولاد في القسم الداخلي لإحدى المدارس البعيدة عن ميادين القتال وسأجلب خادمة إلى البيت، وهكذا تصبح، هبى، حرة ويمكنها السفر متى أرادت.

رضيت زوجتي بإقتراحي هذا. أما مدير الشركة، فقد رحب بالفكرة وشجعني على تنفيذها لان مصلحته تقضي بذلك، خاصة وأن المصانع التي تنتج المواد التي تنتجها شركته، كانت، في غالبيتها، قد أقفلت في لبنان.

-50-

استأجرت بيتاً صغيراً، بعد عناء كبير، لأن تأجير بيت لامرأة، أمر غير مستحب في بيروت. ولكني توصلت إلى ما أريد، وسكنت وحدي مقررة استعادة ذاتي، وقد ساعدني أخي بإيجاد عمل في المؤسسة التي يجب أن أعمل فيها وفقاً لشهادتي.

كانوا مجتمعين، حين دخلت غرفة المدير في تلك المؤسسة.

-أقدم لكم السيدة هبى التي التحقت مؤخراً، قال المدير، ويسرنا أن تكون بيننا سيدة مثل هبى!

رحبوا بي وحين كنت أضع يدي بيد كل واحد منهم، للسلام عليه، كان يقول إسمه وهو يتفحصني. أخذت مكاناً، قدمه لي أحدهم وجلست أستمع إلى نقاشهم الدائر حول شؤون المؤسسة. كنت مستمعة فقط، لم أتدخل إلا حين كنت أرى ذلك ضرورياً، أو للاستفسار عن موضوع معين، في أغلب الاحيان. لفتت انتباهي

مداخلة واحد منهم، ما عدت أذكر اسمه. كانت رؤيته للأمور تشبه إلى حد كبير رؤيتي لها، قوله مقنع ومنطقي وإن كان يعرضه بنوع من التوتبر، وكأن الموضوع عولج سابقاً ولم يؤخذ برأيه.

عدت إلى البيت حيث بدأت أستقبل بعض الاصحاب والمعارف. وفي مساء ذلك اليوم أتاني شخص تعرفت عليه بعد عودتي من لندن. سهر عندي وأمضينا الوقت في نقاش طويل، حول أمور كثيرة ومتشعبة. بعدها قال لي بنوع من الجدية الظاهرة.

-هبى لماذا لا تلتحقين بالحزب إذا؟

-لا مانع عندي. ما هي حيثيات الانتساب؟

-لا داعي لذلك، أنا أتكفل بكل شيء.

بعد أيام قليلة عاد من جديد وبلغني بأني سألتحق بالفرقة المخصصة للمؤسسة التي أعمل فيها، وحدد لي موعد ومكان الاجتماع الاول للفرقة.

قصدت المكان الذي هو منزل أحد الرفاق. دخلته وإذ بي أرى ذلك الشخص الذي استرعى إنتباهي في المؤسسة. نظر إلي وابتسم كأنه يعلم بقدومي، فجلست بالقرب منه إذ كان الشخص الوحيد الذي أعرفه من قبل.

-لماذا لم تخبريني إنك في الحزب؟ سألني.

-إنتسبت مؤخراً. ثم إنك لم تسألني.

-كنت متأكداً من ذلك.

وهكذا أصبحنا نلتقي في المؤسسة، وفي إجتماعات الفرقة الحزبية، حيث النقاشات كانت عنيفة في بعض الاحيان. وبعد فترة من الصمت، كنت خلالها أتعرف على أجواء الحزب واتجاهاته، بدأت أسمع صوتي، ووجدت نفسي مشدودة ومقتنعة بأفكار، ومداخلات عيسى الذي أصبحت أعرف إسمه الآن.

تنتهي الاجتماعات ونبقى معاً، ثلاثة أو أربعة، نتوجه إلى مكان آخر ونتابع النقاش الذي تهمد حدته لأننا كنا متقاربين جداً في وجهات نظرنا. شلة صغيرة أصبحنا، نلتقي دائماً، ونقيّم ما اتخذ من قرارات في الاجتماعات الرسمية. كنا داخل الحزب نشكل نوعاً من المعارضة لتوجهاته التي لم نكن مقتنعين بها فكرياً، ولكننا كنا نقبلها وننفذها تنظيمياً لاعتقادنا أن المرحلة استثنائية، ولأملنا بأن الامور ستتحسن عند إنتهاء المرحلة تلك.

كان لقائي بعيسى أمراً طبيعياً. التقينا حيث يجب أن نلتقي، في موقعنا الطبيعي: في العمل وفي الحزب. لم نفتعل اللقاء ولا دور للصدفة في تحقيقه، سوى أننا وجدنا في عصر واحد وفي بلد واحد.

أحسست أن هذا اللقاء هو ضروري كضرورة الوجود نفسه، ننطلق منه، لا من عدمه، لتحديده. أما لقائي بهاني فلم يكن إلا وليد صدفة ومع ذلك...!

-51-

عدت إلى لبنان وزرت بيت ذكي لألتقي بهبى. لم أجدها وشعرت من خلال الحديث أنها لا تسكن معهم. أين هي يا ترى؟ هل أسأل عنها؟ ولماذا عدت إذا؟

-ما هي أخبار السيدة هبى؟

-إنها بخير، لقد عادت من لندن واستأجرت بيتاً في بيروت وتعمل في ... أجابتني زوجة ذكي.

هل أسأل أين تسكن؟ لا! يكفيني أن أعرف أين تعمل.

-52-

خرجت من المؤسسة مع عيسى الذي دعاني لزيارته في بيته والتعرف على زوجته ومتابعة...

لم أعد أسمع كلامه! ماذا يفعل هاني هنا؟ متى عاد وكيف علم بأني أعمل هنا؟

ترجل هاني من سيارته وأتى مسرعاً. يا إلهي كم يستجيب جسدي له! حين رأيته شعرت تياراً حاراً يغزو أذني ويتسرب إلي كل جسدي، حيث يحدث تسارعاً في نبضات القلب.

-متى عدت؟ سألته.

-البارحة.

حدس عيس أن لي علاقة بهاني، يبدو أنه لاحظ أن تغيراً ما حدث عندي ولم ألاحظه أنا، فاستأذن وانصرف. وعدت مع هاني إلى بيتي. كان سعيداً بي وكنت فرحة بقدومه. لقد أشبع نرجسيتي. أن يأتيني بمثل هذه السرعة فهذا دليل قاطع على حبه لي.

-كيف تركت العائلة؟

-الاولاد بخير. أجابني.

ومتى تعود إليهم؟

-سأبقى هنا!

-...؟
-سأنقل عملي إلى لبنان من جديد. وإن ذهبت إلى المريخ سأنقل عملي إليه!

كنت في غيابه قد خرجت من جسدي، وبدأت أستعيد ذاتي وتوحدي. لماذا يعيدني إلى الانفصام؟
-هاني إني بدأت حياة جديدة، ولا أريد العودة إلى الوراء ... كنت أنطق بكلمات شعرت أنها تجول فقط في أعلى رأسي بينما باقي جسدي كان يتوق شوقاً إلى جسد هاني.
-لن أعيق حياتك، تصرفي كما تشائين. وأنا لك مهما تقلبت الظروف. ولا أعتقد أن هناك تناقضاً بين حبنا وحياتك الاخرى.

قال حبنا! فإن كان هو يحبني حقاً، أين أنا من هذا الحب؟ هل أتابع تجربة الجسد أم أوقفها؟ سأحاول من جديد لأرى امكانية التوفيق . ففي الحياة التي بدأتها في غيابه، ما شعرت خلالها بالانفصام، لانني شعرت بجسدي. هل أعود إلى الانفصام وأعيش الجسد مع هاني، وأحافظ على حياتي الثانية كما هي؟ وهل التجربة ستنجح؟ ربما! فنلحاول. على كل حال سأمارس ذاتي كما أريد، ولم أقدم تضحيات في سبيل علاقتي بهاني. فإلى أي مدى ستصمد هذه العلاقة؟

-53-

أحييت فرع الشركة من جديد ولكني أخترت له مكاناً خارج بيروت، وهذا أمر يسهل علي العمل من دون مشاكل، سأذهب كل يوم إلى عملي وأعود في المساء وأقسم وقتي بين بيتي وبين هبى. وحين أعود إلى بيتي أقول لهبى، في اليوم التالي، إني نمت في مكان العمل بسبب الوضع الامني الذي تفهمه جيداً، وحين أعود إليها أقول لزوجتي ما أقوله لهبى. وهكذا تنتظم حياتي بشكل جيد، وتنتفي التساؤلات من رأس هبى، وتعتقد أني لها وحدها كما تواعدنا. ولزوجتي سأقدم كل أسباب الراحة كي لا تتذمر من شيء.

حياة العائلة سارت بأمان، ولكن هبى، وبعد فترة من العيش على هذا النمط، سألتني:
-أين كنت البارحة؟ في مقر العمل في الجبل، طبعاً، كالعادة ولكن، قل لي، ألا تزور بيتك أبداً؟ فإن كنت تمضي ليلة في العمل وليلة معي فمتى ترى الأولاد على الأقل؟

-أراهم في النهار. حين أتركك غداً، أذهب إليهم لأتفحص وضعهم ولأحضر لهم ما هم بحاجة إليه ثم أعود إلى عملي.
-ألا يطالبونك بالنوم معهم في البيت على الاقل مرة واحدة في الاسبوع؟
-يطالبون حتماً، وسأكون معهم حين تسافر أمهم، وموعد سفرها ليس بعيداً.
-حتى وان كنت لا أصدق أقوالك تماما، فإن الامر لا يهمني، إذا كنت أنت مرتاحاً لما تقوم به. وإذ كنت محافظاً على احترام الشرط بيننا.
هززت برأسي بشكل تفهم منه أني حريص أكثر منها على ما تسميه شرطاً.

-54-

شعرت بعد فترة أن لا مجال للتوفيق وأصبحت أترنح بين قطبين: جسدي وطموحي. وبعد أن غرقت في هوة الجسد حتى النهاية أحسست رطوبة ولزاجة القاع وكأني في مستنقع. أنتفضت وخرجت منه بإنفعال ودفعت الامور مع هاني إلى أكثر مما يستطيع:
-إما أن تطلق الآن أولا تعود تراني أبداً!

كنت أعرف تماماً أنه عاجز عن الطلاق في تلك الفترة، وضعته أمام الحائط كي أتحرر منه، كي أتحرر من جسدي. وحين رفضت أن أسمعه وأسمع تسويفاته، تركني بألم وغصة. وشعرت بارتياح كبير، ورأيت نفسي طليقة الجناحين، واندفعت بنشاط إلى شؤون عملي وشؤون الحزب.

في جو العمل، كنت أشعر بحضوري، الكل يغازلني ويلاطفني ويهتم بي. كنت اشعر بقبولهم لي. غرفة المدير، كانت مشرعة الابواب أمامي. أدخلها متى اشاء، وكلما دخلتها أستقبلت بالترحاب، فنشأ بيني وبين المدير نوعاً من الصداقة، والصداقة تجر إلى البوح بالخصوصيات، وهذا البوح يفترض غياب الآخرين، وهذا الامر لم يتوفر الا للحظات قصيرة داخل المؤسسة. فإتصل بي يوم عطلة ودعاني لتناول الغداء معه في أحد المطاعم. لبيت الدعوة وخرجنا معاً.
-هبى لماذا لم تتزوجي حتى الآن، وأنت إمرأة جميلة ومثقفة و...
شعرت للحظة أو حدست أنه يعرف كل شيء عني، ولكنه اختار هذا المدخل ليعرض قصته هو أمامي، فاختصرت الكلام بسرعة عن وضعي وسألته بدوري عن وضعه.
-أنا متزوج ولي ولدان وزوجتي أجنبية وترفض العيش في لبنان وهي الآن مع الاولاد في الخارج. وأنا أمضي وقتي بين العمل هنا والسفر اليهم.
صمت قليلاً ثم تابع:

-لقد مللت حقاً هذا النمط من الحياة وأتوق إلى الاستقرار.

حاولت أن أغير الموضوع لنتباحث في شؤون الثقافة وغيرها. استجاب لمحاولتي وكلمني عن دراسته في الخارج، وعن الموضوع الذي عالجه لنيل شهادته، ثم أسهب في عرض الفكرة الاساسية في بحثه.
كنت مستمعة، وسررت لهذا المنحى الذي اتخذه اللقاء بيننا، وعرض عليه موضوع الدراسة التي قمت بها لنيل شهادتي، وتشعب الحديث حول الشؤون الثقافية والاجتماعية البعيدة عن الشؤون الخاصة. وحين انتهينا من تناول الغداء اوصلني الى بيتي وانصرف.

لكنه عاد ودعاني مرة أخرى ولبيت الدعوة من جديد، لأنه، في المرة الاولى كان محدثاً لبقاً ويملك سهولة في عرض آرائه وأفكاره، والموضوع الذي طرح بيننا كان ما زال مفتوحاً وإمكانية النقاش فيه كبيرة. والتقينا من جديد خارج المؤسسة.
-ما هذه الناقة؟ بادرني حين رآني.

كنت في مرحلة أهرب فيها من جسدي، فتجاهلت قوله وسارعت الى الكلام حول الموضوع السابق، وقلت له إني قرأت بعض المقالات والابحاث التي تصب كلها في صلب ما طرح بيننا في المرة الماضية، وحاولت أن أتعمق أكثر في الحديث معه كي اكتشف فكره هو لا معلوماته التي بدت لي وساعة وجيدة في لقائنا الاول.
تهرب من اسئلتي بشكل لبق وقال:
-لدينا كل الوقت للنقاش في هذه المواضيع داخل المؤسسة في العمل. ونحن هنا الآن لنتحدث عن انفسنا.
-لا بأس، اجبته، وتركته يقول ما يشاء. فقال:
-إني أعيش وحدي، والوحدة مزعجة، وظروف الحرب قاسية، هل يتزوج المرء ليعيش وحده!
-اذهب اليهم، إلى حيث أولادك وزوجتك، فتنجو هكذا من الوحدة ومن الحرب.
-باستطاعتي الذهاب ولدي إمكانية العمل هناك، كما هنا، ولكن...
-ماذا تنتظر إذا؟
صمت كأنه يتردد في الاجابة ولكنه قال بعد برهة:
-لا وفاق بيني وبين زوجتي. لها عقليتها ولي عقليتي، هما مختلفتان كلياً.

يا إلهي، هل هو "هاني" آخر! وهل سيلجأ إلى الاسلوب نفسه؟ صمت ولم أعلق بأية كلمة. لكنه تابع:

-وأنت هل تعيشين وحدك؟

هززت برأسي إيجاباً. كنت في تلك المرحلة أعيش وحدي فعلاً. إنفرج وجهه ونظر إلي لحظة ثم أخفض نظره نحو الطاولة وقال بتردد ظاهر:

-هبى لا أدري لماذا اصبحت صورتك تطاردني، حتى في لا وعي لأنني حين استفيق في الليل لا أرى إلا وجهك أمامي، عيناك... شعرك...

لم أعد أسمعه إذ أنه رماني في حيرة من أمري. هل أرفضه مباشرة وأنهي الموضوع وأنهي صداقتي معه؟ إنه لا يعني لي شيئاً على صعيد الجسد. هل إن لا إمكانية للصداقة بين رجل وإمرأة إلا حول الجسد؟ لقد شعرت منذ البداية أنه يفتعل الحديث في الثقافة! وكنت الاحظ أنه لا يستمع إلي حين كنت أتكلم في هذه المواضيع. كان يراقبني فقط ويراقب سلوكي. فقلت له:

-أرجوك إني غير مستعدة لهذا الموضوع إطلاقاً الآن.

-ترفضين الموضوع! هذا أمر غير طبيعي. أما أن ترفضيني أنا بسبب وضعي فأفهمك. ولكن اقول لك بكل صدق إنني مستعد للطلاق، وهذا ما أحضر له منذ زمن بعيد، قبل ان أعرفك.

"النغمة ذاتها" قلت لنفسي ثم توجهت إليه:

-أترك هذا الموضوع ولنكتف بالصداقة.

لم يبد استياءً بل قبل اقتراحي وثابر على افتعال اللقاءات بيننا من دون ان يفتح الموضوع مجدداً. بدأ يعرض علي كل خدماته في ميادين النشر والمؤترمات والندوات. كان يمهد الدرب أمام غايته التي بدت لي واضحة تماماً. ولكن، في المقابل، بدأت تتكشف لي تفاهته وسخافة فكره المبني فقط على حفظ بعض المعلومات التي يبرع في تكرارها كلما دعت الحاجة. حاولت كثيراً لأعرف موقفه هو ومبادئه هو وتوجهاته هو، ولكنه كان كالزئبق لا يعرف له مستقر. بدا لي انتهازياً إلى آخر درجة، إذ أنه يصفق لمن يؤمن له مصالحه. فإنهارت عندي صورته التي كانت في البداية تحمل بعض الاشراق، إذ أني كنت اراه ماركسياً مثلاً إلى أبعد الحدود أمام الماركسيين، حتى أنه احياناً كان يزايد عليهم، وكافراً بماركس وبكل تعاليمه أمام المتدينين أو من يكرهون ماركس وفكره. وهذا ينسحب على كل تصرفاته ومواقفه.

وبعد أن قدم لي كل ما باستطاعته دعاني من جديد ولكن هذه المرة إلى بيته، وفي اعتباره انه بواسطة الخدمات التي قدمها لي قد فرش السرير بالورود. لبيت الدعوة لأفهمه موقفي منه. وحين وصلنا الى بيته وتأكدت من نواياه لم أتردد في إعلان رأيي أمامه محاولة أن أكون مهذبة قدر الممكن إذ تكلمت بلغة إبعاد الجسد عن علاقتنا والاكتفاء بما بيننا من علاقة تتصل بطبيعة عملنا المشترك.

شعر إني أرفض جسده، أي أني أرفض رجولته. فاغتاظ، لكنه تمالك نفسه وعز عليه أن يناقش في الموضوع، فافترقنا بصمت، تركته في بيته وعدت وحدي إلى بيتي واعتقدت ان القصة انتهت على خير. ولكن سلوكه معي تغير في ما بعد وأخذ يضايقني في العمل ويلفق حولي الاخبار التي تنفر الآخرين مني. وكنت كلما سمعت بقصة عنه حاولت فضحها وتبيان حقيقة أمرها حتى فهم الجميع نواياه وأكاذيبه، فإنكفأ عني أو بالاحرى ابتعدت عنه نهائياً، فتلاشى بالنسبة إلي كحبة ملح ذابت في الماء.

-55-

لماذا تحشرني هكذا؟ هل تريد أن تتحرر مني لأنها على علاقة بشخص آخر؟ ومن هو؟ سأراقبها لأتأكد من الموضوع.

بدأت أطاردها من بعيد، لم ألاحظ شيئاً محدداً. اتصلت بها مرات عديدة إلى بيتها ووجدتها وحدها، وتكلمت معي بشكل يوحي أنها فعلاً وحدها. ولكنها اصرت دائماً على المكوث في وحدها، وعلى الابتعاد عني. كنت عاجزاً عن تلبية رغبتها في أن أطلق زوجتي. فما هي إذا الوسيلة لاستعادتها من جديد؟

إنقضى الاسبوع الاول، ثم الاسبوع الثاني، وهي على حالها من الرفض. سافرت زوجتي وأصبحت وحدي، ضاق صدري واشتقت إليها فصمتت على افتعال المستحيل لأزورها. وإذا نجحت بالوصول إليها سأعرف كيف أستردها، كيف أحافظ عليها. لن أدعها تهرب مني في المستقبل. سأنتظرها أمام مركز عملها وأوحي لها بأن لدي كلاماً مهماً أريد أن أقوله لها وسأرافقها إلى بيتها.

كنت أحضر نفسي لرؤيتها في كل لحظة وأنا أنتظرها في الشارع. كان وقت خروجها من العمل. خرجت! ولكنها كانت برفقة شخص لا أعرفه. كانت تتحدث معه وهما يتوجهان نحو سيارة، ركباها وغادرا.كانا أسرع مني في الحركة إذ تسمرت مكاني للحظة. قررت بعدها أن أتبعهما.

توقفت سيارتهما أمام بناية في شارع الحمرا. ترجلا ودخلا إلى البناية وغابا عن نظري. الآن عرفت سبب رفضها لي. موجة عارمة من الغيرة والغضب اجتاحت كل كياني. هل اتركها نهائياً وأغيب من حياتها؟ ولكني أحبها فعلاً، وما هذه الغيرة الجارفة الا دليل قاطع على حبي لها.

كانت هذه الافكار وغيرها تدور في رأسي وأنا أدور في سيارتي في الشوارع التي تلف ذلك المبنى. كنت أترقب خروجها منه لأعرف أين ستذهب وماذا ستفعل.

طال مكوثها في الداخل ولكني لم أمل الانتظار وثابرت على الدوران في تلك الشوارع حتى نفذ صبري من دون الوصول إلى نتيجة، ربما خرجا ولم أتمكن من رؤيتهما، ولكن السيارة ما زالت أمام المبنى. ماذا يفعلان معاً؟ إنها حتماً معه في السرير. لم يخطر ببالي إلا هذه الصورة التي كادت تدفعني إلى اقتحام المبنى للبحث عنها. ولكني حاولت التعقل، أوقفت السيارة ودخلت أحد المقاهي. وبعد قليل اتصلت بها في البيت لأنني ما عدت أعرف كيف أتصرف. سمعت صوتها. إنها في بيتها. كيف ذهبت؟ هل أوصلها؟ تركت المقهى بسرعة وذهبت إليها. تفحصت الشارع قرب بيتها جيداً، ولم أجد سيارته. هل أصعد إليها أم أمهد لزيارتي بواسطة الهاتف؟ لم أعد قادراً على الابتعاد عنها. وهكذا وجدت نفسي أصعد السلم إلى بيتها.

-56-

حين عدت إلى البيت بعد آخر لقاء لي مع المدير، كنت محبطة وغاضبة. لماذا لم تستقيم العلاقات بين الجنسين إلا من خلال السرير؟ خرجت من جسدي لانني مللته وأردت الانتقال إلى ما كنت أعقد أنه مجال طموحي وتحقيق ذاتي، فكانت تجربتي الاولى تبرهن لي أن الرجل المثقف هو أيضاً يبحث عن الجنس مع المرأة تماماً مثل الرجل غير المثقف، ولكنه يملك أداة للوصول إلى هدفه، تغري أحياناً، إذ أنه يتدرج من الفكر إلى الواقع، ويمهد له بنظريات قد تبدو مقنعة للمرأة التي تنساق بسهولة وراء مصالحها. هل كنت سأنساق لو أنه حرك شيئاً معيناً في جسدي؟ ربما! ولكن جسدي رفضه. هل رفضه لأنني اكتشفت سخص شخصيته وسطحية فكره؟ لا! إنه منذ البداية لم يعن لي شيئاً على صعيد الجسد. رفضي الاخير له هو رفض لكل شخصيته. هل كل الرجال هم هكذا؟ لا بالتأكيد! ومن الظلم الحكم عليهم من خلال تجربة واحدة.

بعد ساعة من وجودي في البيت شعرت بالوحدة. حاولت القراءة، لم أستطع، كنت أقرأ ولا أفهم وأعيد قراءة الصفحة من دون جدوى. قذفت الكتاب جانباً واستلقيت مكاني تاركة ذهني يشرد كيفما أراد. مر في خاطري شريط كامل عن أيامي السابقة. فإستفاق جسدي. نهضت بسرعة وتوجهت إلى المرآة أتفحص هذا الجسد المنسي. وقفت أمامها أراقب تفاصيل وجهي الذي كدت أنساه. أحب هذا الوجه الذي بدا لي في تلك المرآة مهملاً وجافاً. أخذت بعض الملينات ودلكته كي يستعيد ألقه، ولاحظت أن بعض الشعيرات قد ظهرت ما بين الحاجبين فاستأت من إهمالي هذا، وأخذت ملقطاً صغيراً وبدأت أزيل تلك الشعيرات لأعيد إلى وجهي تلك الصورة التي أحب.

قرع الباب! من؟ نظرت من الداخل وإذا بهاني! يا إلهي هل شعر بأن جسدي يناديه؟ هل أعود إليه؟ افتعلت الاستياء وفتحت له الباب. كان مرتبكاً وغاضباً. افتعل، هو أيضاً، ابتسامة وقال: "هل أدخل؟" عز علي إنكساره وقرأت العشق في عينيه:

-تفضل، ادخل.

دخل متردداً وجلس كأنه ضيف عادي، لم ينظر إلي مباشرة، جال بنظره في كل انحاء البيت وكأنه يتهرب من شيء معين. كنت أراقبه وأراقب نفسي، وشعرت أني سألبي نداءه إذا فعل. هل يسمع تململ جسدي كما صراح جسده؟ لكني تمالكت أعصابي وقررت الا أبادر وتركته يقرر.

طال صمتنا، وأخيراً نظر إلي بحنان كبير وحاول الكلام، ولكنه ابتسم وقال: "هبى... " ولم يتابع. شعرت حين لفظ إسمي أني أصبحت بين شفتيه. ولكن سرعان ما عدت إلى مكاني وسألته من غير أن ألفظ اسمه:

-ما بك؟ هل من جديد لديك؟

كان سؤالاً سخيفاً جداً ولكنه فرح به وبعد تململ وتردد بسيطين قال:

-هبى من هو المحامي الذي تسلم دعوى طلاقك؟

فاجأني بالسؤال فانزاح انتباهي عن جسدي وسألته: "لماذا؟"

-قررت الطلاق وأود أن أستشير محامياً في الموضوع وفكرت أنك، بسبب تجربتك، قادرة على إرشادي.

-إنه فلان. ولكني لم أره منذ مدة طويلة بسبب الاحداث، ولا أدري إذا كان يمارس الآن نشاطه. وهل من محاكم.

-وماذا جد في دعواك أنت؟

كانت ما زالت عالقة وكنت بعيدة عن الموضوع لاني كنت أعتبر أن الواقع هو الذي يحدد الامور وليس المحاكم حتى ولو كانت شرعية. كنت أعتبر نفسي مطلقة حتى قبل صدور الحكم بالطلاق. وأجبته:

-لا أدري.

-ما رأيك لو اتصلت به وسألته عن قضيتك وفي الوقت نفسه طلبت لي موعداً معه؟

اتصلت وحدد له موعداً؛ كان الموعد في الاسبوع التالي. أقفلت السماعة واخبرت هاني بالموعد. أبدى سروره ودنا مني قائلاً:

-هبى أحبك وسأفعل المستحيل كي أبقى معك. والآن ما رأيك لو دعوتك لتناول العشاء معي؟

كنت أنتظر منه أن يضمني إليه، أن يقبلني، أن يروي عطش جسدي. لكنه لم يفعل وأمام سكوتي الذي ما كان يعني رفض دعوته بل استيائي من تجاهله لحاجتي الراهنة، قال:

-اعتبريني صديقاً يدعوك إلى العشاء. فلا داعي للرفض، إنك تخرجين مع أصدقائك فلماذا لا تخرجين معي؟

-لأنهم أصدقائي، أخرج معهم، أما أنت؟ لم يتركني أتابع وسارع إلى القول:

-ولأنهم أصدقاؤك تذهبين معهم إلى بيوتهم وحدك.

-ماذا تعني؟

لم يجبني، اقترب مني، أخذ وجهي بين يديه ثم قال:

-لا أريد أن يلمسك أحد سواي، لا أستطيع تحمل ذلك. ربما لا يحق لي أن أفكر هكذا، ولكني غير قادر على تصورك مع غيري. إنه شعور أقوى مني. صمت قليلاً ثم تابع:

-ولكن إذا كنت أنت تريدين ذلك سأنكفئ وأعض على جرحي كي تكوني أنت سعيدة!

-لم يمسني أحد! قلت بإنفعال، ثم أني أنا من يقرر في هذا الموضوع، لا أنتظر إذنا من الآخرين.

ظننت أنه سيستاء من جوابي هذا، ولكنه ابتسم وضمني إليه قائلاً:

-هل صحيح أنه لم يلمسك أحد؟ ومن هو هذا الشخص الذي كنت برفقته اليوم...

-من تقصد؟

نظر إلي كمن يقول: "لا تكذبي إني رأيتكما معاً". إغتظت من نظراته هذه وصحت به: "هل تراقبني؟"
-نعم بكل تأكيد! لأنني أحبك. يمكنك ألا تحبيني ولكنك لا تستطيعين فرض أحكامك علي. وأنا أحبك، قالها وهو يقبلني بعنف كأنه لا يريد كلاماً بعد بوحه هذا.

قبلت دعوته إلى العشاء. دخلت غرفتي أتفحص خزانة ثيابي لاختار فستاناً أرتديه لتلك السهرة. ورويداً رويداً بدأ جسدي يستعيد حضوره الذي غاب في الفترة السابقة. ورأيت نفسي أمام المرآة شخصاً آخر، ولكنه شخص شعرت أني أشتقت اليه، فأرتديت أجمل ما عندي وتبرجت كما كنت أفعل في السابق وفرحت بهذا التجديد لصورة الجسد.
دخلنا مطعماً، فخماً، واتجهت عيون الحاضرين إلي، فإزددت وثوقاً من نفسي وانتعش جسدي الذي شعرت أنه يمثل كل كياني من دون أن يزعجني هذا الشعور، وغاب إلهم الثاني، أو ما أسميه طموحي، عن رأسي وأصبحت امرأة أنثى من جديد. وكانت نظرات هاني إلي ووجوده قربي بكل جوهره الذكري يعززان شعوري بأنوثتي، هذا الشعور الذي طغى على كل ما عداه.

عادت حياتنا إلى نمطها السابق واكتشفت من خلال ممارستي لها أني فعلاً أحب هذه الحياة المترفة. أحب الرفاهية، أحب صورة المرأة المدللة الغنوج التي يهتم بها رجل يوفر لها لك أسباب الراحة والعيش السهل. وكان يراود ذهني أن المرأة التي تعيش هكذا لا تحتاج إلى المطالبة بالتحرر أو بغيره. وإذا وعت وضعها جيداً، فهمت أنها هي التي تستغل الرجل. من هنا كان مطلب التحرر هذا هو للطبقات الفقيرة فقط.المرأة التي يؤمن لها كل ما تريد لتحقيق انوثتها ليست بحاجة إلى أن تعمل لا بحاجة إلى المطالبة بالمساواة. ولماذا المساواة إذا كانت المرأة قادرة على أن تحصل على كل ما تريد، كأنثى، من دون أن تقوم بأي جهد سوى العيش مع الرجل الزوج الذي يؤمن لها كل متطلباتها؟

أصر على كلمة أنثى لان المرأة كأنسان تغيب، تصبح موضوعاً لا ذاتاً objet et non sujet، وهذا التحول مريح لفترة لأن ممارسة المرأة لانسانيتها، في مجتمعنا، عمل شاق ومضن. ولهذا السبب ارتحت في عودتي إلى هاني. ولكن هذه الراحة التي استمتعت بها في البداية، بدأت تتقلص إلى أن تحولت إلى تعب بعد فترة قصيرة. بدأت أشعر بالملل وبرتابة هذا النمط من العيش، فهو نمط يستهلك بسرعة، وحين تتبدى تفاهته تسقط متعة الشعور بالجسد ليحل محلها مرارة

الشعور بالقلق التي بدورها تستدعي ضرورة المرآة الأخرى، مرآة الذات، لا مرآة الصورة البرانية.

وهكذا لم يدم مكوثي في الجسد طويلاً، إذ باشرت بالبحث عن وسيلة تخرجني من عالمه اللزج.

-57-

ماذا سأقول لها إذا سألتني ماذا فعلت مع المحامي؟ لقد زرته فعلاً، وأجبته على بعض أسئلته، وطلب مني أن أحضر له ملفاً كاملاً عن وضعي لكي يدرسه ويرى إمكانية طلب الطلاق. ولكني على الرغم من زيارتي له كنت واثقاً أني أقوم بعمل غير مقتنع به، لأنني لا أريد الطلاق. قمت بالخطوة الأولى كي أثبت حسن نيتي أمام هبى. وتعمدت أن أخبرها بما قمت به، فإستمعت فقط، من دون تعليق، ثم تجاهلت الموضوع ولم تعد تسألني. فارتحت ونسيت الموضوع بدوري واصبحت شبه مقيم معها.

بعد فترة لم تطل، بدأت هبى تنغلق على ذاتها وتفتعل المشاكل بيننا، وتحاسبني على أي تأخير، هي التي كانت تنتظرني مهما تأخرت عنها من دون أن تعاتبني، وتوصلت إلى أن تطلب مني أحياناً أن أذهب إلى بيتي وألا أبقى معها. كنت ألبي رغبتاتها وأداري كل تغيراتها لاحافظ عليها وأبقى بالقرب منها. وكلما زاد جفاؤها زاد تعلقي بها إذ أن الجفاء ما كان يعني لي إلا تعلقها بآخر. وحين كنت أسألها كانت تجيبني بإنفعال:

-أتظن أن ليس عندي هم إلا البحث عن رجل! أتظن أني سأتركك من أجل رجل آخر؟ الرجل هو الرجل! وأنت، على هذا الصعيد، يمكن أن تكون أفضل من غيرك.

كنت أرتاح لجوابها، ولكنها بعدت عني وأخذت ترفض كل دعواتي، حتى أنها، في السرير أصبحت باردة وكأنها ترفضني.

-هل تريدين أن أتركك لفترة؟ سألتها يوماً. هكذا أعود أنا إلى عملي وأنت ترتاحين... مني. وبعدها نستأنف حياتنا من جديد.

-اعتقد أنك وجدت الحل. فلنفترق كما قلت.

-58-

نسمع الصوت إذا همس، والنداء، له نعقٌ. روي عن أفعى أنها ألفت جلدها فماتت اختناقاً. أكلتها الأفاعي الأخرى وتلذذت، رفعت رؤوسها وهتفت: "ربي إجعل لنا في كل موسم ضحية". أكملت الارض دورتها. حان الوقت. تجمعت الافاعي في المكان نفسه تستعيد طعماً لما تنسه بعد. اكتملت الحلقة، ساد السكون أنتظارا، نبتت أفعى من الارض، خلعت جلدها، التحقت بالدائرة، وتوزعت الافاعي فرادى، كشطت جلدها، دفنته في التراب. غاب الانتظار وما لحق به من ألفة للمكان. يبدو أن المركز لا يحدد الدائرة، هو دائماً مؤجل نحاوله ونفشل، نلتقطه ونفشل. هل فهمت الآن أن مركز الدائرة خارجها، وأن الكون ليس دائرة وان العقل مرآة مشوهة؟

كنت أهلوس حين أنتبهت إلى نفسي وأخذت أبحث عن مركز الدائرة حين رحل هاني وتركني. صممت على الانخراط بجدية في النشاط الحزبي وفي العمل. وما هي إلا أيام قليلة حتى اتصل بي أحد المسؤولين في الحزب وسألني إذا ما كنت جاهزة للسفر إلى الهند لحضور مؤتمر ضد التمييز العنصري، في إطار مجلس السلم العالمي. كانت هذه المرة الثانية التي يطلب مني مثل هذه المهمة. المرة الأولى كان المؤتمر في "بال" في "سويسرا". ونجحت في ذلك المؤتمر في استصدار قرار إدانة من مجلس السلم لممارسات إسرائيل في لبنان، بعد أن أقنعت رئيس المجلس بأن الممارسات تلك تندرج في إطار التمييز العنصري.
يبدو أن الحزب وثق بي بعد المؤتمر الأول، وهو الآن يسألني من جديد أن أمثله في مؤتمر ثان. ولكن، في هذه المرة، أتى طلبه خشبة خلاص لي من ارتباكي وقلقي، أتى في الوقت المناسب لأخرج بواسطته من رتابة حياتي مع هاني وجسدي. وأجبت المسؤول:
-أنا جاهزة منذ اللحظة فمتى موعد السفر؟
-بعد يومين. غداً حضري جواز السفر وبعض الصور لطلب التأشيرة.

أقفلت السماعة وبدأت أحضر نفسي للسفر. وأول عمل قمت به هو كتابة دراسة صغيرة تتعلق بالموضوع كي تشكل نواة المداخلة التي سأقوم بها خلال المؤتمر.

في اليوم المحدد سافرت إلى موسكو ومنها الى الهند، إلى "نيودلهي"، حيث كان بإنتظاري اشخاص أوصلوني إلى الفندق المخصص للوفود.

كانت الجلسة الافتتاحية صبيحة اليوم التالي. دخلت قاعة المؤتمر الكبيرة. وأخذت مكاناً بين الحضور الكثيف وأنا أشعر بكل إنسانيتي. كنت عضواً في المؤتمر لا إمرأة أنثى. كنت أمسك بكل أبعاد شخصيتي المستنفرة لتساهم بإنجاح المؤتمر في قضية مهمة كقضية التمييز العنصري في العالم.

كنت أستجمع عناصر شخصيتي حين دخل القاعة شاب أشقر أنيق، طويل القامة، جميل الطلعة. دخل وسار بكل ثقة بالنفس متوجهاً إلى مكان شاغر حيث جلس. إنه حتماً يمثل إحدى الدول الاوروبية. وحين إنتبهت إلى ذاتي وأنا أراقبه وجدت نفسي أقول لنفسي :"أنه حقاً رجل جذاب". نقمت على ذاتي وأبعدت تلك المقاييس والمعايير عن ذهني وعدت إلى قاعة المؤتمر وصوت الخطيب على المنصة الرسمية.

بعد الجلسة الافتتاحية خرجنا لتناول القهوة والشاي في بهو المبنى. أتى ذلك الشاب وإنضم إلى الحلقة التي كنت أنا فيها. هل نظراته إلى تختلف عن نظراته إلى الآخرين؟ هل أتوهم أنه يراقبني ويصغي إلي بانتباه؟ يا إلهي ما أسخف شعور المرأة بأنوثتها حين تحول كل شيء إليها وكأنها مركز العالم! أهملت تلك الاسئلة وتعاملت معه كما تعاملت مع غيره، وسألته عن بلده واسمه كما أجبته عن أسئلته حول المواضيع نفسها.

حين انتهت الاستراحة وعدنا إلى القاعة، وجدت ذلك الشب الفلندي "بورغ" يتوجه مسرعاً لاتخاذ مقعد قرب مقعدي، وجلسنا نستمع إلى الكلمات التي كانت تلقى بحماسة وحرارة. كان بورغ إلى جانبي يصفق لكل مشترك ينهي كلمته، ثم يضع ذراعه خلف كتفي، يضمني قليلاً إليه لكي يسمعني تعليقه على ما كنا نسمع. كان لطيفاً ولمساته رقيقة ومنعشة. وهكذا أصبحنا نبقى معاً داخل القاعة وخارجها حتى أصبحنا موضوع نقد محبب من قبل الآخرين، لأننا كنا ننتمي إلى اللون اللابيض الذي كان وجوده قليلاً في ذلك المؤتمر. وحين انتبهت إلى هذه الناحية، سألت نفسي، لماذا أستلطفت ذلك الشاب، ولماذا استهواني أكثر من غيره. هل هذا يعني أني، غرائزياً، عنصرية؟

أتى دوري للكلام، صعدت إلى المنصة. "أيها السادة" قلت وجال نظري في تلك القاعة، فبدت لي الوجوه كلوحة سوداء تخترقها بعض الثغرات المضيئة. ولكن سرعان ما انتبهت إلى ذاتي. أدركت أن هذا الذي تخيلته، للوهلة الأولى، يدخل تماماً في صلب التمييز العنصري، إذ أنني شبهت الوجوه السود بلوحة سوداء،

وشبهت الوجوه البيض ببقع الضوء. استبدلت الصورة بغيرها، حيث بقيت اللوحة السوداء مكانها، لكنها أصبحت ملطخة ببعض البقع البيضاء. حينها تساوى اللونان أمامي وعدت إلى الورقة أقرأها بإنسجام مع نفسي، لانها تركز على مساوئ ولا أحقية التمييز العنصري. لكن هذه التشبيهات التي قمت بها والتي مرت في ذهني بأقل من ثوان، أثبتت لي أني على صعيد الغرائز واللاوعي إمرأة عنصرية تتحول، على صعيد الوعي، إلى نمرة شرسة تناضل ضد التمييز العنصري. فما هذا التناقض؟ وأيهما هو الحقيقي في شخصيتي؟

دام المؤتمر أسبوعاً كاملاً ومددت إقامتنا في "نيودلهي" ليومين آخرين بسبب عطل في الطائرة المخصصة لنقلنا إلى "موسكو" كان "بورغ" يلازمني كل تلك الفترة وقاومت كثيراً كي لا أنجر إلى مغامرة جنسية معه. كنت مصممة على الابتعاد عن الجسد لأنه يسقطني في مفهوم الانثى التي كنت، في تلك الايام، أرفضه، لأعيش إنسانيتي خارجها.

يبدو أن المرأة تستطيع أن تمارس الفصل بينها وبين جسدها، لذا كان البغاء مهنة النساء.

-59-

تركتها وعدت إلى عالمي. عادت زوجتي من رحلتها، وأصبحت أرجع كل ليلة إلى البيت، وأفهمتها أن رجوعي هذا هو احتفاء بمجيئها وعودتي كل ليلة أخفت عن ناظريها قلقي الذي سببه اختفاء هبى. كنت أتصل بها كل ليلة ولم يجبني أحد، أدور حول بيتها، أجد سيارتها، أصعد إلى بيتها، أطرق الباب، لا أحد يفتحه. انشغل بالي عليها. وفي اليوم الثالث قررت أن أفتح الباب، كان ما زال مفتاح بيتها معي، وأستفقدتها. لم تكن في الداخل. كل شيء في مكانه إلا هبى. بحثت على مكتبها عن ورقة، ربما تركتها لي لتفسر غيابها،لم أجد شيئاً. أين هي؟ ولماذا لم تعلمني بغيابها؟ ذهبت في اليوم التالي إلى محل عملها وانتظرت أمام الباب الخارجي. انتظرت طويلاً ورأيت بعض الاشخاص الذين كانوا يرافقونها أحياناً، يخرجون من ذلك الباب ولم أرها هي. مكثت حيث أنا إلى أن تأخر الوقت وخلا المكان من كل أنس، فعدت غلى البيت وأصبحت أتصل ببيتها كل يوم، ولم أسمع صوتها إلا بعد عشرة أيام.

-هبى أين أنت؟ برمت الدنيا عليك.

-كنت خارج البلاد.

-إني آت إليك.

أقفلت السماعة وذهبت.

-60-

إنني غير مستعدة بعد للعودة إليه. لم أشتق بعد إلى جسدي. مقاومتي له كل فترة المؤتمر لن أهدرها الآن. ثم أني لم أشبع رغبتي بعد من ممارسة ذاتي. لن أستسلم له ولا لإغراءات الجسد.

أتى وكله اندفاع وشوق. قبلني بحرارة وأخذ يستفسر عن غيابي. أخبرته أين كنت وما هو الدور الذي قمت به. كان يسمعني وكأنه غير معني بكل ما أقوله وحين توقفت عن الكلام سألني:

-ألم يعجبك أحد في المؤتمر؟

-لا!

-إنك لي وحدي! أعرف ذلك.

أحسست بسخفه وأجبته:

-لست لأحد، أنا لذاتي.

-تفهمين قصدي.

ثم أقترب مني وحاول مداعبة جسدي، فابتعدت عنه وتحججت بالتعب وطلبت منه أن يؤجل شوقه إلى يوم آخر، لأنني بحاجة إلى النوم والراحة. استجاب لطلبي وانصرف وهو يوصيني بأن أشرب الشاي الساخن الذي كان قد حاول أن يحضره لي ورفضت.

شعرت حين رحل أني أمتلك كل أجواء البيت وأمتلك نفسي جيداً. وهذا الشعور أعطاني قوة للمثابرة على الابتعاد عنه. كنت كمن يلاقي نفسه من جديد في تلك الليلة. كم أحب الوحدة أحياناً، وكم هي منعشة حين يكون المرء بحاجة إليها. نسيت كل شيء وبدأت أغازل وحدتي التي كانت معي كأنها شخص آخر.

عاشقين سنبقى أنا ووحدتي. أعود إليها بعد تشردي، أستغفرها، رحيمة هي، هجرتها انتظرتني، خنتها، أبت الخيانة، تعففت لعنتها، ابتسمت. رجمتها تجوهرت، دفنتها فإنبعثت. غيبتها احتلت كل ذاكرتي. استشرفت الحياة فتحولت أفقي. هربت منها، فإذا بي أهرب إليها هي احتوائي، هي أمسي وهي غدي. يبدو أنها قدري!

تسلحت بوحدتي وخرجت من جديد إلى العمل في المؤسسة، وإلى النضال في إطار الحزب. كثرت لقاءاتي بعيسى الذي دخل عالمي مخترقاً وحدتي من دون أن يمسها، كأنه من نسيجها. وأخذ الكلام بيننا يتطرق إلى النواحي الشخصية

وأفهمني، خارج القول الصريح، أنه على وشك الطلاق من زوجته لأنهما متفقان على ذلك منذ البداية. كلامه في الموضوع كان مختلفاً عن الكلام نفسه الذي سمعته من مدير المؤسسة سابقاً. أحسست أنه كلام صادق.

كنت أشعر وأنا معه بأني أتمتع بكل حضوري، حيث لا تناقض بين جسدي وبيني. أرتاح إليه وأحدس أنه هو أيضاً يرتاح إلى ويبحث عني كما أصبحت أبحث عنه. هل يراني مرآة لذاته كما آراه أنا مرآة لذاتي؟ لم أسأله وهو لم يقل شيئاً، لم يطلب شيئاً محدداً. كان كلامه، دائماً، تلميحاً ذكياً ألتقطه أنا بفرح وأتعمد تجاهله لأجره إلى التصريح ولكنه لم يفعل. بدأت أحبه وأميل إليه ولكني أبيت أن أبوح له بهذا الشعور إن لم يبادر ويقوله هو أولا.

لماذا أخبرني عن طلاقه؟ كان على علم بعلاقتي بهاني وقد أدرك منذ البداية أنها علاقة غير متوازنة، ولكنه لم يتكلم عليها إطلاقاً وكأنها خارج ما أصبح بيننا.
-سأسافر أنا إلى باريس وستسافر هي إلى... لتكمل دراستها، وهكذا حين أعود يكون الموضوع قد انتهى بيننا. توقف عن الكلام ثم تابع:
-هل أجدك حين أعود؟

فهمت قصده ولكني افتعلت الغباء وأجبته:
-حتماً! فأنا هنا.
ابتسم وفهم أني فهمته ثم قال:
-سأتصل بك من باريس وسنلتقي حين أعود.
ماذا يقصد بـ "سنلتقي". هل يقصد اللقاء الحقيقي كما فهمت أنا، أم أني أسقط شعوري على الكلمات وأحملها أكثر مما تحتمل؟ هل يحبني؟ كنت أقرأ ذلك في عينيه واطرب لتعليقات الاصحاب حول الموضوع. ولكن هو لم يعبر عن ذاته. تركني في حالة من الغموض. لم يغازلني يوماً ولم يثن على شكلي وتأنقي مهما تألقت، وكأنه لا يهتم بجسدي. هل لاحظ أني أهمله فتجاهله هو أيضاً لم يقل لي أني جميلة، لم يبد أي إعجاب بمنظري. هل يتعمد ذلك أم أنه هكذا؟ سأتأكد من كل هواجسي حين يعود. وسأتصرف وفقاً لقناعاتي وميولي التي ستنتج عن ذلك التأكد.

-61-

هل تشعر تجاهي بمثل ما أشعر أنا تجاهها؟ ألاحظ إنفعالها حين نلتقي ولكنه إنفعال يتوقف عند حدود الاعجاب بناحية واحدة مني وهي الفكر والثقافة. هل أعني لها، فقط، هذه الناحية؟ هل تنظر إلي بعين واحدة لترى هذا البعد فيّ وتهمل

الإنسان العادي، الانسان الذي يشعر ويحب وينفعل و... أنا أشعر بكل كيانها، أحبها كائناً مفكراً. وأحبها كإمرأة أنثى. هل تحبني كرجل ذكر؟ هل جسدي يعني لها ما يعني جسدها لي؟

كنا مرة على شاطئ البحر. كنت أراقب جسدها الذي أعجبني، حين دنت مني وأحسست بتلك الارتعاشة الاولى تجاهها. جال نظرها على جسدي وتوقف فجأة على ساقي اليسرى وسألتني ما هذا؟ لم أرتح لسؤالها لأن نظراتها إلى تلك التألولة في ساقي كانت مزعجة، إذ أنها لم تعن إلا النفور من شيء بشع. وهكذا أصبحت كلما التقينا في ما بعد أتذكر تلك النظرات فأشعر أن جسدي تحول كله في نظرها إلى تلك التألولة في ساقي اليسرى. وهذا الشعور كان يقيد تحركي ويربكني ويبعدني عن موضوع الجسد، حتى أني كنت أتصرف بشكل يجعلها تظن أني أتجاهل جسدها. كنت أحاول، فعلاً، أن أتجاهله كي لا أتذكر تلك النظرات وشعوري تجاهها.

وصلت إلى باريس وأول عمل قمت به هناك، كان زيارة طبيب جراح خلصني من تلك التألولة في ساقي اليسرى. وحين أزالها استعدت نفسي وتقصدت، حين عدت إلى لبنان، أن ألتقي هبى على شاطئ البحر، كي تفهم أنني تخلصت مما يزعج نظرها وأ،ي فعلت ذلك من أجلها. لكن هبى لم تنتبه إلى شيء. كانت فرحة بي وكنت فرحاً بها، وعدم ملاحظتها لما كنت أود أن تلاحظه أسعدني، إذ أنه بدد شكوكي السابقة وألغى تفسيراتي وتأويلاتي حول الموضوع. ولكننا لم نلتق كما أردت اللقاء. ظللنا أصدقاء نتواجد معاً حين تجمعنا الظروف، وأحياناً نفتعل الظروف من دون جدوى. هل أبادر وأعبر لها عن شعوري؟ لكنها تعرفه جيداً فما نفع القول؟ لو أنها تريدني فعلاً لأقدمت!

-62-

سافر عيسى وشعرت إني أشتاق إليه، وصرت أنتظر اتصاله من الخارج وكان يتصل باستمرار من دون أن يعبر عن شوقه، فأتكلم معه وألجم شوقي، فيأتي حديثنا، إذا ما اكتفينا بالنظر إلى منطوق الكلمات، تافهاً أو عادياً جداً. هل يفرح مثلي بالاتصالات هذه؟ بالتأكيد! لأن أحداً لا يجبره عليها فلماذا يقوم بها إذا؟

دعيت، في غيابه، إلى المشاركة في ندوة، دفعني موضوعها إلى الاتصال بأحد المفكرين الكبار وهو معروف جداً. كنت لا أعرف إلا اسمه فقط. اتصلت به وطلبت منه كتبه. كان لطيفاً جداً أذ أتى بنفسه وقدم لي كتبه. رجل ديناميكي ونظراته ثاقبة، نافذة، تخترق الآخر مهما تقنع. نظر إلي مقطب الحاجبين، ثن

إنفرج وجهه وأخذ يشرح لي فكره ليسهل علي قراءة مؤلفاته. كم كان فكره واضحاً وكم كان يعرضه بمنطق متسق! شوقني إلى قراءته وأيقظ في داخلي ذلك الطموح الذي كنت أبحث عن تحقيقه، وشعرت بالغيرة منه، هو الذي استطاع أن يحقق ذاته في الكتابة، وطرحت السؤال على نفسي: لماذا هو استطاع وأنا لم أستطع بد؟ هل هو أذكى مني؟ أم أنه أجرأ وأكثر التصاقاً بنفسه؟

حين أصبحت وحدت شرعت مباشرة بالقراءة. كنت جدية في عملي هذا، إذ أغلقت كل نوافذ نفسي لأتفرغ لذلك النشاط ولأن الكاتب كان قد وعدني بزيارة ثانية، بعد يومين، لتوضيح ما قد يبدو لي غامضاً في كتاباته وللمناقشة إذا أردت. قرأته بنهم الجائع ومتعة المحروم. كان فكره حلقات تخرجج من بعضها باتساق كلي تتواصل، حيث ان القارئ لا يستطيع المتابعة إذا اغفل حلقة من الحلقات. ردني إلى أيام دراسة الرياضيات التي كنت أحب، وأعشق، فالقارئ ينساق طوعاً الى النتائج التي توصل اليها، وإذا ما إقتنع بالمقدمات يصبح عاجزاً عن الخروج من ذلك البيان الذي تتمدمك حجارته بفن وإتقان كبيرين. وحين ينتهي من القراءة يرى نفسه أمام عمارة من المستحيل خرقها، إذا أنها محكمة البناء، من دون ثغرات إطلاقاً.

"محمد"، ذلك الكاتب، كان رفيقاً لنا في الحزب، وهذا ما سهّل علي إمكانية الاتصال به، وهذا هو السبب أيضاً الذي جعله يقدم لي كتبه من دون أن يعرفني شخصياً، وهذا أيضاً ما مهد لنا الطريق إلى لقاءات لاحقة.

كنت أقرأه في فترة اليومين، وأنقم على نفسي التي بددت قواها وطاقاتها في اللهو والعلاقات غير المجدية، وشعرت أن الوقت يهرب مني ليضعني أمام صورة لذاتي ، فارغة إلا من بعض التسليات العابرة. اقفلت الكتب وأخذت أفكر بنفسي، وحين إنجلت أمامي وجدت أن الكتابة التي أعتبرها تحقيقاً للذات، لا تأتي هكذا، لا تكون هواية، لأنها تتطلب التفرغ والارادة والصبر والمثابرة، فأين أنا من كل ذلك؟ سأساله حين يأتي عن نمط حياته ونوعيتها وكيف يتحكم بوقته ليتمكن من الانتاج بهذا الشك.

إتصل بي قبل أن يأتي وأفهمته أني أنتظره. التقينا كأننا أصدقاء من زمن بعيد، ودار بيننا حوار طويل وفرح هو بي لقدرتي على التقاط فكره الذي، يبدو، أن القليلين التقطوه وفهموه كما ينبغي. وتوقفنا عند نقطة أساسية وهي مضمون "الايديولوجيا المسيطرة" في عالمنا العربي. وهنا ظهر الخلاف بيننا إذ كنت أرى

أن هذه الايديولوجيا هي الدين بينما كان هو ينفي ذلك بقوة ويعتبر أنها تظهر، فقط، بهذا الشكل مرحلياً لتخفي مضمونها الحقيقي الناتج عن الصراع الطبقي أو صراح الطبقات. حاولت الاقتناع برأيه لأني كنت أود أن يكون صحيحاً، ولأنه يفسح في المجال أمام امكانية النضال بينما النضال في اتجاه رأيي أنا صعب جداً، إذ أنه يطال أهم ركيزة من هوية الانسان العربي. هل لنظرية، مهما تكن متسقة، أن تغير واقعاً لا تراه؟

لم استطع خلال هذه الجلسة طرح الاسئلة التي كنت مصممة على طرحها، ولكنه عاد وزارني من جديد وقرأت عليه ما كتبت في موضوع الندوة وصحح لي بعض التعابير، وأضاف بعض المفاصل اللغوية التي توضح الفكرة. حين انتهينا شعرت ان الوقت قد حان لطرح اسئلتي، لكنه لم يتركني أفعل وبادر إلى سؤالي عن حياتي، فأخبرته بإختصار.كان صامتاً يصغي إلي ولم يتدخل إلا حين تكلمت عن علاقتي بهاني، وقال:
-إنها علاقة غير منتجة، بل إنها مبددة، تبعثر الطاقات وتهدرها في غير محلها الحقيقي. ثم تابع وكأنه يشجعني : أنت تلمكين طاقات مهمة وعليك توظيفها في الانتاج الفكري.

كنت، في تلك المركلة أتوق إلى هذا النوع من الانتاج، فاستنهضت نفسي وبدأت أكره هاني، أو بالاحرى، أكره صورتي مع هاني، وقررت إبعاده عن حياتي وقمع ميولي نحوه ونحو جسدي، لاتفرغ لما استيقظ في نفسي من صبوة للكتابة، وللغوص في عالم الفكر والثقافة الذي شعرت به كأنه البحر الذي اخرجت ذاتي منه، لأختنق على بر جاف وموبوء.

أصبح محمد يزورني كل ليلة، وتحولت لقاءاتنا إلى مزيج من الحوار الفكري وقراءة الشعر الذي يكتبه حين يتركني ويعود إلى بيته. يسحب ورقة من جيبه ويقرأ. غزلاً كان شعره، ولكنه غزل من النوع الرفيع المشبع بإضاءات فكرية. تكشف لي، حينها، وجه الآخر. على كل حال لم يتركني أكتشف هذا الوجه إذ أنه بادر إلى الغزل المباشر واخذ يلامس يدي وبعض أطراف جسدي وهو يقرأ شعره. هل أدخل الجسد في علاقتنا؟ هل أحولها إلى علاقة حب؟ وهل الحب يفتعل؟ سأكتفي باللقاء الفكري بيننا لأني أعرف نفسي جيداً، وأعرف أن للجسد عندي متطلبات غير الجنس وحده. حين أفلت العنان لجسدي أتوق إلى العيش المرهف، وإلى عالم آخر غير العالم الذي يجمعني بمحمد. وهكذا صمدت أمام كل تقديماته ومحاولاته.

عاد عيسى لينقذني من خلواتي مع محمد، وأصبحنا ثلاثة نلتقي ونتحاور ونناقش، وأنا مشدودة إليهما معاً، مع رجاحة في الميل نحو عيسى الذي كان اللقاء معه أشمل من اللقاء إياه مع محمد. وحين كنت التقي أحدهما على انفراد كان الآخر بيننا إلى يوم قال لي فيه محمد وقد أدرك واستوعب أن علاقتي معه تتوقف عند حدود معينة وفهم ميولي نحو عيسى:

-هبى! لن أتركك لسواه، ولن أتركك تغوصين من جديد في عالمك الرتيب التافه!

شجعني قوله هذا. لكن عيسى وعلى الرغم من لقاءاتنا الكثيرة العادية والمفتعلة، لم يصرح عن ميله تجاهي. هي ينتظر أنا ابادر أنا؟ وهل أبادر وإمكانية الصد واردة لو واحداً في الالف؟ لا! فإن لم يفعل هو أولا لن أفعل!

أصبح هاني هامشياً في حياتي. يتصل بي فاصده وأتهرب من مواجهته، وألفق الآف الذرائع لعدم لقائه، خوفاً من ضعفي وإمكانية انسياقي وراء جسدي ومتطلباته، لو عدت ورأيته. فأكتفى بالاتصالات الهاتفية وابتعد عني بعد أن أفهمني أنه يبتعد نزولاً عند رغبتي وأنه يحبني ولهذا السبب لا يريد مضايقتي. لكنه ينتظر إشارة مني كي يعود ويحضنني ويلبي كل رغباتي. كلامه هذا. وإن اشبع نرجسيتي، حاولت إبعاد نفسي عنه وعن إغراءاته، وغصت أكثر في علاقاتي الاخرى التي كان محورها الاساسي يدور حول عيسى ومحمد.

كنا في بداية سنة 1982، حين بدأت ألاحظ أن عيسى أصبح ينغلق على نفسه، وفي لقاءاتنا الحزبية كان معارضاً سافراً لتوجهات الحزب وسياسته. وظهر الانقسام داخل الاجتماعات العامة واضحاً، حيت تجمع البعض، وكنت أنا منهم، حول آراء عيسى وبقيت الاكثرية تدافع عن آراء محمد التي كانت مطابقة لآراء الحزب، والعكس صحيح.

بعد إنتهاء أحد هذه الاجتماعات، عدت مع عيسى و محمد إلى بيتي، وتابعنا الحوار. طالت السهرة مما استدعى ضرورة الاكل والشرب، فأحضرنا ما تيسر وجلسنا حول طاولة صغيرة، نشرب ونأكل ووتيرة النقاش تتأزم مع تناقص الويسكي في الزجاجة. كانا يتناقشان في موضوع حساس جداً حين تدخلت، وكانت مداخلتي تصب في اتجاه عيسى، فصرخ محمد: "الامر ليس كذلك يا عيسى"! أجاب عيسى وتجاهلني، ولكنه وهو يرفع صوته كانت يده قد امتدت إلى الطاولة وأمسكت بسكين وجهه نحو عيسى. ظننت وقتها أن السهرة ستنتهي بمشكلة كبيرة. ولكن محمد، سرعان ما قذف بالسكين على الطاولة وكأنه استدرك الامر، نظرت

إلى عيسى، كان هادئاً يبتسم وكأنه يقول: لا تحتاج الامور إلى كل هذه الحدة. وعادت الحياة الى مجاريها بينهما.

حمل "محمد" السيف، وقال "عيسى" : من منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر! وصار لكل منهما أتباع :ثر في كل الامم.

انتهت السهرة وغادراني. محمد خرج أولاً، وعلى باب البيت ذكرني عيسى بأن أمر به في اليوم التالي ليعطيني بعض الكتب التي ورد ذكرها في النقاش، والتي كنت أجهل مضمونها." إلى الغد، لا تنسي أني انتظرك". قال قبل أن ينصرف.

كم كانت هذه اللقاءات غنية على صعيد الفكر! كانت حافزاً للقراءة والبحث، عالماً آخر، له متعته التي تضاهي متعة الجسد وإن اختلفت عنها كلياً. إنه ينتظرني، قال، إنها المرة الأولى التي يشدد فيها ولو بخجل على لقائي. ماذا يقصد؟ هل هي طريقته في الافصاح عن ذاته؟ ربما! وربما، أيضاً، كانت رغبتي تريني الامور هكذا.

-63-

غفوت تلك الليلة على أمل اللقاء بها في الغد. كان رأسي يضج بأفكار كثيرة، حتى أني شعرت به مقسماً وفاقداً توازنه. ما هذا الذي يخلخلني هكذا؟ لماذا الحزب ينحو هذا المنحى؟ لماذا لا يرى الواقع كا هو؟ طرحت عندي أسئلة ضخمة وتبدت لي الفجوة التي تفصلني عن الحزب وكل توجهاته، شعرت بالدوار الذي لم يخرجني منه إلا صورتها، فتمسكت بها وأخذت أحاورها كأنها معي. صرحت لها عن حبي وتباحثنا في إمكانية العيش معاً، فارتاح توتر جسدي، وأخذني النعاس.

كنت أهيئ نفسي، في اليوم التالي، على التصريح اذا اصرت على عدم فهم التلميح، لكنها لم تأت. انتظرت إلى ما بعد الموعد بساعات، ومضى النهار بكامله وأتى الليل وأنا وحدي. هل أتصل بها؟ لا! عدم مجيئها دليل واضح على رفضها. أنغلقت على ذاتي أترنح بين صدمتين كبيرتين، صدمتي الفكرية مع الحزب وصدمتي العاطفية معها. لماذا ترفضني هي التي تظهر انها معجبة بي؟ هل هي معجبة بفكري ترفض جسدي؟

في اليوم التالي لم أخرج من البيت، أعدت على نفسي السؤال الذي طرحته أمس، تمثلت أمامي نظراتها المشمئزة إلى التألولة في ساقي. تفحصت جسدي وإذ بتألولة ثانية تظهر في مكان آخر من جسدي. وجدت نفسي أنظر إليها كما نظرت

هي إلى سابقتها. لن أتحمل مرة ثانية نظراتها تلك. أشعلت سيجارة، أخذت أحرت تلك التألولة اللعينة كأني أحملها سبب غياب هبى عني. مؤلمة جداً كانت العملية ولكني ثابرت على العمل حتى شعرت أن جسدي كله يحترق. وطرق الباب، فقاومت وجعي وفتحته. هبى! نظرت إليها بتعب كبير وقلت لها:

-أعذريني لا أستطيع أن استقبل أحداً. كنت أرفض أن ترى حالتي. أغلقت الباب دونها وانغلقت على ذاتي.

-64-

عدت خائبة ومجروحة في الصميم. هل يرفضني؟ ومن هو كي يرفضني؟ هل يعتقد أن إعجابي به وبفكره هو سبب كاف ليتصرف معي هكذا؟ ذهبت إليه بكل كياني لكي أعتذر له عن عدم مجيئي القسري أمس، حيث كنت أعاني ألماً كبيراً في الكلية التي يبدو أنها تحركت بسبب إسراف في شرب الكحول، وأفرزت حصاها التي تمزق المجاري في تنقلها. نقلت إلى المستشفى وعلق لي مصل يومها. ولكن هذا النوع من الالم ينتهي مع زوال السبب، وقد تم بسرعة وعدت إلى البيت صبيحة اليوم التالي، وأخذت أهيئ نفسي لزيارته. كنت أعتقد أني سأفاجؤه، ولهذا السبب لم أتصل به قبل الزيارة.

يغلق الباب دوني! بلعت الصدمة وحاولت عدم الاكتراث به. لن أفاتحه بالموضوع، لا تسمح لي كبريائي بذلك، فإن لم يعتذر هو سأتجاهله كلياً من دون أن أظهر ذلك، سألقاه كالعادة ولكن كأنه مثل غيره لا يعني لي شيئاً. هل كان برفقة إمرأة حتى رفض دخولي إلى منزله؟ لكنه كان يبدو محموماً ومتعباً. هل كان مريضاً؟ وهل في المرض عيب كي يخفيه عني؟ لا! بالتأكيد كان مع إمرأة أخرى. وما همني!؟ فإن كنت لا أعني له شيئاً فهو، أيضاً، لا يعني لي شيئاً. هنالك لقاء بيننا على صعيد معين، سأكتفي به، وليذهب بشخصيته الاخرى إلى الجحيم!

-65-

أصبحنا نلتقي كغريبين. انتظرت اعتذارها وتفسيراً لعدم مجيئها في الموعد الذي كان بيننا، فتجاهلتين كأنها نسيت الموضوع تماماً.

هل أصبحت عدوانية حقاً معي، أم أنا أراها كذلك؟ وماذا يعني سلوكها الجديد هذا؟ هل هو الرفض أم أنه يخبئ شعوراً آخر هو النقيض؟ من أين لي أن أعرف الحقيقة؟ هل أنكسر وأسألها؟ ترفضني وأسألها!

لا! لن أفعل. عليها أن تبادر إذا كانت ترديني.وإن لم تفعل فهذا دليل على صدق حدسي بأنها ترفضني.

تواجدنا معاً مرات عديدة ولاذت بالصمت. وبعد مضي أكثر من شهر، بدت عليها معالم التأنق من جديد. حتى أن قولها تغير إذ إنزاح عن الهموم الفكرية والسياسية التي كنا نعاني منها، ليصب في تفاهات العيش الرتيب القائم على المسرات البرانية التي تطال الجسد وتنعمه. هل تفتعل هذا القول لتفهمني أني غير قادر على تأمين ما تصبو إليه في هذا المضمار؟ هل هي، حقاً، تافهة أم أنها تتظاهر هكذا؟ ما هذا التناقض في شخصيتها؟ مالي ولها! فإن كانت ترفضني بسبب عجزي المادي فتلذهب حيث تشاء لم تعد تعني ليش شيئاً والحزب، أيضاً، لم يعد يعني لي شيئاً. أصبحت في شبه فراغ كوني. أين سأجد توازني؟ "الصعلكة"! إنها المخرج الوحيد لحالتي وقناعاتي الراهنة. ولكنها ماذا تعني في الحقيقة؟ هذا هو السؤال الذي أنقذني إذ حداني على البحث والتنظير في هذا المفهوم الجديد.

-66-

مزق محمد كل ما كتبه لي من شعر ورمى الاوراق في وجهي حين تأكد من رفضي لجسده. كنت محبطة وأريد الانكفاء على ذاتي. حتى لقاءاتي بعيسى في إطار العمل أو خارجه تناقصت لانه تجاهلني. لم يعطني أي تفسير لعدم أستقباله لي. حاولت مرات عديدة، ولكن بطريقة غير مباشرة، أن أجره إلى ما أريد سماعه منه، لكنه أصرّ على الصمت كأنه لم يفعل شيئاً تجاهي، كأن ما فعله كان أمرا طبيعياً علي أن أستوعبه وأقبله. كرهته وكرهت كل فكره وأخذت أبتعد عنه.

رحل محمد وأبتعدت عن عيسى وما زلت أصد هاني الذي كان وحده يلاطفني على الرغم من كل مزاجيتي غير المبررة تجاهه. أصبحت وحيدة، أذهب إلى عملي وأزور أهلي وأمضي أوقاتي عندهم كي أهرب من عالمي.

عدت مرة إلى بيتي، كنت منكسرة ومتعبة. استوقفني باب بيتي. شعرت أنه وحده ينتظرني. تأملته طويلاً فبدا لي وجهاً مسطحاً له عين واحدة. غرزت المفتاح في عينه، سعل، فتح فاه : "ادخلي اشتقت اليك". هل أنتظرك الباب يوماً؟ صفعته، صمت، دخلت في وحدتي.باب بيتي كان يعشقني ولا ينتظر غيري. لا يحاور سواي ولا يتطفل. أعجبت بإخلاصه الصامت واختنقت. حرسته فنام وصحوت أنا. أتت الدوائر وأخذت أدور وأدور. كرجت الحلقة المفرغة في البيت، خبطت النوافذ، وطرقت الباب. لكن لا جواب! يبدو أنه لا يسمع من الداخل، أذناه في

وجهه الثاني. سمعت خبطاً، سمعت أصواتاً تنادي. صرخت به: "هل صمّت أذناك أم أنت بلا سَمع"؟

-حمقاء اسكتي.تكوري فأنا انتشي. يسكرني رقصك الدائري، وأطرب لجسدك العاري، لن أسمح لسواي أن يرى لوعة التجبر وتدلي الورود. ارقصي! كل ما سواي عابر. ارقصي! أنا الشاهد الوحيد. ارقصي! أنا أعشق الجنازة.

استفزني فأجبته بانفعال لأبرر انكساري:

-مجنون أنت! هذا فرحي، أعانق ذاتي، وهل أصدق من الذات؟

-كفاك تمرداً، لا تكذبي.إني أقرأ الحزن في عينيك وألمس الألم الراقص. هل تخدعينني؟ لا تحاولي. كم مرة لملمت دموع قهرك؟ كم مرة كشفت كبرياءك؟ تتعرين أمامي وتكذبين بصري؟ عيناي لا تخطئان، أذناي، هنا، في الداخل، لا تسمعان الصخب، بل همس الرموش المبللة، ونغم القلب اليائس، وطقطقة الغصة في الحنجرة.ارقصي الما، لا تراوغي، ولا تخافي مني، فأنا أسمع وأرى ولكني بلا فم!

طرف خفيف على الباب.من يزورني في ثل هذا الوقت؟ لم أتحرك، لا أسمح لأحد أن يراني في مثل هذه الحالة من الاحباط. لن أفتح الباب. عاد الطرق، يبدو أنه مصر على الدخول. طرق آخر. وقفت ومشيت حافية القدمين لأرى من ثقب الباب من الطارق من دون أن يشعر هو أن أحدا في الداخل.

هاني هو الذي كان في الخارج. هل أفتح الباب له؟ ترددت قليلاً. كان واقفاً ينتظر. وحين رفع يده ليطرق الباب من جديد فتحت له. دخل، ضمني اليه وهو يقبلني قائلاً: "ما عدت قادراً" على الفراق، فأتيت في هذا الوقت ولو كان يزعجك".

لم أجبه، وضعت رأسي على كتفه وارتحت، شعرت أن شيئاً مؤلماً أخذ يتبخر من كل مسام جسدي، أنه شعور ذكرني بذلك الذي مررت به حين أخضعت للمسكنات على أثر النوبة الرملية منذ فترة. كان الالم يخف تدريجياً، يتسرب من جسدي بمتعة تشبه الخدر، فغاب وجه وحضر آخر ليستبد بكل شخصيتي.

-67-

حاولت أن ابتعد عنها نزولاً عند رغبتها. انغمست في حياتي العائلية وحاولت أن أنساها. ولكن كلما كنت أخلو بنفسي كانت معي وكلما رأيت إمرأة تشد انتباهي تظهر صورتها أمامي. كلما مارست الجنس مع زوجتي كنت أمارسه معها. لماذا ترفضني؟ هل تعرف أني ما زلت على علاقة بزوجتي؟ هل أكتشفت ما حاولت إخفاءه عنها؟ لم ألاحظ ذلك. هل لديها عشيق آخر؟ حاولت مراقبة تحركها عن بعد

ووجدت أنها لا تعود في المساء إلى البيت بل تذهب إلى بيت أهلها. ترددت في زيارتها هناك، وما نفع الزيارة، ما دام لا إمكانية للكلام معها وهي عند أهلها؟

مر شهر على هذه الحالة، إلى أن وجدت بيتها مضاء. قررت أن أراها وأن أبوح لها بشوقي حتى ولو صدتني. سأراها وأفهم منها بشكل نهائي موقفها مني ومن علاقتنا. أعرفها جيداً، هي لاتمضغ الكلمات بل تقولها صراحة. هل ستفاجئني بأن لها عشيقاً جديداً؟ وإن فعلت فكيف سأتصرف؟ هل أتركها وأرحل؟ لا! ولكن إذا حاولت ابعادها عنه، أفلا تفرض شروطها علي وتطلب مني أن أكون كلياً لها وأن أتحرر من زوجتي وكل عالمي؟ وما العمل إذا فعلت؟

كنت مستنفراً حين طرقت بابها بهدوء وانتظرت. لم يفتح الباب. هل هي مع شخص آخر؟ طرقت من جديد وقد مسني شعور بالغيرة جعلني أهرب إلى الامام إذ صممت على التأكد قبل انسحابي. ظل الباب مغلقاً وزاد توتري واصراري على الدخول. وحين حاولت طرق الباب من جديد للمرة الثالثة، رأيتها أمامي. لم أصدق عيني، كانت بثياب النوم، لونها أصفر كأنها خارجة من مرض. نسيت كل تساؤلاتي وضممتها إلى صدري، فأرخت رأسها على كتفي بصمت كأنها تعاني من ألم فيه.

-68-

تم الانفصال بيني وبين ذاتي. ها أنا ذات وموضوع ذات تراقب موضوعا، فكر يراقب جسداً، وعي يراقب غريزة. كان يراقب من دون أن يتدخ، فتضخم الموضوع وأخذ يكبر ويكبر إلى أن كان يحتل كل المكان ويستغرق كل الزمان. يبدو أن الجسد سريع الاجابة إذ ما ترك لانفعالاته. لا يحد انغماسه في المتعة الا التعب، وهو إذا تنعم ودلل نفسه لا يتعب بسهولة. تدخل فسحة الراحة عنده في آلية إعادة إنتاج رغباته، فينغلق على عالمه ويخضع للتكرار المتنوع صورياً والثابت ماهويا، إذ أنه لا يبحث الا عن المتعة ويلبيها باشكال مختلفة.

شعرت بعد فترة بتسيب جسدي، وشعرت أن هاني هو أداة التسيب، فطرح عندي سؤال هو التالي: هل علاقة جسدية مع رجل واحد يلبي كل رغبات الجسد تختلف عن علاقة البغاء التي تبدو ظاهرياً أنها قائمة على تعدد الرجال؟ هل أن تعدد الرجال في علاقات الجسد هو الذي يحدد تسيب الجسد، أم أن الانسياق وراء تلبية رغبات الجسد نفسه حتى مع رجل واحد هو التسيب؟ افترضت أنه سؤال خاطئ، ولكن سؤالاً آخر نبت في رأسي، وكان حول مفهوم الزواج وتشكل كما

يلي: ما هو أقصى ما تستطيع المرأة أن تمنحه لزوجها؟ إخلاص الجسد! كان جوابي لذاتي إذ أننا لا نستطيع الجزم في المجالات الاخرى، ولا نستطيع أن نعرف ما يجول في ذهن وخيال كل زوجة حتى وهي تمارس الجنس بإخلاص مع زوجها. وإذا كان جوابي لنفسي صحيحاً، فبماذا تختلف علاقتي بهاني عن الزواج التقليدي الذي كنت أنا ضده؟ هل مجرد تسمية العلاقة بأنها حرة يجلعها تختلف عن العلاقة الزوجية العادية ؟ وهل أن العقد المكتوب هو الذي يميز بين علاقة وأخرى؟ لا! وألف لا! ولكن كيف الهروب من هذه الاسئلة؟ يبدو أن المرء يحاول دائماً تبرير أعماله فكيف لي أن أبرر أعمالي وسلوكي؟ فكرت قليلاً فأتي التبرير انفعالياً إذ صرخت في ذاتي: "لقد اخترت الجسد، اخترته الا انني أحافظ على كرامته. ولكن ما هذه الكرامة؟ اليست نوعاً من التواطؤ مع الذات ضد الذات؟ حين وصلت إلى مفهوم التواطؤ هذا ما عدت قادرة على الاستمرار فيه، تيقظت ذاتي، استفاق الانس الاثاني من انسيتي وبدأ التمزق. هل لا يستفيق أنس في داخلي الا ليلغي الانس الثاني؟ الا أستطيع التوفيق بينهما كي أعيش كـ "إنسان" واحد متوحد مع ذاته؟ عطشت إلى العالم الآخر الذي عزلت نفسي عنه مع هاني. هل أحمل هاني المسؤولية وأغرق في التواطؤ أكثر؟ لا! لا علاقة لهاني بتمزقي. أتاني في ساعة التعب والهزيمة فانتشلني من الغرق في اليأس والاحباط، ولكنه انتشلني ليرميني على شاطئ بدأت أشعر بغربتي عليه. يا إلهي ما أمتع الاسترخاء على الشاطئ وما أمتع الكسل وتعبئة الوقت بتلبية حاجات وترف الجسد! ولكنه غول لا يرتوي كلما أعطي زاد عطشه وزادت متلطباته.

لن أستغرق أكثر في التمزق. أتخذت قرار التوحد وسأعيشه. لن ألغي هاني من حياتي ، ولكن لن أتركه يأخذني من عالم الحقيقي، هذا العالم الذي بدأت أتوق إليه من جديد حين تساءلت أين أنا؟ سأحيا لذاتي في كل أبعادها، وهكذا لن أحرم جسدي من الحياة، ولن أحرم نفسي من أن تحقق ذاتها. سأشبع الحاجيتين معاً وسأعطي لكل منها حيزها. سأدخل هاني في عالمي الآخر ليعرف الجميع حدود علاقتهم بي، فأرتاح من هذه الناحية من دون أن أقهر نفسي في العزلة التي لا تعني سوى الموت على صعيد الفكر والذات.

-69-

عشت معها أمتع الاوقات. كانت كليا لي ولي وحدي. وهذا دليل أنها لا تعشق سواي ولا يوجد شخص آخر في حياتها. ومما زاد اطمئناني من هذه الناحية أنها بدأت تعلن علاقتنا أمام أصحابها وفي عالمها الذي كنت أجهله. أرتحت وفي الوقت نفسه خفت من هذه العلنية، ماذا لو علمت زوجتي بالامر؟ عالم بيروت ضيق جداً

ومن الممكن والمحتمل جداً أن يصل الخبر إليها. على كل حال لن أستبق الامور وسأعرف كيف أتصرف حين يطرح الموضوع.

كانت نظرات الآخرين إليها تعني إعجابهم بها. كلما كنت معها في محيطها شعرت أن الكل يريدها ويغازلها ولو بطريقة غير مباشرة. كانوا يغرقون أحياناً في حديث لا علاقة لي به، فأحس أني غريب عن أجوائها. لكنها دائماً تعود إلي حين ينصرفون فأمتلكها وحدي ويغيب حرجي. أحياناً كنت أحاول عدم مرافقتها كي لا أقع في الغربة والحرج، فتصر على اصطحابي معها، وأمام إصرارها أرضخ كي لا تفسر الامور بأني مشغول بسواها، مما يسمح لها بفتح موضوع تحرري من كل علاقاتي لأكون لها وحدها. صرت أرافقها حيث تريد، وأتحمل من أجلها وأجل البقاء معها، لأنني أحبها فعلاً، ولا أريدها أن تبتعد عني. هل تريد من تصرفها هذا أ تثبت أنها لي وحدي كي تطالب، بالمقابل، أن أكون أنا لها وحدها؟ هل ستفتح قصة الطلاق من جديد؟ أغفلت، أنا، الموضوع نهائياً وانتظرت. لم تفاتحني به إطلاقاً وكأنها نسيته هي أيضاً ولكن إلى متى؟

-70-

غابت عن أجوائنا لفترة ثم عادت برفقة هاني. أصبحنا نلتقي بوجوده الذي كان مزعجاص في البداية، ثم تحول إلى ظل لها لا نراها إلا معه. قبلته وارتبطت، عندي، صورتها به، حاولت قبولها هكذا كما هي تريد، وذلك على الرغم من خيبتي منها. فإذا أرادت الانغماس في حياة الترف فماذا أستطيع أن أفعل وهل أجرها قسراً إلى ما ترفضه؟

دعتنا يوماً إلى عيد ميلادها. وشددت علي بأن أكون حاضراً، فسألتها: "هل سيكون موجوداً" ؟ "أجابتني: "حتماً!" ماذا تريد مني؟ ما عدت أفهمها، أقرأ الشوق في عينيها وألمس البعد في تصرفاتها. أيهما الأصدق؟ أصرت علي أن ألبي دعوتها، لماذا؟ هل لتزيد قهري؟ هل لتبرهن لي بأني عاجز عن ترفيهها كما تريد؟ لا! لن أذهب، هذا هو القرار الذي أتخذته. لازمت بيتي في تلك السهرة. كان حقدي "كبيراً " عليها. ووجدت نفسي أكتب لها اعتذاراً عن عدم حضوري عيد ميلادها. كان إعتذاراً لئيماً إذ إتهمتها صراحة بأنها غير متسقة مع ذاتها وبأنها تفضل الـ avoir على الـ être وهذا دليل تفاهتها وتفاهة الـ être فيها.

قرأت الرسالة- الاعتذار من جديد. طوبت أوراقها ووضعتها في درج المكتب. لم أرسلها إليها، ولم تطلع عليها إلا بعد زمن طويل، حين انتهى كل شيء

بيننا وأصبحت أشواقنا المتبادلة ذكرى قوي عليها الواقع ليحولها إلى قول صريح ومباح.

-71-

انتظمت حياتي، إذ حاولت أن أرتب أوقاتي، وأنسقها بإتقان بين هاني وعيسى الذي كان مطلّي على عالمي الآخر وعلى ذاتي، بعد أن ابتعد محمد عني. وسارت الأمور كما أردت إلى ذلك اليوم الذي ردّني إلى ذاتي من جديد حيث كفرت بازدواجيتي وحاولت التوحد عبثاً:

أتى هاني في مساء ذلك اليوم. كنت في البيت مع صديقة هجرت بيتها وزوجها، اعتقاداً منها، أن ذلك يساعدها على التحرر وتحقيق ذاتها. رحبنا به واتصلنا بعيسى كي نمضي السهرة معاً. اقترحت الصديقة أن ننتقل إلى بيتها الجديد لندشن هذا المقر الذي يعني لها بداية حياة جديدة ومتحررة. لبينا دعوتها وأتى عيسى. كانت سهرة عادية: شربنا وأكلنا وتحدثنا في أمور كثيرة ومتنوعة. كنا نجلس على الارض، لم تكن، بعد، قد جهزت بيتها، أنا بالقرب من هاني وهي بالقرب من عيسى. وضع هاني ذراعه على كتفي وضمني إليه واقتربت هي من عيسى وتلامس جسداهما، ثم أصبحت يدها بين يديه، ثم تمددت. أخذ هاني يداعب جسدي، لم أشعر به كنت مشدودة بما يحصل أمامي، وأتت اللحظة التي ما عدت أتحمل رؤية ما يحدث فيها، فإنتفضت وطلبت من هاني أن نعود إلى البيت. كنت مقتنعة أن لممارسة الجنس قدسية معينة. وإذا تحول إلى مشهد للآخرين سقط في الحيونة وفقد معناه.

انصرفت مع هاني وبقى عيسى معها. هل رفضني حين زرته لأنه على علاقة معها؟ الآن فهمت سلوكه معي. لكن لماذا لم يخبرني من قبل؟ ولماذا تصرف بهذه الطريقة المحقرة للآخر؟ كنت كلما أغمضت عيني وأنا مع هاني حضرت أمامي صورة عيسى الذي رفضني.

إلتقيت صديقتي، في اليوم التالي. كانت مستاءة ومرحة في الوقت نفسه. أخبرتني، من دون مواربة، وكأنها تريد افهامي ما لم أفهمه حتى الآن، بأن عيسى أمضى معها تلك الليلة وهو يتحدث عني. كانت تتكلم، وتضحك، يبدو أن الامر لم يزعجها. هل تقصد من قولها هذا، أنه يحبني أنا؟ هل هو طلب منها أن تقول ما قالت؟ ولماذا يصرح أمام غيري بما لا يصرح به أمامي؟ كلامها نشط غروري بذاتي وأشبع نرجسيتي وخفف من رفضي لعيسى المبيني على اعتقادي بأنه

يرفضني. ومع ذلك لم تسمح لي ظروف الحرب في لبنان من التحقق من الأمر أو تحقيقه، إذ إضطررت إلى الهرب من بيتي، من بيروت، بعد تلك السهرة بقليل.

-72-

هل أخبرتها كيف أمضينا سهرتنا؟ هل أعلمتها بما قلته لها عنها؟ يبدو أنها فعلت، فهبى التي كانت تتجاهلني عادت لتفتعل اللقاء بيننا من دون أن تفصح عن شيء. وأنا لم أسأل الصديقة إذا كانت قد أخبرتها، فلو فعلت لاعتقدت أني أريد ذلك، وأني تقصدته أمامها، ولا أستطيع أن أسقط إلى هذا المستوى من المداورة.

أخذت هبى تقترب مني وتبتعد شيئاً فشيئاً عن عاني. ما عاد يلازمها كالسابق وتضاءلت لقاءاتنا به. هل أنها تتحرر منه فعلاً؟ سقط القناع الترفي عنها أصبحت تسهر معنا وتشاركنا حياتنا العادية مع أنها بقيت تحافظ على بعض الرفاهية المتعلقة بجسدها. أخذت تغرق من جديد في عالم الفكر والنقاشات الطويلة، وشاركت في ندوات تتعلق بالمرأة وغيرها. ابتعد الظل عنها وأسفرت عن وجهها الذي اعتقد أنه هو وجهها الحقيقي. هل هو وجهها الحقيقي فعلاً؟ أم أني أراه حقيقاً لأني أحبه؟ ومع تبادلها هذا شعرت أن اللقاء بيننا آت لا محال.

إجتاحت "اسرائيل" جنوبي لبنان ووصلت إلى تخوم بيروت، فهجرت بيتي ولجأت إلى ضيعتي. واحترقت المدينة وتبددت معها كل آمالي.

-73-

كنت أعد نفسي للقائه. صممت على الكلام الصريح إن لم يقم هو به. استعددت للحوار معه ولتغير نمط حياتي كلها لو تحققت أنه يحبني فعلاً. كفرت بالرتابة التي أستنفذتني وحولتني إلى دمية لا تهتم الا بمظهرها وتألقها. تحولت عندي متعة الكسل والاسترخاء إلى عذاب يذكرني بذاتي المنسية كلما غرقت فيها.

سأتصل به وأحدد موعداص للتصارح، بعده أحسم الموضوع نهائياً. لا يهمني اتجاه الحسم، المهم، بالنسبة لي، هو الوضوح والخروج من التمزق الذي أعاني منه.

كنت مصممة على الاتصال به، حين اتصل بي أخي وطلب مني أن أترك بيروت برفقة الأهل لأن بيروت مهددة حتماً إذا إستمر الاسرائيليون في زحفهم من الجنوب. بيروت ستقاوم وهذا يعني أنها ستحاصر وستقصف بأشد ما يمكن.

-"اتركوا الآن. إرحلوا إلى المنطقة الشرقية"

هذا ما قاله لي أخي من دون أن يترك لي مجالاً للإستفسار أو الفهم. حزمت أغراضي وهربت مع أهلي إلى المنطقة الشرقية، إلى بيت أختي هند، حيث أقمنا إلى أن أنسحبت اسرائيل من بيروت.

في بيت هند أصبحت وحدي، لا أعلم أين عيسى ولا أين هاني. فقط علمت من أخي أن "محمد" بيقي في بيروت يمارس مقاومته وقناعته. كان فعلاً مناضلاً بكل معنى الكلمة. كتابة وممارسة. أصبحت وحدي وانزاحت حياتي عن خطها الذي كنت قد رسمته لها. خضعت لليومي بانتظار العودة الى بيتي وعالمي. طال الانتظار العقيم وبيروت تحترق حتى تحولت الى كرة من نار. كنا نرى وهجها من شرفة بيت اختي في كل مساء ونلاحق أخبارها في كل الاذاعات والمحطات لنطمئن على أهلها الذين ما زالوا مقيمين فيها إما قسراً وإما مقاومة. احترقت بيروت وبتر لسان العرب. تجاهلوها هي التي حضنت كل من زارها منهم وأقام فيها.

بعد مرور شهر تقريباً على هذه الحالة. اتصل بي عيسى.

-74-

تركنا صديقتها مع عيسى وعدنا إلى البيت، بيت هبى. كان ذلك الحادث بمثابة البرهان القاطع على أن لا علاقة لهبى بعيسى كما كنت أفكر، اذ كان اقربهم اليها واكثرهم صمتاً. لم ألاحظ يوماً أنه نظر إلى هبى كما ينظر إليها الآخرون. لم أسمع منه كلمة إطراء لها ولا كلمة غزل أو مديح، ومع ذلك كنت أشعر أن هبى تميل إليه أكثر من غيره وتستقبله بفرح أكبر من الذي تستقبل به غيره، حتى كدت أغار منه واتهمهما به. حاولت مرات عديدة أن أفهم منها طبيعة علاقتها به وكانت دائماً تجيبني بأنه صديق، وصديق عزيز جداً، وأن هذه الصداقة قائمة على تلاق فكري معين. كنت لا أفهم ذلك التلاقي الفكري ولا أميزه عن التلاقي الجسدي إلى أن خرجنا من عند صديقتها، فقلت لنفسي: الآن أفهم. فإذا كانت هبى ترضى بأن يمارس عيسى الجنس مع صديقتها، وكاد الأمر أن يكون أمامها، فهذا يعني أن لا علاقة لها به، وأن صداقتهما هي حقاً على صعيد الوفاق الفكري. ارتحت نهائياً من هذه الناحية وأصبح عيسى هو الاقرب إلي أيضاً ولم اعد أغار منه ولا من لقائه

بهبى في غيابي، لأنن أعرف هبى جيداً، وأعرف رفض جسدها لأي شخص لا يكون لها وحدها.

مضت فترة طويلة وأنا ألازم هبى في حياتها اليومية وفي سهراتها. حتى ضاق صدر زوجتي من غيابي المستمر، وبدأت تطرح علي أسئلة فهمت منها انها تشك بأن يكون سبب غيابي المتواصل هو العمل فقط. حاولت اقناعها بأن لا شيء يشغلني عنها سوى عملي، وحاولت أن ارضيها بأن امتنعت مرات عن مرافقة هبى التي قبلت امتناعي من دون استفسار عن السبب كأنها تريده فعلاً. هل كانت تريده فعلاً لأنها ما عادت تريدني معها؟ هل هذا القبول من ناحيتها يعني أن شخصاً آخر قد ظهر في حياتها؟ لكنها كانت دائماً مع عيسى في غيابي، وهذا أمر يطمئن لأنه يعني أنها لا تبتعد عني بسبب علاقة أخرى. وزادت متطلبات زوجتي وكأنها تمتحن صدقي معها، فأصبحت مضطراً للغياب أكثر فأكثر عن هبى فما العمل؟

أتى الحل من الخارج إذ اجتاحت اسرائيل الجنوب وبدأت زحفها نحو بيروت. فقدت الاتصال بهبى وتحولت ملكاً لعائلتي التي هربتها من بيروت وأمنت لها منزلاً في الجبل، وأقمت معها بانتظار آخر الحرب. لم يعد لي من مبرر لتركها إذ ان منطقة عملي أصبحت محتلة وخطرة ومن الغباء المفضوح أن أتحجج بالشغل لأغيب عنها. ولكن أين هبى ؟ وماذا تفعل في غيابي؟ وهل ستفكر بأني أهلمتها في الايام الصعبة؟ وهل ما زالت تفكر بي؟

طال انتظاري وترسخ التزامي بعائلتي، ولم يأت الفرج. فقررت أن أتصل بأختها هند، لأعرف أخبارها، ولكي أزورها وأبرر غيابي عنها في تلك الفترة.

-75-

رن جرس الهاتف في بيت هند ذات صباح، فردت وسمعتها ترحب به وتسأله أين هو وتدعوه للمرور بنا... ثم توجهت إليّ وقالت: عيسي يريد أن يكلمك.

أخذت السماعة من دون تفكير وسألته فوراً:

-أين أنت؟

-في ساحة المدينة. كنت في طريقي إلى الضيعة وأحببت أن أطمئن عليك. هل أزروكم في البيت أم أراك في مكان آخر؟

-انتظرني حين أنت، إني آتية

أخذت سيارتي وتوجهت إليه. كنت مشتاقة إلى لقياه وسماع أخباره. هل هو مشتاق مثلي؟ لماذا اتصل بي إذا؟ هل هو الشوق الذي دفعه إلى ذلك أم هي الصداقة فقط؟ مهما يكن إني سأراه وأفهم منه دوافع سلوكه.

فتح باب السيارة وجلس بالقرب مني بعد أن قبلني وقبلته على الوجنتين طبعاً، ولأول مرة وضع يده على كتفي. هل هذا تعبيره عن الشوق؟ ربما! فهو لا يتكلم في هذا الموضوع وإن تكلم فكلامه دائماً ايحائي . فسألته:
-أين نذهب الآن؟
-حيث تريدين. خذيني إلى مقهى حيث نستطيع الكلام بهدوء، ونتناول القهوة.

جلسنا معاً وأخبرني انه في الضيعة. تناقشنا في أمور سياسية فكرية. كنا متفقين حول النتائج التي توصلنا إليها، وقلما كنا نختلف على هذا الصعيد، كنت أرى دائماً أنه أمهر مني في صياغة الفكرة. وهذا أمر يغيظني لو أتى من سواه. أما منه فكنت أقبله بفرح.

كان حوارنا غير جدي تماماً، مما حداه على اتخاذ المزاح والنكتة أحياناً. لكنه لم يسألني عن حالي. هل أسأله أنا؟ حرت في أمري وانتظرت مبادرته التي أتت على الشكل التالي:
-أين هاني. هل يزورك؟

شعرت انه ولج هذا المدخل كي لا يسألني مباشرة عن وضعي، فرتددت بالاجابة، وجال في ذهني تحليل سريع؛ ان قلت له أ،ي لم أر هاني منذ هروبي من بيروت وأني لا أعلم شيئاً عنه، ربما فسر ذلك بأني مشتاقة إليه وفرحة به لأن هاني تركني. لا أريده أن يفهم كلامي هكذا. ثم أن كبريائي لا يسمح لي بأن أترك القرار للآخر في علاقتي به. فإذا كان لا بد من الانفصال فأنا من يقوم به. ولست أدري لماذا قررت بسرعة أن أجيبه بأني ما زلت ارى هاني وبأنه يزورني بإستمرار. كنت أريد أن يفهم من كلامي هذا أن امر هاني لا يهمني واني حر في علاقاتي وسلوكي وأني الآن معه لأني أريد وأحب أن أكون معه، وليس لأني وحدي أو لأن هاني غائب عني.
انقلب وجهه الذي كان، منذ لحظة، مبتسماً وزاهياً. هل كان يفضل أن أقول له أني بعيدة عن هاني وأني لا أراه كما هو الواقع؟ فتر الحوار بيننا وأصبح متقطعاً. هل أخبره بالحقيقة كما هي؟ هل أتراجع؟ لا! تراجعي يعني انكساري، وسيعني الكذب حتى ولو كان، في الواقع، هو الصدق. طالت فترات الصمت بيننا وحاولت

عبثاً إنعاش الحوار والكلام ولكنهما سقطا في هوتين: الخبية والندم. خاب أمل عيسى وندمت على الكذب الذي ما عدت قادرة على تصحيحه، على الاقل في تلك الجلسة.

افترقنا. هو تابع طريقه إلى الضيعة وعدت أنا إلى بيت هند.

-76-

أتت كالفراشة التي تبحث عن مصدر النور. كنت أود ضمها إلى صدري لاعبر لها عن شوقي الذي اكتفيت بالتعبير عنه بأن طوقت عنقها بذراعي. هي، حتماً فهمت قصدي. لكنها ما زالت معه. فماذا يعني هذا التلاعب بأعصابي؟ إنها معه وإنه ما زال يزورها ويلتقي بها وهي تظهر شوقها لي. هل أرى الامور على غير ما هي في الحقيقة؟ هل تعتبرني صديقاً فقط؟ الم تفهم بعد أني ... أحبها! لا! لا أحبها، فهي تحب هاني وتعيش جسدها معه وتأتيني كأنها لا تريد مني الا متعة الفكر. سأنساها. فلتعش ذاتها مع من تعيش جسدها. لن أتدخل في حياتها. ولكن لماذا هو وليس أنا؟ لا علاقة لشخصيتها به ولا علاقة لشخصيته بها. فكيف يتفقان؟ هل أنها تعيش معه لأنه يحررها من الهم المادي وهي ليست بحاجة إليه؟ هي يقدم لها ما يغذي نرجسية جسدها المتطلب جداً؟ هل تريد هاني لناحية في شخصيتها وتريدني أنا للناحية الأخرى؟ لا! لن أقبل بما تريد إطلاقاً، ولن أزج نفسي في عالمها. سأبقى صديقاً عادياً لها، ولن أظهر خبيتي ، ولكن سأتجاهل حياتها وعلاقتها بصديقها وسأبحث عن غيرها. ترفضني وألاحقها: لا! ليس هذا. إنها فهمت قصدي وميلي نحوها، وإذا كانت تريدني حقاً فعليها أن تبادر لأن الكرة في ملعبها الآن. هي المشكلة لا أنا.

لماذا أغرق في تحليل وضعها ووضعي؟ هل أحبها؟ لا أكذب على ذاتي. أحبها! ولكن لن أنكسر لها أو من أجلها، فإن لم تردني أكثر مما أريدها أنا، فلتذهب إلى حقارة وتفاهة عيشها مع هاني. لن أتصل بها بعد اليوم، ولن أتقصد رؤيتها واللقاء بها. وفي الوقت نفسه لن أبتعد بشكل يجعلها تفسر هذا الابتعاد ردة فعل أو هزيمة.

-77-

كنت حزينة حين افترقنا. لماذا تنتهي لقاءاتي به هكذا. لماذا سوء التفاهم هو السائد دائماً بيننا؟ لماذا لا نقول مشاعرنا كما هي؟ ما هذه الكبرياء السخيفة التي نتسلح بها كلما تواجدنا معاً؟ كم نتشابه على هذا الصعيد! التشابه، عادة، يكون أداة

تقارب فلماذا يشكل عندنا أداة فراق؟ لماذا سألني عن هاني؟ وأنا، لماذا لجأت إلى الكذب؟ أين أنا من الاثنين؟

كنت في صالون بيت اختي. هم يتحدثون بأمور تشى، وأنا وحدي أفكر بذاتي وتكرج الاسئلة من رأسي. قرع الباب وفجأة دخل هاني الذي صافح الجميع ثم توجه إلي وصافحني، وشد على يدي ليفهمني أنه مشتاق إلي. كنت لا أزال مع عيسى حين دخل علينا. وحين شد على يدي لم أشعر به كالعادة، ويبدو أن ذلك ظهر على وجهي فسارع هاني الى الكلام الذي يدل على أن غيابه كان قسرياً. هل فهم أن برودتي تعني استيائي من غيابه؟ بالتأكيد! لأنه أسهب في وصف احتلال المسلحين لمصنعه، وبأنه كان مضطراً للبقاء في مقر عمله خوفاً من السرقة، وبأنه خاطر مخاطرة كبيرة لكي يتمكن من المجيئ اليوم. وختم كلامه قائلاً: فليسرقوا ما يريدون، ما عدت قادراً على البقاء بعيدا. لم يكمل جملته، بل نظر إلي لكي أفهم أنه يقصد: بيعداً عني" .

لأول مرة راودني شعور بأنه يكذب. قرأت ذلك في عينيه وفي كل حركاته، ورأيت نفسي أسأله عن عائلته، فقال من دون تردد:

-سافرت زوجتي إلى الخارج، وأنا أقيم الآن مع الاولاد في الجبل، وتابع كأنه استدرك مغالطته: كانوا قد هربوا من بيروت حين ذهبت أنا الى مقر عملي واستأجروا بيتاً في... وحين عدت أنا مساء البارحة، قررت زوجتي السفر الذي قامت به اليوم.

لماذا هذا الشرح والتفسير، كان باستطاعته الاختصار والقول: "انهم بخير" فقط. ماذا يقصد من شرحه المطول هذا؟ وحين انتهى من قوله السابق سارع إلى طوي الصفحة وحاول نقل الحديث الى موضوع الساعة؛ الى حصار بيروت. كان يتكلم ويعطي آراءه حول كل ما يدور في البلد وفي المنطقة. كنت اسمعه وتجول في خاطري مقارنة بينه وبين عيسى. وفجأة رأيت نفسي كائناً متناقضاً إلى أقصى درجات التناقض، ولاحت في رأسي معادلة مركبة، حاولت التقاطها، لكنها أفلتت مني بسرعة حين، سمعت هاني يقول كلاماً استفزني، فدخلت في النقاش دفاعاً عن الذين كان هو ضدهم. ولكني سرعا ما عدت إلى الصمت، لأني اكتشفت عقم النقاش إذ لا لغة مشتركة بيننا. عدت إلى نفسي أبحث عن تلك المعادلة التي لاحت في رأسي منذ لحظة. شعرت كأني أكاد اكتشف شيئاً معيناً في داخلي. ولكن عبثاً حاولت، إذ كنت كمن يحاول تذكر أسم قد نسيه وهو متأكد أنه يعرفه جيداً. وكما يتذكر المرء، ما نسيه، فجأة، انجلت أمامي تلك المعادلة المركبة حين رحل هاني

وعدت إلى ذاتي وأنا أصارع النوم في فراشي. تلك المعادلة الغربية بدت لي معقدة ونيتجتها التمزق فقط:

رأيت نفسي شخصين معاً، لكنهما شخصان متناقضان حتى التنافر الكلي، حتى التضاد. كيف أصف هذا التناقض وكيف أحوله الى كلمات؟ لم أجد أمامي إلا ما تعلمته من اللغة، ولغتي في تلك المرحلة استعفتني على الشكل التالي: تناقضي يعين انفصامي الفعلي بين جسد وفكر، إذ كمنت برجوازية الجسد، بروليتارية الفكر. كيف أفرز هذا الجسد مثل هذا الفكر أو كيف انسكب هذا الفكر في مثل هذا الجسد؟ وحين أعياني الجواب. نظرت في نتائج هذا التناقض فاستغربت الامر أكثر فأكثر: فهذه التركيبة العجيبة تفرز على أرض الواقع تناقضاً آخر، إذ كنت في علاقاتي الواقعية مادية حيث يسود الفكر المثالي ومثالية حيث يسود الفكر المادي؛ علاقة مادية جسدية مع هاني، وعلاقة مثالية مع عيسى! ما هذا الانقلاب على صعيد الواقع؟ وكيف لي أن أفهمه؟ وهل يفهم أصلاً!؟ أحسست بإرتجاج في رأسي وتشوهت صورتي أمام نظري إذ وجدت الجواب عن تساؤلاتي مرعباً، لأنه طرح علي مفهوم الأصالة والصدق: هل أنا صادقة مع ذاتي أم أن كل أفعالي هي ردة فعل على الواقع، أي واقع، كي أثبت ذاتي وأتميز ولو كان ذلك ضد ذاتي؟ ما هذه الآلية السخيفة التي ألجأ اليها؟ ولماذا سكنت لاوعي كل هذه الفترة من حياتي من دون أن تنجلي أمامي؟ أما الآن وقد انجلت فكيف سأتعامل معها وكيف سأتصالح مع ذاتي؟

-78-

لم تسقبلني كالعادة، هل إن وجودها مع الآخرين هو سبب برودتها؟ ولك الكل يعلم أني أحبها. هل بدأت ترفضني ؟ لا أظن، لقد رافقتني إلى الباب حين انصرفت، ولم تمانع حين قلت لها الى "اللقاء القريب". لم تكن مستاءة بل رأيتها تبتسم لي قبل أن تغلق الباب ورائي. هل اقتنعت بما قلته عن سبب غيابي؟ لم تعلق على كلامي وهذا دليل اقتناعها. ولكن هل أدركت ارتباكي حين سارعت الى تصحيح ما يُشتم منه كذبي؟ على كل حال، هي الآن تفكر أن زوجتي ليست هنا، وأني وحدي مع الاولاد، وهذا ما سيبرر غيابي عنها من دون أن تنزعج. لكن كيف ألقاها على انفراد وأين؟ إني مشتاق إليها وحدها ومشتاق إلى جسدها، وأظن أنها، هي أيضاً، في مثل حالتي. كيف سأدبر أمر لقاءاتنا في هذه المرحلة؟ ماذا لو استأجرت شاليه صغيرة على البحر؛ كما تطالبني بذلك زوجتي؟ إنها فكرة ممتازة: سأستأجرها فتستفيد عائلتي منها، إذ أن الصيف ما زال في أوله، وحين تكون في الجبل، أدعو هبى إليها، وهكذا أوفق بين حاجتي وحبي لهبى وبين رغبات زوجتي.

وصلت الى بيتي، في ذلك المساء، متأخراً؛ كانوا بإنتظاري، وبالهم مشغول عليّ. دخلت عليهم وسارعت إلى تبديد قلقهم، إذ أخبرتهم أني كنت أبحث عن شاليه يؤمن لهم موسم البحر. فرح الاولاد وابتسمت زوجتي وجلست بالقرب مني.إنها تعرف أني لا أرفض لها طلباً، قالت:

-إني أفضل أن تستأجر شاليه في منطقة... وهي منطقة تحبها لأن أصحابها مقيمون فيها.

-بكل تأكيد. كنت هناك اليوم. ومن الممكن أن نجد ما نريد في ذلك المجمع. وإذ صدقوا معي، سأجهز الشاليه بسرعة كي تستفيدوا منها بأقرب وقت، يبدو أن حصار بيروت سيطول، ولا يجوز أن تبقوا كل الوقت هنا في الجبل، يجب أن نقسم أوقاتنا بحيث نستفيد من البحر وشمسه في النهار، وننعم بطقس الجبل في الليل.

-شكراً لك حبيبي، قالت لي زوجتي ونحن في السرير، أعرف انك تفعل ذلك من أجلي أنا، لأني أحب البحر.

وحين اقتربنا من بعضنا، غمرتني بذراعيها وصمتنا إذ استلم جسدانا مهمة الكلام عنا، وما عدت أسمع إلا تأوهات زوجتي المثيرة وهي تطلب المزيد والاستمرار في المتعة.

-79-

طال حصار بيروت، وطالت معه مأساتي... ما عدت أرى عيسى الذي غاب نهائياً. كنت أنتظره لأوضح له حقيقة مشاعري، ولكنه اختفى وما كنت أعلم أين أتصل به. وتكاثرت زيارات هاني الى بيت هند. كان يدعوني إلى تناول الغداء أو العشاء معه، وكنت أرافقه إلى مطاعم المنطقة الشرقية.

في أحد الايام اخذني إلى مجمع سياحي على شاطئ البحر، حيث طلب مني أن أنزل من السيارة بعد أو أوقفها أمام أحد المباني. توجهنا نحو المصعد، ودخلناه، كبس زر الطابق السابع. كنت أنظر إليه مستفسرة. كان يبتسم كمن يخبئ مفاجأة:

-إستأجرت هذه الشاليه، قال لي، وهو يفتح أحد الابواب.

دخلنا، كانت غرفة شبه عارية إلا من الموكيت التي تكسو الارض ومن البرادي. وتابع؛ أعرف أنك تحبين البحر والتمعت بالشمس ففكرت أن آخذ هذه الشاليه لك... تردد قليلاً ثم قال: وللأولاد أيضاً. هم لا يأتون كل يوم إلى البحر وفي مطلق الاحوال سيعودون إلى الجبل في الليل. وهكذا ستأتين متى تشائين، فقط تعلمينني في اليوم السابق كي أتحرر من الاولاد وسيكون لنا مقراً نتابع فيه حياتنا مثل السابق.

جال نظري في أنحاء الغرفة للحظة، ومر طيف عيسى ببالي، هززت رأسي وقلت له:
-فكرة جيدة. ولكن أرجو الا يطول حصار بيروت.
-الآن لا يهمنا الأمر كثيراً، طالما أصبح باستطاعتنا أن نلتقي هنا.
-أهذا كل ما يهمك في الامر؟
استدرك تفاهة كلامه وأجابني بسرعة لتبرير نفسه:
-لا نستطيع أن نفعل شيئاً، الأمر ليس في يدنا. هل نهمل حياتنا الخاصة حتى تنتهي قصة بيروت؟ كنا مستاؤون من الوضع ولكن المؤامرة أكبر منا و ...
اقترب مني وضمني إليه وحاول تقبيل ثغري، فابتعدت عنه. هل أنام معه وافكر بسواه ؟ لا!
-هاني، فلنرحل الآن، قلت له ، إني بحاجة إلى الراحة. سنلتقي لاحقاً، لدينا كل الوقت لذلك.
-كما تريدين. قالها خائباً.
عدنا إلى السيارة وأوصلني إلى البيت.

-80-

هل حصار بيروت يؤذيها بهذا الشكل؟ هل أنساها جسدها الذي بدا لي كقطعة جليد؟ الأمر مفهوم: برودة الغرفة العارية أثر فيها، أنا أعرفها جيداً إنها تحب "الجخ" والترف. يبدو أنه عز عليها أن تمارس الجنس في تلك الاجواء الخالية من أي تأنق. سأفرش الشاليه كما يروق لها، وسأجهز الانارة اللازمة، ولن أدعوها إليها إلا حين استكمل كل ما من شأنه أن يوفر الجو الفخم والمثير.

لم يستغرق تجهيز الشاليه وفرشها إلا أياماً قليلة. كنت أود أن أدشنها مع هبى، لكن الأولاد وزوجتي أصبحوا يحلون علي بالنزول الى البحر، فرضخت لأمرهم وأمضينا أول يوم معاً في الشاليه التي أعجبتهم، والتي قامت زوجتي بترتيبها كما تريد.
كان يوماً جميلاً ومتعباً للاولاد، فاقترحت عليهم، في المساء ان نعود إلى الجبل حيث يرتاحون ليوم أو يومين ثم يعودون إلى البحر، إذا أرادوا.
قبل الاولاد الاقتراح وقالت زوجتي:
-نرتاح، ولكن ليس لأكثر من يوم واحد، لأننا إذا غبنا أكثر.
On ne se bronze, pas, pour avoir un joli tent, il faut s’exposer tous les jours au soleil

-كما تريدين ؛ على كل حال استفيدوا كما تشاؤون، فهذه الشاليه لكم وهذا مفتاحها، خذيه وتصرفي على راحتك.

عدت وحدي في اليوم التالي إلى الشاليه، لملمت كل الاغراض التي تدل على وجود إمرأة وخبأتها في مكان لا يخطر على بال احد. وفي المساء زرت هبى ودعوتها إلى الخروج معاً.

-81-

غاب هاني، وعيسى استمر في غيابه، وبيروت تتلقى الضربات القاسية، وتدك ابنيتها ويموت ناسها ويعطش اطفالها ويجوع فقراؤها وهي صامدة تقاوم. لماذا بيروت تحاصر وتقصف، وعواصم كل الدول العربية خارج الحصار؟ لماذا بيروت تدفع الثمن وحدها؟ كفرت بكل القضية العربية وكفرت بكل الفكر الثوري الذي كنت اتسلح به وتبدى أمامي التخاذل العربي حتى أني اتهمتهم بالخيانة وببيع بيروت لتأمين مصالحهم. هل بيروت هي الآن مسيح العرب، هل تصلب من أجل خلاصهم؟

شعرت بإحباط كبير وأنا أسمع الأخبار التي تعدد أماكن القصف الاسرائيلي وتصف حالة بيروت التي تعيش في ظلمة تامة وفي جفاف تام وفي حاجة ماسة إلى الخبز والقوت. وأتى هاني فأقفلت الراديو لأن لا أريد أن أسمع تعليقاته على الأخبار. ولكن أين المفر ووهج إحتراق بيروت يملأ كل الفضاء؟ فلا كلام إلا عنها ولا تعليق إلا عنها. أحسست أنني أختنق.

هاني هل نخرج، ما رأيك؟ سألته بطريقة يفهم منها أني أرفض سماع المزيد من الكلام حول بيروت. فأجابني:

-بكل تأكيد! أنتظر الوقت المناسب لاقترح ذلك عليك.

-خذني إلى مكان ينسيني بيروت ومأساتها. ولكن إلى أين سيأخذني وبيروت في القلب تنزف؟

دخلنا مربعاً ليلياً. كانت الموسيقى صاخبة والناس كثر حول الطاولات الصغيرة. حيث المشروب وأطباق الطعام المتنوعة. وحلبة الرقص تعج بالاجساد المترنحة والمهتاجة. إنهم، هنا، خارج بيروت حقاً، بل خارج لبنان، بل خارج العالم العربي كله! إنهم خارج المأساة والزمان.

راقبت الجو للحظة، وسرت وراء هاني الذي اختار طاولة لنا. جلسنا وطلب من "الغارسون" المشروب والطعام. أحسست أني كإنسان آلي؛ يرفع هاني كأسه

فأرفع كأسي، يشرب فأشرب، يأكل فآكل. فرغت الكؤوس، فطلب غيرها وأنا أشرب من دون وعي، حتى شعرب بأن بيروت تتسرب من مسام جسدي ليحل محلها نوع من الخدر الممتع. دعاني هاني إلى الرقص فرقصت كالآخرين. كنت أرقص فوق جثة أمي وجثة أبي وكل أهلي وأحبائي. تعبت وعدنا إلى طاولتنا ولأول مرة لمست آلية الشرب، حيث أن الشارب يسلك سلوك من يهرب إلى الامام؛ كلما زاد سكراً زاد طلبه للمشروب.

كنت في حالة الترنح المزعج حين دخلنا الشاليه في آخر السهرة.

-82-

ارتمت على الكنبة حين دخلنا الشاليه، وأخذت تقول كلاماً لا أفهمه، ثم توجهت إليّ واتهمتني بكل أنواع التهم كأني أنا الذي يقصف العاصمة، وكأني أنا المسؤول عن كل ما يجري. لكني استوعبت كلامها بصمت، واقتربت منها لامسح على وجهها شعرها وأعيدها إلى الهدوء. إلا أنها ابتعدت عني وسارعت إلى الحمام، وأقفلت الباب لتمنعني من الدخول معها. طرقت الباب فلم تفتح لي. بعد وقت غير قصير، خرجت وهي تمسح الماء عن وجهها. وقالت لي:

-أرجوك خذني إلى البيت، أشعر بإنزعاج كبير؛

كنت أتوقع انزعاجها، لانها لا تشرب عادة، وكنت خلال السهرة أتعجب من نهمها. كان علي أن أردعها، ولكنها كانت مسرورة بالشراب، ولاول مرة رقصت كأنها محترفة. حاولت إقناعها بالبقاء قليلاً علها تستعيد هدوءها. فلو فعلت لعرفت كيف اداريها وأشبع تشنجات جسدها الذي طال حرمانه، لكنها أصرت على الذهاب، وما كان أمامي ألا تلبية رغبتها.

-83-

انتهى الحصار وخرج الفلسطينيون من بيروت، ودخلها الاسرائليون وأخرجوا، وعاد الناس إلى بيوتهم ظانين ان الحرب انتهت، وأخذ كل يصلح بيته ويرمم ما تهدم من ممتلكاته، وعادت هبى إلى بيتها وعدت أنا إلى بيتي وعاد هاني وعائلته الى بيتهم وبدأت الحياة تستعيد مسارها الطبيعي... علاقتي بهبى، كانت كالحرب في لبنان، تتجدد كأنها تنبعث من رمادها.

غبت عن هبى طويلاً، راسلت صديقة لي في الخارج ودعوتها إلى لبنان، وحين انتهى حصار بيروت أجابتني بأنها آتية لزيارتي. كنت على علاقة بها قبل

أن أتعرف على هبى، وكان بيننا كلام حول إمكانية العيش معاً، وأتى جوابها بمثابة قبول لتحقيق هذه الامكانية.

أتت "سيمون" وسكنت معي في البيت. كانت تقبلني كيفما كنت وتعشق جسدي وفكري وكل كياني. انقادت لكل متطلباتي ومزاجيتي، وعلى الرغم من كونها أجنبية شعرت بها إمرأة عربية تقليدية، لا تتدخل في شؤوني ولا تعارضني بشيء. كانت تحبني فعلاً، وكنت معها أشعر بكل رجولتي فزهوت بنفسي؛ لا شيء يشعر المرء بسلطانه إلا رضوخ الآخرين له. روضوخ "سيمون" جلعني أمتلك ذاتي، وأنعم بالثقة التي من عليائها أصبحت أنظر إلى النساء الأخريات.

لكن هبى ضلت خارج النساء الاخريات بالنسبة لي. كنت أتوق إلى لقياها وأبحث عنها وأفرح بها على الرغم من استيائي منها ومن غضبي عليها. هل جسدها يستهويني؟ جسد سيمون جميل جداً ويضاهي جسدها جمالاً أن لم يفقه. هل يستهويني فكرها وتمردها؟ إنني لست بحاجة إليهما. فماذا يشدني إذا إليها؟ هل رفضها لي يجعلني أتعلق بها؟ ولماذا أتعلق بها وهي إمرأة متقلبة لا يعرف لها قرار؟ تارة تبدو متحررة من كل مغريات البرجوازية وتنخرط في حياتنا، وتارة أخرى تبتعد عنا لتغوص في بهارج التأنق والسفر والحياة المترفة. ما أقربها مني في الفترات الاولى، وما أبعدها عني في فتراتها الاخرى! على كل حال لن تكون لي في تناقضها هذا، ولن أرضى بها هكذا، لأنني اكرهها حين أراها في وجهها الآخر وكأنها "تحط على عيني" وتقول لي: أرفضك لأنك عاجز عن مجاراتي.

-84-

عدنا إلى نمط حياتنا السابقة حين عدنا إلى بيروت. باشر هاني عمله وساعدني في إعادة ما تكسر من بيتي ونما التقارب بيننا من جديد إذ شعرت أن الحياة لا تستأهل أن يفكر بها المرء بشكل جدي وأن الافضل لنا أن نلعب لعبتها ولكن بالوسائل الاكثر راحة لنا. جهزت بيتي كما أريد، فاستعدته وأستعدت صورتي فيه، وعشت تلك الصورة التي جرتني الى التنعم بسفرة خارج البلاد مع هاني؛ عشرة أيام قضيتها في السياحة والسهر وزيارة الاماكن التاريخية والأثرية وغيرها. وبالتمتع بتلبية رغبات الجسد إلى آخر الحدود.

نعم إلى آخر حدود! ففي آخر السفرة تلك، شعرت بالفراغ التام، وكدت أندم على ما قمت به لأنه أبعدني عن ذاتي، غير أني حاولت مؤاساة هذه الذات بأن قلت لها إن لي كل الوقت لأعود إليها وأعيشها كما تريد.

-85-

حين رجعنا من السفر قالت لي هبى نحن ما زلنا في الطائرة :

-أظن أن الاولاد ينتظرون مجيئك. أوصلني الآن إلى بيتي واذهب إليهم فوراً لأنهم، حتماً، مشتاقون إليك. ثم إنك لا تستعجل العودة إلي. خد وقتك لأنني سأكون مشغولة هذه الفترة، سأباشر عملي، وعلي تحضير بعض الامور التي تتطلب وقتاً وتفرغاً.

كنت أفكر مثلها، بمعنى أن أوصلها إلى بيتها وأذهب إلى بيتي وأنا مرتاح لأنها حتماً لن تعارض ذهابي هذا. كنت أظن أن الامر لا يحتاج إلى قول وتوضيح، هكذا كان عليه أن يسير الأمر من دون أن نتكلم فيه. لماذا تكلمت ولماذا تريد إبعادي عنها لفترة؟ الامر يناسبني وكنت سأقوم به من تلقاء ذاتي، ولكن أن تطلبه هي فهذا يعني شيئاً ما. ولكنها تطلب ما أريده فعلاً وهذا ما يساعدني على الظهور كأني ألبي رغباتها فأجبتها:

-كما تريدين حبيبتي، ولكن سأتفقدك من دون أن ازعجك، وحين تنتهين من مشاغلك سأكون جاهزاً. فأنا لك وسأبقى لك.

أوصلتها وعدت إلى عائلتي التي كانت تنتظرني. وكما بعد كل فراق بيني وبين زوجتي كان الجسد هو الوسيلة الاجدى للتعبير عن شوقنا المتبادل. جسدي كان متعباً جداً، ولكني استنفرته كي يستجيب، فإمتثل "من حلاوة الروح" ولكنه استجاب ونمت مرتاحاً بعد أن اعتذرت منها عن الارهاق الذي هو نتيجة لمتاعب الشغل في تلك السفرة.

-86-

هل انتهت الحرب كما ظننا؟ يبدو أنها لم تنته، بل أخذت اشكالا أخرى. أنسحب الاسرائيليون من بيروت، فانغلقت على حالها، وبدلا من أن تستعيد ذاتها، وأن ترفع انقاضها بمؤازرة كل أبنائها، تحولت إلى غابة وحوش كاسرة ومفترسة، حيث أن كل فريق – طائفي حاول السيطرة عليها، حتى قسموها إلى مناطق يرزخ سكان كل منها تحت رحمة مسلحي الفئة المسيطرة.

لماذا لا تنتهي الحرب وينتهي الرعب معها؟ لماذا لا يتوقف الدمار والخراب؟ تعصف حرب الشوارع في بيروت الغربية بين المنظمات والاحزاب المحلية، تحترق البيوت والمحلات ويختبئ الناس ويقتل منهم من يقتل ويجرح من يجرح،

ثم يفاجأ الجميع بوقف لالطلاق النار وكأن شيئاً لم يكن، وتعود الحياة الى دورتها العادية بانتظار جولة عنف جديدة، كان، دائماً يمهد لها بلغط حول تاريخ حصوله. وغالباً ما كان هذا اللغط يصدق.

وهكذا كانت المدينة تدور على ذاتها وتتآكل كما كنت أدور على ذاتي وأتآكل من دون أن أستطيع الخروج من الدائرة التي كلما حاولت إنتزاع نفسي منها عاد العنف ليردني إليها كأن لا مجال لتوحدي وتوحد البلاد إلا حطاماً.

لكن فسحات وقف إطلاق النار كانت تعيدنا إلى ممارسة نشاطاتنا، وكنت ألتقي عيسى كلما سنحت الفرصة. لقاءاتنا كانت في النهار لان الليل، في بيروت أصبح مرعباً يخافه كل الناس لأنهم يخافون تجدد القتال أثناءه بسبب انتشار المسلحين في كل الشوراع، فيلازمون بيوتهم حتى الصباح. هاني كان يلازم بيته في أغلب الاحيان، ويتصل بي هاتفياً لكي يطمئن علي وينصحني بالذهاب إلى بيت أهلي إذا كنت لا أريده أن يأتي هو إلي. وعيسى كيف يمضي لياليه؟ هل يمضيها في أحضان سيمون؟ هذه الصديقة التي فاجأنا بها؟

طال الوضع على هذه الحالة حتى أصبح بيني وبين الليل ألفة وعلاقة حميمة. في كل مساء كان يأتي الليل كالعادة. أجلس وحدي. أستحضر أشخاصي، تمتلئ غرفتي بالاشباح، تجلس بمتناول يدي، وأمد أصبعي، أعين أحدها وتبدأ السهرة. ندردش حتى الصباح. ما أكثر المتفرجين! لغة الليل ساحرة: حرف من الابجدية، حرف من الحلم، وآخر من الذاكرة وآخر لست أدري من أين. الليل واسع وكريم، ينطق بكل اللغات ويفهم كل الالسنة. ينطق بالصمت فيفصح، انطلق هلوسة فيفهم!

-ليلي فلنتصادق وليشهد الكون عرسنا!

-أنت لي منذ ولدت. أقاسمك الخبز، أرقد في أحلامك، أتغذى بصمتك وأكبر. أنا اليوم أجمل شباب الكون، أنا أسعد من هو، فقد رأيتني أخيراً. أنتظرتك ولم أمل الانتظار، لاحظي، لم أشب، كلي سواد، قدري أن القاك وقدرك. أنت قطعة من كبدي، أنت ما يبقى مني نهاراً! كنت أحياناً تخونيني ولا تعودين إلي في المساء. كنت أنتظرك وأسامح، قائلاً: ستعود: أنا هواؤها. كنت تغرقين في تفاصيل الضوء، تهيمين في شعاع من أثير، تتعلقين بحبال من نور، وأنا أنتظر اكتمالي. هربت مني، دخلت خيطاً في نسيج النهار، شوكة في صفحة بيضاء، لن تكوني بياضاً، أنا انسجامك، من لا يرى في الظلمة لا يرى! أنا كلي بصر، وهل العين سوى غرفة سوداء؟ أعطيني يدك وانطلقي، سأملك الفضاء وأرتاح، أنت الآن مشرعة الجناحين، لم أعد أخاف عليك. أنت تنفسي، فقد أحيا بك أو أموت اختناقاً.

حين سمعت كلام الليل هذا استفقت، رأيت نفسي ألملم خيبة العمر بيدي، أنثرها فوق أمنيات الماضي، أزرع في القلب غصة، أقطف دماً رمادياً، أرشق بالدم وجهي، تمطر العيون احتراقاً، أسغل نزفي بماء عيوني ، أتمتم صدى الضياع، ينتفخ صدري ألماً: أهذا غد احلامك الماضية؟ ليتها وئدت حية، إنها الشاهد على هزيمتي، تسخر من ترددي، تهوم في فضائي، تدنو مني وتبتعد؟ يداي مكبلتان بالوحل، وحدها عيناي تريان رقصها، إنها تملأ أمسياتي وتسيج وحدتي. أغوص في أعماقي، أراها، أهرب من ذاتي، أراها. تدق ساعة الصفر وأغفو. أليس للهجر انتهاء؟ مشردة أنا على ضفاف نهري. أراه يجري منعزلاً. كنت وإياك يا نهر فلم التمزق؟ خذني إليك، رد لي دمي، عروقي جافة؛ هل يموت عطشاً من بقربه نهر؟ رد لي دمي، اشتقت إلي دبيبه في عروقي هدتني الدوائر، انتشلني من انتظاري. مللت العيش معلقاً. سئمت الجلوس، شلت قدماي، نسيت طعم التراب، تكلست. اسمعك تهدر والموت يغزو جسدي، لم يبقى لي سوى عين، يؤلمني النظر إليك. خذني وكن بصري!

أي بصر قادر على رؤية ما يحدث في بروت من دون أن يتقزز؟ وهل انتظر نهاية الاحداث كي أحسم أمري وأعيش كما أريد؟ لن أنتظر، فالعمر يمر بسرعة مستهلكاً كل إمكاناتي. لا! لن أنساق، بعد اليوم، وراء متعة اللحظة الراهنة، سأترك هاني وكل عالمه نهائياً لأبني ذاتي التي أريد وكما أريد؛ هل هذا يعني أني سأعيش وحدي؟ لا! سأعيش مع عيسى الذي لا أشعر معه بالغربة، بل أشعر أنه يدخلني أكثر من ذاتي، ويدخل هو فيها كأنه من نسيجها. سأتصل به ولو كان، الآن، يعيش مع سيمون، فقد عاش، من قبل، مع غيرها وغيرها، ولم يؤثر ذلك على علاقتنا. أعلم جيداً أن علاقتهما غير متوازنة، فهي ليست له وهو ليس لها. إنني متأكدة أنه يحبني وما زال يحبني كما أنا أحبه. علاقته بها هي كعلاقتي بهاني، إنها علاقة مرتبكة تقيد، لا تحرر، لا تثمر. سأنتهي من قيودي ونلتقي أخيراً، فلا بد من ذلك لخلاصنا.

-78-

اتصلت بي إلى البيت وطلبت مني أن نلتقي خارج بيتي وبيتها. إتفقنا على الذهاب إلى شقة أحد الاصدقاء، الذي كان خارج بيروت ومعي مفتاح بيته.

ماذا تريد مني؟ هل هي بحاجة إلى شيء مهم؟ كت الاحظ في الفترة السابقة أنها منغلقة على ذاتها، وحين زارتني مرة في البيت وتعرفت على سيمون، لم تظهر شيئاً، بل تحدثت معها كما لو أنها تعرفها من قبل ولم تفتح معي موضوعها إطلاقاً. هل تدرك أنها بالنسبة إلي أهم من كل إمرأة؟ هل تصرفت بلا مبالاة لتفهمني أن علاقاتي لا تهمهما؟ لكن ماذا تريد الآن ولماذا طلبت اللقاء خارج إطارينا الطبيعيين؟

التقينا وكان عدم التزامن ثالثنا: تحررت من علاقتي بزوجتي السابقة وكانت هي مرتبطة. انتظرتها فلم تحسم أمرها، وحين قررت الحسم كنت أنا قد بدأت الارتباط. كان كل منا يعرف شعور الآخر تجاهه. صمتنا من دون أن نصمت فعلاً. كنت أحبها وهي تحبني. كنا نعلم ذلك ونحس به. لكن عدم اللقاء كان قدرنا. بعد صمت طويل قلنا خلاله كل مشاعرنا واحاسيسنا ومعاتباتنا، سألتني :"هل ما زلت تحبني؟" لم تقل هل تحبني، كانت واثقة أني كنت أحبها من قبل.
لم أجبها بالكلام إذ وجدته سخيفاً أمام شعوري نحوها، بل ضممتها إلى قلبي وقبلتها، كانت القبلة الأولى بيننا؛ فكان جوابي واضحاً.

-إذا لماذا لا نتزوج غداً وتضع الجميع أمام الأمر الواقع؟ صمت للحظة أتأملها وأتأمل وضعي مع سيمون. ولما كان الصدق يقرأ في عينيها، شعرت أننا سنحطم قدرنا، وأجبتها بهدوء كي لا تتصرف بردة فعل عنيفة:
-هبى، إني وعدتها بالزواج، لأنني يئست من حالتنا. فأتركي لي الوقت كي أتحرر من وعدي من دون أن أؤذيها، فما ذنبها؟ وهكذا يكون لقاؤنا أفضل، ثم إنك، إنت أيضاً، تتمكنين من التحرر فعلاً من علاقتك الراهنة.

لم تجب، كانت تريد العجلة لتتخلص من تخبطها. لكنها وافقت على طلبي وعدنا إلى نمط علاقاتنا السابقة التي أصبحت مرتاحة، غير متشنجة. تركت هبى بيتها لتسكن مع أهلها وتبتعد عن هاني نهائياً. وأنا من جهتي، بدأت أحضر سيمون للإنفصال. كانت تسكن معي منذ أكثر من سنة وكنت قد وعدتها بالزواج فعلاً، فسافرت إلى بلادها وعادت ومعها كل أوراقها وأغراضها كي نعيش معاً. ومع ذلك كنت أشعر أني قادر على إبعادها من دون أن أحرجها، واتفقت مع هبى أن أمر بها وأخبرها بما يجد معي.

كنت انتظره حين بدء القصف متقطعاً، ثم عنف بشكل جنوني. استمر طوال النهار وأتى الليل والقصف على أشده. كنا في 6 شباط 1984، ذلك التاريخ الذي حصل فيه الزلزال الطائفي الذي مزق كل الاقنعة. فحرب لبنان التي، حتى ذلك الحين، كانت توهم بأنها حرب أهلية، خلعت ثيابها وتعرت لتظهر الحقد الطائفي السافر. كان يوماً رهيباً في عنفه.

كنت وحدي في البيت أنتظر عيسى؛ لم أذهب في ذلك اليوم إلى بيت أهلي هربا من هاني، حين عصفت "الانتفاضة" كما سميت لاحقاً، تجمع أهل البناية في أروقة الطوابق السفلى. فكيف لعيسى أن يأتي في مثل هذا الوضع المتفجر؟ لكن هاني كيف أتى؟ أتى لا أعلم كيف، رأيته فجأة أمامي، هل خاطر بحياته كي يراني؟ هل هو يحبني إلى هذا الحد؟ هل ترك زوجته وحدها؟ كنت أعرف أن أولاده في الخارج هي وحدها معه في البيت. كيف تركها وأتى؟ وماذا قال لها؟ حتى ولو لم تكن موجودة، فكيف تجرأ وخرج من تحت القذائف والرصاص؟ وقد ردّ على تساؤلاتي قائلاً:

-كنت حتى الآن مختبئاً في أحد ملاجئ المدينة القريبة من هنا. وحين خف القصف قليلاً، استغللت الظرف كي أخرج، لأراك وأكون معك، فأنا أعرف رعبك في مثل هذه الحالة.

تركنا الجيران في الخارج ودخلنا الى البيت، فاتجه مباشرة نحو الهاتف وكلم زوجته وأوصاها أن تبقى في الملجأ إلى أن ينتهي القصف ووعدها أن يأتي في أول لحظة يتمكن فيها من ذلك. وحين أقفل السماعة قال لي:

-يا إلهي! لو تسافر لأرتاح من همها. إنها تنغص حياتي وتشل حركتي. تصوري أنها في البيت وحدها! ومن المسؤول عنها؟ أليس أنا، طالما هي معي؟ ثم تابع.

-ستسافر حتماص بعد هذه الخضة، فأرتاح وأبقى معك كما أريد.

-يبقى معي !؟ أنا التي هربت منه كي أتحرر من جسدي ولكي، أحضر نفسي للقاء عيسى الذي ينتظرني.

-هاني، قلت له، الوحدة لا تطاق وعليك ان تحافظ على زوجتك لأنك لا تستطيع أن تعيش معي ولا تستطيع أن تعيش وحدك. أنا لا أريد الزواج، حتى ولو أصبحت أنت حراً، حتى ولو طلقت زوجتك. فلا تبنى على أوهام.

حاول الدخول في نقاش معي وشدد على أنه سيطلق زوجته لأن هذا الموضوع هو بيت القصيد. أسكته وكنت حاسمة في موقفي وافهمته أني إمرأة لا تصلح أن تكون زوجة له، وأني مللت دور العشيقة، فلا بد، إذا، من الانفصال الذي سيكون خيراً له ولي.

-89-

كنت أعرف تقلبات هبى؛ تعيش معي فترة ثم تشعر بالحاجة إلى الراحة فتبتعد عني، ثم تعود من جديد، لقد حفظت دورة تغيراتها. وهذا الوضع يناسبني تماماً، إذ أن فترات الراحة عندها كانت تسمح لي بإخفاء علاقتي بها أمام زوجتي وأولادي. ولهذا السبب لم أعارضها يوماً حين كانت تطلب البعد عني. وفي المرة الاخيرة لم أعارضها وعدت إلى زوجتي التي قررت السفر بعد أن أقنعتها بضرورته، طالبة مني أن أبيع البيت في غيابها وأشتري بيتاً آخر في المنطقة الشرقية لنتخلص من جو بيروت الغربية الذي أصبح ضيقاً وخطراً. وافقت علي طلبها وسافرت على أمل أن تعود إلى بيتنا الجديد كما وعدتها.

سافرت زوجتي ولازمت بيت هبى التي كانت وحدها، وأصبح همي تأمين بيع البيت بسرعة. وحالفني الحظ فبعته واشتريت غيره في المنطقة الشرقية، وكل ذلك لم يستغرق أكثر من أسبوعين تفرغت بعدهما نهائياً لهبى. حاولت إقناعها بأني بعت البيت كي أتحرر من زوجتي؛ الأولاد يتعلمون في الخارج وهي لن تعود طالما ليس لنا بيت هنا. كانت هبى معي وبعيدة عني في الوقت نفسه. هل الخوف من التدهور الامني يؤثر عليها بهذا الشكل؟

-90-

مضى وقت طويل، لم أعرف خلاله، شئياً عن عيسى. قيل لي إنه رحل مع سيمون إلى الضيعة، هذا كل ما سمعته عنه. انتظرت عودته، كنت أنتظر وهاني بقربي. أحسست أن وجوده معي، في تلك المرحلة الصعبة، كان ضرورياً، فالرعب كان يلف المدينة. كان يغيب لفترات قصيرة ثم يعود ليؤمن لي كل ما كنت بحاجة إليه ولا أجسر على الخروج لتأمينه. وعلى الرغم من رفضي له، كنت أفرح بمجيئه الذي ينقذني من الوحدة والخوف. أفرح به وأنا متأكدة أني سأبتعد عنه حين تعود الحياة إلى مسارها الطبيعي لأني أفهمته منذ بداية هذه المرحلة أنني لا أريد البقاء معه. وحين أخبرني عن بيع البيت وسبب هذا البيع، أعدت عليه قولي الرافض وأقنعته بأني غير قادرة على الاستمرار معه. وأخيراً سكت وما عاد يجادلني كما في بداية قراري، وهذا يعني أنه أخيراً فهم قصدي ومرامي.

-91-

كنت على وشك اقناع سيمون بضرورة الانفصال حين عصفت الانتفاضة ومنعتني من زيارة هبى. بقيت، في ذلك اليوم، في البيت مع سيمون. مضت عدة

أيام ونحن معاً نتلطى من القذائف قبل أن ننتقل إلى الضيعة، حيث خططنا لسفرها من الشام، لأن مطار بيروت كان مقفلاً.

حين سافرت انتظرت أول فرصة لدخول بيروت وزيارة هبى كي نكمل ما خططنا له معاً. أما كان من الافضل لي ألا أعود إليها؟ زرتها فوجدتها مع هاني. استأت من الامر كثيراً، لعنتها، أدركت أنها إمرأة لا تعرف ماذا تريد فعلاً، أو أنها مجرمة تتلهى بنا نحن الاثنين. وهنا شعرت بتعاطف مع هاني، فتجاهلت هبى وسايرته هو، إذ رأيته ضحية مثلي أمام جزار هو هبى. ولكن قررت بسرعة الانصراف كي لا أزعجهما، فرافقتني إلى الباب، كانت تريد أن تكلمني أو تسألني أو ... فقلت لها لأقطع كل كلام:

-إنه ما زال هنا!

-الامر لا يهم. وسيمون هل رحلت؟

هل أقول لها نعم؟ أعترف أنني تخلصت منها وهي ما زالت معه؟

-لا! إنها تنتظرني في الضيعة.

نظرت إلي مستفسرة، لم أجبها، استودعتها وانصرفت. شعرت أني أكرهها فعلاً.

عدت إلى الضيعة ومنها مباشرة إلى حيث سيمون. كيف أرفض من يحبني فعلاً لأترامى أمام من يتلاعب بمشاعري وكياني؟

تزوجت سيمون وعدنا إلى لبنان حين استقر الوضع. كانت هبى ما زالت مع هاني.

-92-

"انها تنتظرني" قال لي حين انصرف. لم أفهم معنى قوله هذا الا بعد فترة حين علمت أنهما تزوجا. لم يبق سوى هاني. ولكن من يعرف آلية العادة السرية عند الاطفال؟ سأذكر بها. إنها آلية تشبه الى حد كبير الحلقة المفرغة؛ يمارس الطفل هذه العادة في السرّ، وذلك لأنه تحسس جسده وأعضاءه، وشعر باللذه وغاص فيها. وكلما إنتهى انتابه شعور متناقض، لأن المتعة التي مارسها يرافقها قلق من الممارسة ذاتها، فيقرر عدم التكرار، خاصة وإن التربية تقول له بأن ما يقوم به سراً يؤدي به إلى تعطيل عضوه إذا استمر في الممارسة هذه. يقرر العدول إذا. ولكن الخوف من تعطيل العضو، يرميه، من جديد، في التجربة؛ يبدأ بتفحص هذا العضو ليتأكد من فعاليته، وهكذا يكون قد انزلق مجدداً إلى ما كان يرفضه ويمارس العادة السرية من جديد، امعاناً في التأكد. وتعود الدائرة إياها: ممارسة،

خوف وقلق، قرار بالعدول، محاولة تأكد وعودة من جديد إلى البداية. وهكذا تكرج الدوائر لتتكدس في ظلمة الليل والوحدة.

قررت الانفصال عن هاني وجمعت نفسي لأبدأ من جديد. هل أصمد هذه المرة وأخرج من آلية التكرار؟ حاول هو الاتصال بي مرات كثيرة فصددته، سرت في تنفيذ قراري حتى النهاية. ولكن هذا القرار رماني في الوحدة المؤلمة. لن أستسلم، قلت لذاتي، بل سأحاول أن أدجن هذه الوحدة وأحاورها وأخلق منها صديقاً. كنت أمارس نشاطي العادي في النهار وأعود إلى البيت في المساء. وأصبح لي صديقان: الوحدة والليل، يزور انني دائماً معاً. أمضيت فترة برفقتهما فوجدت نفسي بعدهما على حافة الاختناق، إذ أصبحا بالنسبة إلي حلقة مغلقة تضيق حول عنقي. أعياني صمتهما. فقررت أن أكسر هذه الحلقة وأحرر نفسي منها، ولكن كيف؟ كنت قد مللت العمل السياسي في هذا البلد حيث أصبح العامل المسيطر هو الصراع الطائفي، ولا موقع لي فيه. النشاط الفكري خذلني لأني خارج الخط الطائفي. خارج الخط القومي وخارج خط الحزب. أين المفر إذا؟ مكتبتي الملأى بالكتب القيمة أتت منفذاً لحالتي فغرقت في القراءة المجردة البعيدة عن كل الاجواء السائدة. انعزلت عن العالم وعن وحدتي. هل يعاش طويلاً بين سطور الكتب؟ ضاق صدري وشعرت أني استنفذت كل موجودات البلد الذي أعيش فيه، ولاحت في ذهني فكرة السفر. تمسكت بها وسافرت إلى الولايات المتحدة حيث يعيش أخي يوسف. أمضيت بعض الوقت هناك. ولكني عدت؛ لم أستطع الاستمرار. عدت إلى عالمي المغلق، ومن جديد عادت إلي الدوائر اليومية والاختناق. أين الخلاص ؟ هل أستسلم لليأس؟ هل أترك الاحباط يمارسني؟

لن أترك اليأس يسيطر علي! غصت في ذاتي أفيها تفلية، ومرة أخرى وجدت نفس أمام تلك المعادلة المقعدة التي تراءت لي سابقاً والتي اكتفيت باكتشافها من دون الغوص في آلية تحركها. الصورة تغيرت الآن: في المرة الاولى رأيت صورة ذاتي كالكائن الأول الذي تكلم عنه أحد محاوري سقراط في محاورة المأدبة le banquet عند أفلاطون. كائن كروي الشكل إنفصل إلى قسمين وأخذ كل قسم منهما يبحث عن الآخر، يبحث عن اكتماله. لست أدري كيف كان هذا الكائن الاول بالنسبة إلى محاور سقراط، هل في شكله الكروي كان يدير ظهره إلى الخارج أم كان بوجهين متجهين نحو الخارج؟ أما بالنسبة إلى فكنت كائناً كروياً له وجهان، كل واحد منهما ينظر في اتجاه، وكلما استهواه شيء في الخارج انشد إليه ناسياً وجه الثاني الي يستهويه، من الناحية المقابلة، شيء معين ينشد إليه، فيحدث

التمزق الذي يجد تعبيره بالالم الشديد،إذا كيف لكائن واحد أن ينقسم من دون أن يعمد ذلك بالدم؟

لنربط هذا الكائن بالواقع فماذا نجد؟ بعد أن تزوج عيسى وجدت نفسي، بعد أن انعزلت لفترة عن الخارج وغرقت في قراءات مجردة ومتعالية، كائناً ما زال كروياً، ولكن تحولاً قد حصل فيه إذ أن احد وجهيه قد حول اتجاهه نحو الداخل ليواجه نصفه الآخر، ليس وجهاً لوجه بل مراقباً، إذ أن الوجه الثاني ظل متجهاً نحو الخارج. وهنا بدأت المأساة فعلاً: نصف يرى نصفه الآخر كشخص آخر. هكذا أمضيت وقتاً طويلاً؛ إنس مني يراقب الإنس الآخر الذي يدير له ظهره.

كنت في تلك اللحظة أبي وأمي معاً في غرفة نومهما، وتبدى لي كل اختلافهما، فقلت لنفسي:"أبتاه أبعد عني هذه الكأس". وجدتُ نفسي أشرب هذه الكأس حتى الثمالة. كان طعمها مراً علقماً.

لكن يبدو أن سيروره الواقع أبطأ من سيرورة الفكر المحلل والقرارات النظرية. فما توصلت إلى إقراره بعد التحليل النظري استغرق زمناً طويلاً كي يتحول إلى واقع.

-93-

كنت قد تزوجت وانتهى الامر. بقيت، مع ذلك، صديقاً لهبى. صداقتنا أصبحت قائمة على أرضية جديدة. تواطأنا بصمت على نمط معين من العلاقة. كانت علاقة صافية استقامت على مزيج من الحلاوة والمرارة معاً. كنت أنا أقبل كل شيء بلا مبالاة. أما هي فقد شعرت أن زواجي حررها من الاحراج بيننا، على الاقل ظاهرياً، فابتعدت عني نسبياً، تاركة لي المجال للغوص في حياتي الجديدة، وأصبحت كلياً مع هاني.

-94-

انصرفت إلى هاني فعلاً، وحاولت إقناع نفسي به بعد أن تفحصت كل علاقات اصدقائي التي تبدت لي متناقضة هي أيضاً؛ كل أصدقائي الرجال كانوا يعيشون ما كنت أراه متناقضاً، إذ انهم كانوا ثوريين حتى النهاية في أقوالهم وتقليديين حتى النهاية في علاقاتهم؛ إلى جانب كل ثوري إمرأة عادية، لا علاقة لها بعالمه. حاولت إقناع نفسي بهذه المعادلة المتداولة في محيطي إذ قلت لها: لماذا لا تستطيع المرأة ما يستطيعه الرجل؟ هو يحافظ على شخصيته حتى ولو تزوج أو عاش مع إمرأة عادية جداً، فلماذا. أنا، لا أحافظ على شخصيتي وأستمر مع هاني الذي هو، بالنسبة إلي، كالزوجة التقليدية بالنسبة للرجل المتحرر الثوري؟

حاولت هذه المعادلة، وأخذت أنظر لها وأبررها وأغالي في تبريرها حتى أدركت أن هذه المغالاة ليست إلا الدليل على عدم إقتناعي بها، لكني أغمضتُ عينيّ عن ذاتي، وثابرت في عنادي المتحدي. لكن أتحدى من؟ أتحدى ذاتي ضد ذاتي؟ ما هذا الانتحار؟ تحولت بعد فترة إلى كائن يراقب كائناً آخر. حتى ممارسة الجنس مع هاني أصبحت بالنسبة إلي، كمن يحضر فيلماً بورنوغرافياً. كنت، وأنا معه في السرير أراه يمارس الجنس مع وجهي الآخر، فما عدت أشعر بأية لذة. تحولت إلى آلة بدأ التكرار يحطمها ويهريها.

-95-

أصبحت هبى ملكي تماماً. لم تعد تطالبني بشيء ونسيت كل ما يتعلق بحياتي مع عائلتي وتصرفت معي كأني لها وحدها ولا يشغلني عنها شاغل. دخلت عالمها من جديد وأصبحت علاقتنا معلنة للجميع. أرتحت لتصرفها وأصبحت ملازماً لها.

هذا الوضع لم يدم طويلاً. بدأت هبى تتغير، كانت في البداية نهمة في ممارسة الجنس معي، باردة في علاقتها معي أمام الآخرين، ثم أصبحت حارة معي أمام الآخرين وباردة معي في السرير. وكلما كنا ننتهي من ممارسة الجنس كانت تضحك، لا أعلم لماذا، وحين كنت أسألها، كانت تجيبني بأنها تحب ذلك، ولكنها سرعان ما كانت تخرج من الغرفة لتأخذ سيجارة تدخنها وهي غارقة في ذاتها، كأنني ما عدت موجوداً معها. لم يزعجني سلوكها هذا لأني كنت واثقاً أنها لي وحدي.

-96-

ماذا قال"سارتر" لـ "سيمون دي بوفواز" وهو على فراش الموت؟ قال لها: يا صديقتي سيمون لم أكن في حياتي سوى masturbateur de femmes ما هو مرادف هذه الكلمة بالعربية؟ لجأت إلى القواميس أسألها فاستغربت الامر إذ أني لم أعثر على كلمة عربية تدل على معنى تلك الكلمة- العبارة التي استعملها سارتر. اليس الامر غريباً؟ وما هي دلالته؟ إنه يعني بكل بساطة أن الفكرة التي صرح بها سارتر لم تخطر ببال العرب إطلاقاً ولهذا السبب لم ينوجد لها اللفظ المناسب. ولكن لماذا لم تخطر ببال العرب فهذا أمر آخر له تفسير طويل نختصره بأن الفكر العربي مفعم بمفهوم "الفحولة" وأن الكائن العربي المفكر لم يصل بعد إلى هذا القلق المبدع إلذي توصل إليه سارتر. المهم في كل ذلك والذي لا مجال لتحليله الآن، هو أن هاني ما عاد يعني لي سوى ما قاله سارتر لصديقته.

لكن يبدو أن للنظر تأثيراً كبيراً على من يقع عليه. في الشكل الذي أصبحت عليه، في تلك المرحلة، كنت أنساً ينظر إلى الأنس الآخر فيه. تثبت فكري على الشق الآخر الذي ما زال يدير ظهره. وللنظر، إذا تكثف، ثقل يزداد مع الاستمرار، حتى أنه يرغم الآخر على التلفت إلى من يصب عليه شعاع مقلتيه. هكذا أخذ وجهي الآخر يتحرك ببطء كأنه ينتزع نفسه انتزاعاً من عالمه. أخذ تحركه شكلاً دائرياً بطيئاً إلى أن التقى نظري بنظري وتعاكسا. فكان اللقاء حميماً جداً، إذ كان لوقعه علي شعور بالخفة التي تشبه تلك التي تكلم عنها "كونديرا" في كتابه "خفة الكائن التي لا تحتمل". ولكنها،بالنسبة إلي، كانت محتملة جداً ومفرحة جداً. أصبحت معها أشعر بنفسي كأئناً مجنحاً واستهواني الفضاء الفسيح.

-97-

استمرت حياتي مع هبى ولكنها بدأت تأخذ خطاً روتينياً، واصبحت هبى، كلما رأتني أظهرت تعبها وإنشغالها. كلما أتيت إليها وجدتها غارقة في القراءة والكتابة، كتابة لا أفهم منها شيئاً حين تحدثني عنها. وحين تلاحظ ذلك علي، تقفل الموضوع. نجلس أمام التلفزيون إلى أن ننعس، فندخل غرفة النوم وغالباً ما كانت هبى متعبة، فنمضي ليلتنا كأخ وأخته حتى ولو جمعنا سرير واحد.

إستمر وضعنا هكذا، وأنا أعتقد أنها تمر في مرحلة صعبة، كالعادة، تعود بعدها إلي ونعود إلى سابق شبقنا وعشقنا. لكن الأمر طال وطال جداً، وفهمت، من دون كلام بيننا، أنها بعدت عني إلى غير رجعة. فانسحبت من حياتها وعدت إلى سابق ممارساتي.

-98-

إذا ما عدت ترى الآخر هل يظل موجوداً؟ النظر هو الذي يخلق الآخر ويوجده. حين ألتقى نظري بنظري في داخلي، وأصبحت كائناً مؤلفاً من إنسيين: أحدهما ينظر في غيون الآخر، وجدت نفسي وملكتها، من دون أن أهمل العالم الخارجي، إذ أن نظر كل إنس مني أصبح يرى الإنس الآخر ويرى ما وراءه. وهكذا تمت المصالحة بيني وبين ذاتي، وبيني وبين العالم، وانتهى التمزق وكانت النتيجة أن هاني الذي تحول عنه نظري أصبح غير موجود لأني ما عدت أراه إلا بنظر الإنس الذي كان يرفضه. وهذا لايعني أن التناقض بين الانسين انتهى ولكنه أصبح تناقضاً مسالماً.

-99-

عشت مع سيمون سنوات من دون إنجاب بإنتظار انتهاء الحرب في لبنان كي لا نظلم طفلاً لا علاقة له بما يحدث. وحين أنتهى الحرب، كما قيل لنا، عدنا إلى حياتنا السابقة، وأصبحت التقي بهبى دائماً: في العمل وفي المقاهي وفي السهرات. كانت هبى أخرى. هل غيرها السلام إلى هذا الحد؟ تغيرت كلياً وأصبحت تتصرف كأنها خارج كل عالمها الماضي. ما كنت أعلم أين أصبحت مع هاني ولم أسألها. لكني شعرت بشيء أنعش قلبي إذ أحسسته ينبعث من جديد.

تكثفت اللقاءات بيننا وأصبحت أقرأ الحنين في عينيها، ومن شدة حذري كنت دائماً أقول لنفسي: ربما أعكس حالتي عليها وأقرأ حنيني أنا في عينيها. لكني حزمت أمري وأردت التأكد من مشاعري وحدسي. قررت زيارتها، وسرعان ما انتابني الشك في صدق كل احاسيسي. وحفاظاً مني على كبريائي وكرامتي، وعدم استعدادي للفشل في تقديراتي حاولت تدبير زيارتها بعد أن اتصلت ببعض الاصحاب لمرافقتي، حتى إذا ما كذب ظني بها، ظلت لقاءاتنا في إطار الصداقة وبين الاصدقاء.

فاجأناها، بعد ظهر يوم جميل. كانت في بيتها مع صديقة مشتركة. رحبت بنا مبدية كل سرور. وبعد وقت قصير، حسمت الموضوع قائلة وكأن الامر، بالنسبة إليها، لا يتحمل الجدل:

-فلنذهب الآن إلى السوق لنشتري بعض الاغراض والمأكولات للسهرة.

كان توقعها صحيحاً، إذ لم يعترض أحد منا على طلبها. وهكذا وجدنا أنفسنا في السيارة متوجهين إلى حيث ترشدنا. اشترينا بعض المشروب وبعض الخضار واللحوم الباردة وعدنا إلى البيت، بيتها، حيث اشتغل الجميع بتحضير الطاولة. وحين تمت كل الترتيبات سكبنا المشروب في الكؤوس وبدأت السهرة. كان الجو لطيفاً جداً ومرحاً جداً، شعرت فيه أن هبى تمارس نفسها بكل حرية وصراحة، كأن قيوداً قد تكسرت من حول معصميها ورقبتها وكل كيانها. كانت، بكل بساطة، كائناً جديداً.

موجة من السعادة اجتاحتني، أصبحت جزلاً أساير الجميع كأني، أنا أيضاً، في انفلات من ذاتي. كنت أشعر هبي قريبة جداً مني، وكانت تمر لحظات تتلاقي فيها نظراتنا لتقول أشياء كثيرة، أقلها متعة هذا اللقاء التام بيننا.

فرغت الكؤوس وملئت من جديد، وانحلت كل العقد عند المجموعة فطلبوا الاستماع إلى الموسيقى. قامت هبى، وكانت أشدنا حماسة للفكرة، فاختارت موسيقى ناعمة رومنطقية، ونهض أحد الزملاء فدعاها للرقص قبل أن تجلس.

راقصته، وعند انتهاء الكاسيت، أعادتها من جديد وتوجهت نحوي، أخذت يدي، فأنصعت لها من دون تردد، وأنا عادة لا أرقص ولا أعرف الرقص، وتوجهنا معاً إلى حيث يمكننا الرقص. تبعنا الآخرون أزواجاً أزواجاً وتوجهنا معاً إلى حيث يمكننا الرقص. تبعنا الآخرون أزواجاً أزواجاً وبدأنا نتمايل مع الموسيقى الناعمة. وفي لحظة التصق جسدانا وأكملا تمايلهما الهادئ. وضعت هبى رأسها على كتفي، وملتُ برأسي على عنقها وأصبحنا كتلة واحدة. داعبت شعرها، وبحركة بطيئة تتناسب مع نغم الموسيقى، أخذت هبى ترفع رأسها عن كتفي وأنا أسحب وجهي عن عنقها حتى التقى الثغران وغرقا في قبلة، اتسق فيها كل الخلل في التزامن بيننا، وأصبحت الموسيقى كأنها هي التي ترقص على نغم هذا التوحد، حيث غاب عنا كل الحضور والتغى العالم من حولنا. فلا هي ولا أنا أحسسنا بالحرج. كنا في صدق مع ذواتنا. وبالتالي ما همنا إن وجد الآخر أو لم يوجد؟ إن راقب أو لم يراقب!؟

-حقاً، قالت لي حين التقينا مرة أخرى، لقد خرجنا في تلك الليلة من منطق الواقع إلى منطق الحقيقة التي تجمعنا؛ يبدو أن الخطوط المتوازية parallèles ، لا تلتقي إلا في التوحد الكلي. وإذا التقت التغى المكان، لأن ما يحدد توازيهما هو المكان فقط. وحين تلتقي تصبح خطاً واحداً، فيتبخر المدى ويتحول الوجود إلى بعد واحد، هو بعد الزمان الذي لخصه، في تلك السهرة، انسياب الموسيقى. التقينا، في تلك اللحظة، فانتفى المكان وتحول الزمان إلى موسيقى تتمايل على وقع توحدنا، لحظة كأنها الزمن كله!

صمتت قليلاً، كأنها تفكر، ثم تابعت:

-والآن أشعر أن ما بيننا خاص جداً، لا علاقة لأحد به ، إنه خارجهم جميعاً بما فيهم زوجتك. لقاؤنا هو غير لقاء الجسد الذي تُبنى عليه الخيانات الزوجية. وما أحسست به، تلك الليلة، هي ولادة علاقة تمخض بها الزمن مدة خمسة عشر عاماً، وكانت تتعثر كل هذه المدة كأنها خاضعة لقدر معين. ولكن لا بد للحقيقي أن ينتصر على الواقعي مهما ترسخ هذا الواقعي!

أي واقع تتكلم عليه وأنا قد تزوجت! هل تطلب مني أن أغير واقعي؟ ولم لا؟ فما زلت من دون أولاد والطلاق سهل في غيابهم. هل تريدني فعلا؟ هل أقترح عليها طلاقي من زوجتي؟

حين عرضت عليها ما أفكر به، صمتت كمن غار في ذاته ونسي كل ما حوله، ثم قالت:

عيسى لا تفهمني خطأ. لا أريد منك أن تغير حياتك. علاقتنا هي خارج إطار الزواج التقليدي. إننا خطان متوازيان كما قلت لك، وهما لا يلتقيان إلا بإنتفاء المكان، حيث لا يوجد إلا الخطوط المتقاطعة... لا تسقط توازنيا في التقاطع، ولا تحول الضرورة إلى صدفة تنتهي لحظة تحققها مهما طال زمن هذا التحقق.

عادت إلى الصمت، لكنه لم يطل هذه المرة، ثم قالت:

-عيسى، يبدو أن الحياة لعبة كبرى تنعكس في رؤوسنا أوهاماً صغيرة. فأرتك لي الأوهام كي ألعب اللعبة!

-100-

صمت عيسى، يبدو أنه فهمني، واقتنع بكلامي. وبعد فترة حملت سيمون وهو الآن ينتظر مولوده الجديد. هل أقنعه كلامي؟

زارتني أختى هند وأخبرتني أنها رأت هاني مع سيدة جميلة في أحد المطاعم.

وقال لي أخي إنه التقى بهاني مع زوجته في نادي...

وقالت لي صديقة إن هاني كان دائماً مع زوجته ولم يختلفا أبداً.

وقال لي صديق إنه...

وقالوا لي ان...

كنت كلما سمعتهم أنظر إلى الوراء، فأرى نفقاً طويلاً طويلاً ومظلماً، وفي فوهته الثانية أشكال آدمية تتراقص وكأنها دمى متحركة، لكن في آخر النفق، ان ثمة ضوء يتلامح.

أنتهى

1992/12/18